وارد بدر السالم

بنات لالِشْ

(اكتشاف عذراء سنجار)





بيت الياسمين
للنشر والتوزيع



اسم الكتاب:
بنات لالِش (رواية)
اسم المؤلف: وارد بدر السالم
الناشر:
بيت الياسمين للنشر والتوزيع
رقم الإيداع:
2019/ 15733
الترقيم الدولي:
978-977-817-196-9
الطبعة الأولى لبيت الياسمين يناير 2020

المدير التنفيذي: فاطمة الحلواني
مدير التحرير: معتصم عراقي
تصحيح: يوسف مسلم

الإشراف العام:
زياد إبراهيم

المراسلات:
71 ب حدائق الأهرام - البوابة الأولى
طريق الفيوم - ميدان الرماية - الجيزة
جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني:
Baitelyasmin@gmail.com
ziad.meguid@gmail.com

تليفون:-
(+202) 0111 00 94 62 5
(+202) 0101 66 85 58 3

رواية

بنات لايلش

وارد بدر السالم

بنا في يه زداني باكي د لوفان وميهره بان

باسم الله الطاهر المقدس

قـد صنعـتُ عمـودًا قبالـة بوابـة المدينـة، وسـلختُ كلّ القـادةِ العصـاة، وكسـوتُ العمـودَ بالجلـدِ المسْـلوخ.. قـد أمـرتُ بزعـماءِ المـدنِ المقهـورة فسُـلخوا، وكسـوتُ جـدرانَ المدينـةِ بجلودهـم، والأسرى قتلتُهـم بالسـيف وطرحتهـم عـلى كومـةِ الـروث، والصبيـةُ والبنـاتُ أحرِقـوا..

آشور ناصربال الثاني

الجزء الأول

أميرات المعبد

1

قبل بدءِ مراسيم التعميد بوقتٍ قصير، أطلّ الراعي الأعرج راڤيار[1] بثوب أبيض مزنّر بحزامٍ قطني أبيض، وعلى وجهه ابتسامة زهو عريضة، لم يستطعْ إخفاءها في هذا الكرنفال الأبيض الذي يحيط به، تسترسل تحتها لحية مشذّبة قليلًا، ومنتظمة، كأنه أعدّها للمناسبة، غيّرت من ملامحه المُتربة القديمة التي كان عليها في شنگال[2]، حينما كان يطرق أزقة المدينة وشوارعها بقناع قطيعهِ الملوث بالأطيان والقش، وثيابه الرثة المتراكمة على جسده واكسسواراته الصدفية والعاجية، التي تطوّق رقبته كغجري تائه في مدينة مجهولة، ولحيته المتهدلة، وانخطافات

1- معناها الصياد. باللغة الكردية

2- هي سنجار باللغة الكردية، وترد في الرواية بصيغتيها العربية تاريخيًا، والكردية التي يتداولها أيزيدية سنجار.

وجهه التي يجاهد أن لا يجعلها على مرأى من شرطة الحِسبة المنتشرين في كل مكان، فبدا أمام الفتيات المتواجدات في باحة المعبد أقلّ من عمره الستيني كثيراً، وأكثر شبابًا مما كان عليه الراعي الذي يجوب شنگال في مواسم معينة، فغاب الوجه القديم الملبّد بالأتربة، والغموض، وأشواك الجبل، وحلّ فيه طيفٌ رجولي آخر أكثر وضوحًا وانفتاحًا وخفّة.

تأملنَهُ بطلّته المهذبة النظيفة، وباختلافه مع الراعي القديم الذي انتشلهنّ من الأسر في أوقاتٍ متفاوتة، فهرعن إليه بطريقة احتفالية كحمامات بيض، وطوّقنه من كل جانب بشعور الامتنان العظيم للمخلّص الوافد من وراء الجبل، أيامها بدا كأنه ملاك هبط في الأوقات الحرجة، أو نبي تركه تعاقُب التاريخ ونساه في تضاريس الجبال حتى موعد ظهوره الغامض في شنگال، وقراها المتباعدة المحتلة، راعيًا مسنًا يظهر في مواسم الربيع الخاطفة غنّامًا متجولًا لا يثبت في مكان.

رافقه شعور بالخجل وهو يُستدعى من قبل بابا چاويش[3] وسدنة المعبد، لحضور هذا الطقس التعميدي في احتفالية تخليص ست أسيرات بفديً مالية متفاوتة، وعلى مراحل ومغامرات مضنية استمرت شهورًا صعبة، لن يفهم صعوبتَها

3- مركز في المجلس الروحاني، من طبقة البير ويكون بمثابة الحامي أو الحارس أو الراعي لمعبد لالِش، فالبابا چاويش ينذر نفسه لخدمة المعبد، ويستغني عن ملذات الحياة، بما فيها الزواج كالراهب عند المسيحيين - حالياً يشغل هذا المنصب بير شرو.

وخطورتَها أحدٌ غيره، مثلما هو الآن في لحظة فخر يخالجه، ويتجذر في روحه بسعادة مطلقة، مارًا بيده على أكتاف الفتيات، ورؤوسهن المغطاة بشالاتٍ بيض، وهو يضم البعض منهن إليه، ويزيد من ابتسامته العريضة شاعرًا بفخر اللحظة، متمتمًا بأسماء الفتيات كمن يؤكد أنهنّ باقيات في ذاكرته إلى الأبد. شانيا.. ژيان.. شهربان... بيركسان.. سولاف..چنار.. يا بنات لالِش العزيزات، بقيت الكثيرات منكنّ هناك.. بقيت.. هنار.. هلات.. أڤين.. رندة.. نارِيمان.. شهربان.. ونشتُمان[4]، وكان قد أفرد أصابعه وتوقف في العد السابع).. سيساعدني الرب وطاووسي ملك[5] على تخليصهنّ من الأسر.

- ألم تخلّص نشتُمان؟

تساءلت إحدى الفتيات بعفوية. ردّ ببساطة:

- لم يعد لها أثر.

قالت فتاة أخرى كأنما لتؤكد وجود الفتاة الغائبة:

- أظنها في أحد بيوت الأمير الكبير أبي العينين[6] هي وهنار وشهربان وأڤين.

4- الوطن باللغة الكردية.

5- هو كبير الملائكة الذي اتخذ منه الأيزيديون شعارهم . ويعتقدون أنه الملاك الذي لم يسجد لآدم لأنه رفض أن يسجد لغير الله في القصة القرآنية المعروفة.

6- أبو العينين: اسم علم مركّب. مثل أبو ظبي

هزّ رأسه وقال بثقة:

- سأجدهنّ.. سأقلب شنگال عاليها إلى سافلها.

التفت إلى أكثر من جهة، يقلّب نظراته على السفوح المتقاربة المحيطة بالمعبد:

- مسكين والدها كم تعذّب من أجلها وغامر بحياته. إنه محبط أشبه بالمجنون.

لم تمنع الفتيات دموعهنّ المترقرقة في عيونهنّ أمام المخلّص الستيني الذي يجوب المدينة المتربة بقطيعه، وبطريقة غامضة يصعب عليهنّ فهمها أول الأمر، ويتوقف كثيرًا مع جنود الحِسبة، وسيطرات المدينة، ويدخل بيوت الكثيرين منهم ويبقى أوقاتًا طويلة يظهر كأنه أحد أتباع الجماعة، وأحيانًا يختفي أيامًا طويلة وأسابيع من دون أن يترك أثرًا، غير أن رائحة غنمه وخرافه تدلُّ عليه في كثير من الأحيان، مارقًا في الدرابين المهجورة ومتطلعًا إلى النوافذ والأبواب المقفلة، تسبقه صلصلة المرياع[7] ذو القرنين المعقوفين الذي يقود القطيع برنين جرسه الذي يطوّق رقبته.

7- خروف ذو قرنين معقوفين غزير الصوف. يُفطم عن أمه أثناء ولادته، ويقوم الراعي برضاعته بزجاجة مخصصة لهذا الغرض، كما يقوم بإخصائه، على أن تكون مهمته الأساسية هي قيادة القطيع عبر جرس يوضع على رقبته ليكون دليلًا إليها.

2

عادت البنات إلى حائط المعبد وانتظمنَ بصفين، فيما السحب الراعي يصافح بارتباك شبابًا ورجالًا آخرين، تزاحموا في نهار معبد لالِش[8] الذي اكتظّ بجمهورٍ غير قليل لتحية أسيراته الناجيات، وهو ما توقعه منظّمو الحفل من الشباب والناشطين المدنيين والقائمين على خدمة المعبد من الخلمتكارية[9] المتطوعين، حتى أن بابا شيخ[10] وبابا چاويش وبعض القوالين[11] والمجيورين[12] حرصوا على أن يكونوا في

8- المعبد الرئيسي لأيزيدية العالم في منطقة شيخان. يضم ضريح الشيخ عدي بن مسافر، ويقع بين ثلاثة جبال هي :عرفات - حزرت – مشيت.

9- مفردها خلمت كاري، تُطلق على مجموعة متطوعين أيزيديين للقيام بمجموعة من الأعمال؛ كالاهتمام بمعبد لالش من تنظيف، وجني الزيتون وعصره لاستخلاص الزيت الذي تُستخدم بذوره في إشعال فتائل قناديل المعبد.

10- المرشد الديني، وهو منصب أو مركز في المجلس الروحاني الأيزيدي، ويأتي بعد الأمير مباشرة على أن يكون من سلالة شيخ فخر الدين الشمساني- وحالياً يشغل هذا المنصب شيخ ختو.

11- فئة من رجال الدين الذين يشتركون في الزيارات السنوية برفقة رمز يمثل طاووس ملك في جميع القرى الأيزيدية، هناك قوالون يتلون التراتيل الدينية، وآخرون يحملون الطاووس على رقابهم ضمن مراسيم تجري في أحد المنازل، وعادة ما يكون القوالون من منطقتي «بعشيقة» و«بحزاني» حصرياً.

12- هم السدنة الذين يقومون بترميم المزارات الدينية كل ليلة أربعاء، ويقومون بخدمة المزار والإعلان عن أيام الأعياد، كما يقودون جماعات القرية الذين يزورون

مقدمة مستقبلي الأسيرات اللواتي تخلصن من الأسر، بطريقة الزواج الإسلامي الورقي من شخصية غامضة، لا تبارح باب الجامع ولا تنطق كثيراً، بفضل الراعي الأعرج رافيار الذي عقد صلاتٍ غامضة مع رؤوس داعشية مهمة، وقدّم لهم رشاوى كبيرة، مثلما يتداول هذا مهجّرو سنجار في مخيمات دهوك وباعذرا.

انتظمت الأسيرات بصفين حافيات الأقدام، مجللاتٍ بالبياض، والخجل، والفرح، ورهبة المكان الذي فارقنه منذ وقت طويل، بعد خروجهنّ من الكهف الذي يضم ضريح الشيخ عدي بن مسافر[13]، وأداء مراسيم الزيارة بخشوع وبكاء صامت، إلا أن زحمة الرجال والنساء والأطفال المحتشدين الذين قدِموا من المخيمات في دهوك وشاريا وخانك وشيخان وإيسيان وباعذرا وجم مشكو وپسرسڤي وگويلان وبردرش، ملأوا الساحة الصغيرة بالفرح وطقطقات الموبايلات في صور سيلفي متسارعة لتوثيق الحدث، والتركيز على وجوه الناجيات اللواتي ظهرنَ اليوم في احتفالية المعبد؛ مجتمعاتٍ بنداءٍ من شبابٍ ناشطين لتعميدهنّ وتطهيرهنّ من وساخات داعش حينما كنّ أسيرات ومغتصبات،

معبد لالِش، ويكونون في مقدمة مستقبليهم.. إضافة إلى وظائف دينية أخرى.

13- الرجل المقدس الأول في الديانة الأيزيدية، ويعدّه الايزيديون تجلياً للملاك طاووس. وهو مطوّر ديانتهم. ويسمى أيضا شيخادي. ما يزال ضريحه في المعبد الرئيسي لالِش يحج إليه الأيزيديون من كافة أنحاء العالم.

فأحدثوا موجات من الحركة والتزاحم والفرح، توطّنت في عيون أشرقت دامعةً مع شمس الربيع العمودية، وفي صلاة واحدة ترتلها القلوب في نبضٍ مشترك، يمكن استشعاره بسهولة.

3

قال شاعر سنجاري شاب منفعل بالحدث وهو يدير وجهه إلى الجمهور المختلط:

- هؤلاء بنات شنگال وبنات لالِش أخواتنا العائدات من الأسر. إنهنّ أميرات الحياة اللواتي عانيْنَ من ظلم وقذارة داعش، لكن بقيت روح لالِش في أعماقهنّ وبقيت الأيزيدية نورًا يشعّ في قلوبهنّ.

همهم الكثيرون مستحسنين هذا الخطاب الفوري، لكنّ رجلًا خمسينيًا تميزه شوارب متدلية تحشرج صوته، كما لو غصّ بعصفورٍ صغير لم يستطع ابتلاعه، غير أنه عاد وبدا متحمسًا كما لو يوجه خطابه إلى حشد غير هذا:

- نعم. إنهنّ أميرات شنگال ولالِش وأميرات الأيزيدية كلها. لقد أثبتنَ أنهنّ بنات الشمس وبنات الشرف الأيزيدياتي الرفيع حينما تخلّصنَ من أقسى وحوش على وجه الأرض، ورفضن السبي والعار والذل، ليعدنَ إلى الحياة أكثر شرفًا وعفةً، ويعُدنَ إلى العين البيضاء[14] ليتطهرنَ ويمضيَن إلى الحياة من جديد.

14- بئر ماء يقع ضمن محيط معبد لالِش ويتعمد به كل أيزيدي .

قاطعته امرأة بزغردة قصيرة كبلبل مختنق، وبادلتها أخرى بزغردة طويلة كصافرة مرتعشة بعثت النشوة والحماسة في الحاضرين، وطغت على الصخب البشري الذي تختلط أصواته ونداءاته، فيما بقيت وجوه البنات مستكينة في صندوق الفرح العامر من حولهنّ بهدوء بارز، لكنه لا يخلو من الحرج في نسق الانتظار تحت هيمنة الفرح الجماعي، والاستقبال الذي أغرقهن بالزهور والعطور في احتفاء مقدس، أشعرهنّ بهيبة المكان، وأن أرواحهنّ ما تزال بيضاء نقية بالرغم من الدنس الطويل الذي حملنه في شهور الأسر العصيبة.

4

أحد الشباب الناشطين بعد أن تقدم أكثر من خطوة ليلفت الأنظار إليه تحدث بحماسة:

- مرحبًا بكنّ أيتها الأخوات الطاهرات في معبدنا النوراني لالِش. لقد عادت الحياة إليكنّ مرة ثانية بين الأهل والأحباب والأصحاب بفضلِ من خودا[15] وطاووسي ملك وتحررتنّ من أسر أرذل خلق الله.. ولا ننسى هنا المشقات التي تحملها العم رافيار الذي خاطر بروحه لمرات كثيرة من أجل أن يكون وسيطًا بيننا، وبين دواعش دولة الخرافة الإسلامية بطريقته المغامِرَة من دون أن يتكاسل أو يتعب أو يخاف من موت، في

15- الله باللغة الكردية.

سبيل إنقاذ الشرف الأيزيدي بالمال والذهب وكل شيء ثمين..

ولكن لا يوجد أثمن من شرف أخواتنا الأسيرات.

التفت الشاب الناشط إلى الراعي كأنه يحثه على الكلام، ففهم الرجل هذه الإشارة وتقدم خطوات عرجاء مرتبكة إلى الأمام، ومسح وجوه الفتيات بنظرات إشفاق فيها الكثير من الحب والحنان وطيف الابتسامة لم يفارق وجهه.

وجّه كلامه إلى بابا شيخ الجالس على دكة حجرية، لكنّ عيناه ظلتا تتنقلان إلى كل الوجوه المحيطة به في هذه اللحظة:

- لم أقم إلا بواجبي تجاه بنات لالِش وشنگال. وفي كل مرة أقرأ يهاجمني إحساس من أنني لن أعود إلى لالِش مرة أخرى. فهؤلاء غدّارون لا دين لهم ولا أخلاق.

كان صوته يتهدج إلى حد أنه شعر بالارتباك كما لو أن مهمته قد انتهت لكنه تدارك قائلًا:

- كل مرة أفهم شيئًا وأنا أنجو منهم بالصدفة.. مثلًا هؤلاء دينهم بين أفخاذهم وفي جيوبهم.. يعبدون الجنس والمال والدم.. إنهم قتلة.. بلا ضمائر.. وحوش وخنازير.

شعر أنه يتعرق قليلًا، وأن العيون التي تراقبه تحاصر وجوده العفوي في هذا المكان المقدس:

- بقيت أسيرات كثيرات في سنجار والرقة والموصل وحلب.. وخودا يساعدنا جميعًا لتخليص بناتنا من هذه الغمّة ويعدنَ إلينا.

ثم وجّه كلامه إلى بابا چاويش:

- نحتاج إلى كنز قارون يا سيدي لشراء بناتنا وفك أسرهنّ.

انبرى شاب منفعل مقاطعًا الراعي:

- الحكومة صفّرت ميزانيتها بالفساد والسرقة والمشاريع الوهمية، ولم يلتفت أي وزير أو برلماني إلى حال الأيزيديات المسبيات.. وين العدل يا سيدي بابا چاويش..؟

هز الرجل الوقور رأسه من دون أن يقول شيئًا لكنه ظل مصغيًا إلى راڤيار:

- هذه البنات خلصتهنّ برشاوى وفدىً مالية غير قليلة.. الدواعش يفرضون أموالًا طائلة أو مصوغات ذهبية والأهالي لا قدرة لهم على ذلك.. ولولا التبرعات الخارجية والمساعدات البسيطة التي تأتي من هنا وهناك، ومن مقامكم أحيانًا، لما فككنا أسر هذه البنات.

وكما لو يستعطف بابا چاويش:

- بقيت الكثير من البنات والنساء في الأسر.. نحتاج إلى مالٍ كثير.. كثير.

الفتيات الحافيات والمكسوّات بالبياض يشعرن بالسلام الكبير في باحة المعبد، وهنّ يستقبلن الورود الملونة التي يقدمها شباب ونساء ورجال وصبيان وأطفال في استعراض جليل، حتى امتلأت أيديهنّ بباقات ملونة من أزهار الربيع، وامتلأت أنفاسهنّ بالعطور، مأخوذات بالجموع المتزاحمة التي تحلّقت حولهنّ، وبدت كل واحدة كأنما خارجة من خطيئتها كـدُرّةٍ بيضاء بالرغم

مـن الدمـوع المتقطعـة التـي تترقـرق في عيونهـنّ السـعيدة.

كانـت الشـمس عموديـة في ربيـع المعبـد، وبـدت الجبـال الثلاثـة التـي تحيطـه مثـل مخـروط أخـضر مقلـوب ينفتـح إلى الأعـلى، فيكشـف الكثـير مـن الأشـجار المتكاتفـة الصاعـدة والكثـير مـن السـماء البيضـاء المفتوحـة عـلى الأمـل والكثـير مـن العصافـير والطيـور وغيـوم نيسـان العابـرة.

أمهـات يتطاولـن بـين الجمـوع، ويتمتمـنَ بدمـوع غزيـرة وعيـون كَليلـة لآبـاء يشـعرون بمشـاعر متناقضـة، منقبـضي الأرواح في حفـل الأمـيرات اللـواتي يتسـاوين في البيـاض الآن، وقـد تحولـن إلى حديقـة صغـيرة مـن باقـات الـورود التـي يضعهـا المتجمهـرون في أيديهـن، أو تشـبكها النسـاء عـلى مقدمـات رؤوسـهن المغطـاة بشـالات بيـض منحسـرة قليـلًا، فبـدَونَ مثـل شـجيرات بيضـاء مزهـرة بـورود الربيـع.

5

عـاد الشـاعر السـنجاري الشـاب، وألقـى قصيـدة باللغـة الكرديـة متحمسًـا حتـى تصبـب العـرق مـن وجهـه، واحتقنـت عينـاه بالحماسـة، وهـو يخاطـب بنـات لالِـش اللـواتي كـنّ مخطوفـات عنـد داعـش في سـنجار:

مهما كان الرصاص كثيفًا
لكنه لا يستطيع أن يحرق تين سنجار
ومهما كانت الغيوم داكنة

فلابد من شمسٍ تخرج أخيراً
ولابد للأوراق أن تعاود اخضرارها
والغصون تعاود رشاقتها
...
مهما كان سواد البارود خانقًا
لكن سنجار لا تختنق
فسماؤها زرقاء وعميقة
...
كل الطيور تعود لأشجارها في نهاية الأمر
وستنجلي رائحة البارود
وتنهض البيوت من ركامها
وينتبه الحطام إلى أضلاعه المتكسرة
فيقف من جديد يحكي عن موسوعة الألم الشنگالية
لكنه يقف أخيراً ويدعونا أن نعود
لنصلي على ما مضى صلاة الغائبين والغائبات
ابتداءً من حضن لالِش
ثم نمضي إلى شنگال معكنّ
أيتها الأخوات الجميلات المعمدات بالعين البيضاء مرة ثانية
فهذه مياه الطفولة تتدفق في عروقكنّ
وتخلقكنّ من العدم
فما مضى قد مضى

وتاريخ الأشجار يبقى أخضرَ

وها إنكنَ تولدنَ من جديد في حضن لالِش

تحت أنفاس طاووس ملك والجبال المقدسة

تولدنَ كطفلات البساتين

رقيقات وجميلات ومعطرات

إنه عطر خودا العظيم

إنه جمال شنگال العظيم

أكثر من يد رمت عليه وردًا صغيرة، وهو يزيد من انفعاله بإعادة مقاطع من القصيدة مرة ثانية، محتفيًا بطريقته الفردية، بين الدموع المنفلتة من عيون الأمهات والنساء الأخريات، والرجال المنسجمين بجلال الموقف، ونشيج الفتيات المتخافت، وفرح المكان المشتعل بالرقص، وأزهار نيسان الملونة المتطافرة من الأيادي.

6

سارت الجمهرة المختلطة كزفّة عرس بقوس واسع إلى العين البيضاء في الجانب الآخر من المعبد إلى مسافة قصيرة، لكنها طالت تحت مظلات من الورود المتساقطة على رؤوس البنات السعيدات في لحظات المعبد وعين اليقين التي غسلت وجوههن بيد امرأة التعميد القديمة؛ مباركة هذه العودة الميمونة والخلاص من كابوس السبي، مثلما هي بركات بابا شيخ الأبوية

التـي تحيـط بهـنَ مـع الـورود المتطايـرة عـلى رؤوسـهنّ، والـذي يقـود الأمـيرات الصغـيرات إلى عـين النقـاء، بثوبـه الأبيـض الفضفاض المزنّـر بحبـلٍ صـوفي أسـود، يلتـف عـلى بطنـه سـبع مـرات، ويتـدلى عـلى كتفـه حبـل مفتـول آخـر مـن الصـوف الأبيـض والأحمـر، وعلى رأسـه عمامـة بيضـاء، كأنـه مـلاك هابـط مـن السـماء، والـذي لم يتـوانَ مـن أن يكـون الأب الكبـير في طقـس التعميـد لبنـات لالِـش العائـدات مـن الأسر، وهـو مـا تـرك فيهـنّ شـعورًا غامـرًا بالفـرح، وعـادت إليهـنَ عـلى نحـوٍ مـا أسـطورة الشـيوخ العجائبيـين الذيـن يولـدون مـن العـدم بقـدرة الـرب، فيمتلكـون سـحر الملائكـة في بقائهـم الأزلي في ربيـع الحيـاة الـذي لا تدنسـه وحـوش الغابـات والـبراري، ليكونـوا شـيوخ السـلام بأرواحهـم النقيـة العاريـة مـن لوثـة الأزمـان كلهـا؛ تلـك التـي مـرت عـلى مـدار السـنوات، وتلـك التـي سـتأتي مـا شـاء لهـا اللـه أن تسـتمر.

إنها أجمل أسيرة يا عم

1

رجلٌ يبتعد عن الجموع المكتظة بطقس الفرح الجماعي، ويطلُّ عليها من على دكّة صخرية مثلومة من الجبل المطل على أعلى المعبد، متطلعًا إلى الوجوه المسالمة في استرخاءاتها الواضحة، وهي تستقدم الفرح الغائب منذ شهور سود، ويضع بين لحظة وأخرى صورة نشتُمان في تلك الوجوه لكنها تفترق عنها بقسوة، كمن يركّب وجهًا على روحٍ ليست له فينفر منه، ليظل الوجه طافيًا بصفائه القديم في مخيلته، ولا يستقر على جسد من تلك الأجساد التي كانت مدنّسة في أسرها الطويل.

2

صبية من بين الناجيات أطالت النظر إلى تلك الهيئة الغريبة التي تراقب الحشد السعيد. قوامٌ طويل ونحيف يتكئ بحرص على عصا طويلة، لا لون لها، ولحية عشوائية مسترسلة وشوارب ثخينة نازلة كذيل من جهتين، وعينان كأنهما فقدتا زرقتهما، لكنهما تشبهان

عيني صبية كانت معها في مكان ما ذات يوم.. أيكون هو؟

خطر في بالها أن الرجل أحد السنجاريين الهاربين أو المعذبين أو التائهين أو اليائسين في زحمة الهجرة الفوضوية، غير أنها تداركت ذلك وهي تخطو مع صويحباتها إلى العين البيضاء في احتفالية العودة، وصورة لصبية تلح في رأسها كثيرًا لكنها لم تستطع إعادة الكثير من أيام البكاء الطويلة المحاصرة في بيوت سنجار أو الرقة أو حلب.

وحدها صبية المعبد رصدت الرجل الذي لا يريد أن يحتك بالجموع، كأنه لا يريد أن يكتشفه أحد في انزوائه الأعزل.

ثمة شيء جعلها تتخلص من ارتباكها، وتطيل النظر كلما أمكنها ذلك إلى الرجل الوحيد، فتعيد على نحوٍ سريع صورة صديقتها نشتُمان التي فارقتها في مكان ما من سنجار محتقنة بالبكاء والكآبة والمرض والجفاف والعذاب الذي لا تجيده، ولم تعتد عليه، لكنها غابت عنها منذ فترة غير قصيرة في بيت من بيوت شيخ مجاهد سُمعته سيئة بين الأسيرات.

3

أغمضت عينيها وهي تستسلم ليدي امرأة التعميد، التي تغرف من بئر العين البيضاء غرفات ماء، وتمسح وجهها الصغير، وفي روحها شعور بالخلاص الأكيد وهي تتحرر من لوثة الأسر ووساخة الحمل المجهَض، فبكت بين يدي المرأة التي ضمتها إلى صدرها:

ـ خـودي يحفظـك وطـاووسي ملـك.. أنـت الآن طاهـرة كـما ولدتـكِ أمـك.. لا تبـكي يـا ابنتـي.. الـرب يحفظـك ويحميـك.

انسـحبت مـن المـكان تاركـة صبيـة أخـرى بـين يـدي المـرأة المعمَّدة، وخرجـت إلى الفنـاء المفتـوح عـلى السـماء، تتنفـس بعمق متخلصـة مـن أوسـاخ جسـدها التـي كانـت تحملها شـهورًا طويلـة، كمـن نجـت الآن مـن كابـوس كان يحاصرهـا طيلـة أشـهر الأسر السـوداء، خرجـت فيهـا مـن عنـق سـنجار بأعجوبـة تحمـل المـوت بـين يديهـا العاريتـين مـع الراعـي وغنمـه وعقْـد الـزواج الإسـلامي الوهمـي مـع رجـلٍ أعمـى، بقـي هنـاك تحـت قـدر مجهـول.

4

تفقـدت السـماء المطلـة عـلى الجمـوع في إزهرارهـا الربيعـي المتفتـح، فلفَتها الرجـل ذو العصـا التـي لا لـون لهـا، يقـف عـلى دكـة حجريـة تطـل عـلى فتيـات الأسر الناجيـات؛ فأدامـت النظـر إليـه تتملكهـا عاطفـة وغريـزة طفوليـة، لا تعـرف مصدرهـا كثـيرًا. غـير أن صـورة نشـتُمان الجميلـة جـدًا وبكاءَهـا الطفـولي اليومـي كانـت تقـوِّض قلبهـا في كل وقـت.

هـذا الرجـل الـذي تـراه في كل مـكان مـن المعبـد كـما لـو كان سـاحرًا بوجهـه الملتحـي. لا تعـرف كيـف اكتشـفته في لحظـة الاحتفـال حينـما رأت قامتـه الشـاخصة، وعصـاه الثابتـة بيـده وعينيـه اللتـين تشـبهان عينـي صديقتهـا الأسـيرة التـي فارقتهـا منـذ

وقـت لـيـس قصـيرًا، فغـيرت صـورة الشـحاذ أو المجنـون أو الضائـع مـن رأسـها حينـما ركـزت النظـر عليـه طويـلًا. وكالمخـدرة صعـدت سـلمًا يوصِـل إلى الدكـة مفترقـة عـن صويحباتهـا اللـواتي يتعمّـدْنَ بعدهـا، مبتعـدة عـن جمهـور يحتفـل بخلاصهـنّ الأخـير بـين دفوف وشِـبابات ومزامـير وصنـوج تعـزف موسـيقى الفـرح عـلى دبـكات سريعـة متوازنـة يشـارك فيهـا الجميـع.

5

سـبع درجـات طالـت بـين قدميهـا الحافيتـين والرجـل يسـحبها بعينيـه المنفتحتـين حتـى وقفـت مرتبكـة أمـام الجسـد الشـاهق وعصـاه الثابتـة بيمينـه كأفعـى محنطـة؛ تخالجهـا لحظـة ارتبـاك بأنهـا تتضـاءل أمـام قامتـه الطويلـة النحيفـة، لكنـه اسـتدرك لحظـة الصبيـة الصاعـدة إليـه، فقصّر مـن طولـه عندمـا جثـا عـلى ركبتيـه كالبـوذي متكئًـا عـلى عصـاه، فاقـترب وجهـه منهـا كثـيرًا ولاحظـت عينيـه اللتـين فقدتـا زرقـةً أكيـدة وهـي تـزداد ارتبـاكًا أمامـه وعصـاه التـي بقيـت واقفـة فصـارت أطـول منـه.

أشـار لهـا بالجلـوس عـلى البلاطـة الأخـيرة كإلـهٍ يأمرهـا فامتثلـت طائعـة متربعـة عـلى البلاطـة البـاردة، فارشـة أطـراف ثوبهـا الأبيـض حولهـا كفراشـة ناعمـة.

تهدج صوتها:

- مرحبا يا عم.

ثم تساءلت منقبضة الروح:

- أنتَ...!

- أنا..!

طقطقت أصابعها المحشورة في حضنها:

- كيفك يا عم؟

- لستُ بخير.

خرج صوته بصدىً فاجأها كأنه يخرج من محارة غارقة.

هــزّت رأســها كمــن توافقــه عــلى الــرأي لكنهــا لم تقــل شــيئًا للحظتهـا، غـير أنهـا انتبهـت لفتـاة أخـرى خرجـت مـن عـين التعميد صاعـدة الدرجـات السـبع لتلتحـق بهـا، وتجـد مكانًـا ملاصقًـا لهـا، وهــي تتأمــل الرجــل بدهشــة.

قالت الفتاة الأولى كما لو تنبئه بشيء:

- نشتُمان تبحث عنك يا عم.

تحركَ رأسه قليلًا:

- وأنا أبحث عنها منذ سنتين.

أعادت التأكيد بطريقة أخرى وهي ترتعش نسبيًا:

- ما قدرتْ تهرب.

- أعرف.

- لأنها..لأنها..

-... أعرف.

6

التحقت فتاة التعميد الثالثة وهي تدبُّ بخطواتها حذرة، صاعدة الدرجات القليلة حتى تمكنت من أن تجلس كالممغنطة بسحرٍ يدبُّ في روحها، فبدت الفتيات الثلاث أمامه كأنهن ثلاث وردات بيضاوات خرجن من بئر التعميد.

تجرأت الفتاة الثانية:

- يتملكها أمير وحش. لأنها حلوة وصغيرة.

قالت الفتاة الأولى:

- لأنها حلوة فعلًا.

عادت الفتاة الأولى لتؤكد:

- إنها أجمل أسيرة يا عم.

هز رأسه وعيناه تتابعان صعود الفتاة الرابعة التي بدت خفيفة كريشة بيضاء بفستانها الأبيض.

تساءل الرجل وهو يكمش رأسه كما لو أن شيئًا سيخرج منه:

- هل...؟

سارعت الفتاة الأولى وحدها:

- لا لا.. لا أظن..!

- صارحيني.

- ما تزال طفلة ولا تعرف هذا..!

- لكنهم لا يفرّقون الطفلة عن المرأة!

- كنت معها وقتًا و... كنت أعرف.

- الأمير أبو العينين كبير السن لا يهتم بهذا..!

دفعت بعينيها إلى أغصان الأشجار التي تتعالى فوق رأس الرجل، وهو جالس على ركبتيه كتمثال بوذي فارتبك التعبير بين شفتيها واختلج وجهها قليلًا:

- لكن ماذا أنت فاعل...؟

انتظرت الفتاة الخامسة قليلًا تعميد آخر صديقاتها، وبقيت تنظر إلى صويحباتها الصاعدات إلى الرجل، فسارعت لتلتحق بهنّ بعد أن اكتمل تعميد صديقتها السادسة فصعدتا معًا الدرجات الحجرية بخفة وانزوين مع فتيات التعميد الأربع.

- منذ سنة كان لي أمل أن تهرب نشتُمان معكنّ.

- لم تقدر.. إنها في بيت الأمير الكبير مسجونة هناك.

7

تطفل صبيان قليلون وهم ينظرون إلى أعلى الدكة، وإلى الحشد الصغير الذي يبرك فيه الرجل الملتحي مع فتياته الست، لكنهم هدأوا في البلاطة الأخيرة ومشوا على أطراف أصابعهم وجلسوا على الأرض، تبعتهم بعض النساء وبعض المعمَّدات اللواتي التحقن بالحشد الصامت.

قال الرجل وهو يتأمل المجموعة الصغيرة التي تكاثرت حوله ونشرت الهدوء بتلقائية غريبة:

- سأذهب إليها.

تساءلت الفتاة الأولى بصوت خرج من هدوئه إلى حد ما:

- كيف؟ سيقتلونك يا عم.. أنت أيزيدي كافر بنظرهم..!

رد الرجل وهو ينظر إلى الآخرين والأخريات الذين يصعدون الدرجات بصمت وهدوء ومعهم آخر فتيات التعميد بحللهنّ البيضاء:

- أنا أيزيدي كافر وابنتي أيزيدية كافرة.. لكن سأذهب لأخلّصها.. تعبت من الانتظار.. حتى الكفرة يحتاجون إلى سلام.

قالت إحدى الفتيات:

- إنهم قساة يا عم.

- هكذا هي الحياة.. كبرتُ كثيرًا يا ابنتي والحياة من دون مَن نحب تصبح فقيرة وكالحة ولا معنى لها.. إنها القسوة بعينها.

8

انضمت نساء أخريات ورجال رفعوا عيونهم إلى الأعلى ينظرون إلى الحشد قبل قليل؛ لكن نداءً صامتًا أغراهم بصعود الدرجات السبع وهم يرون قوسًا بشريًا من رجال ونساء وصبيان، يجلسون في المساحة الصغيرة، ويحيطون برجل ربما هو معروف لديهم.

- إذن هناك أمل عندك..؟

تساءلت إحدى فتيات التعميد.

- أمـل ضعيـف.. لكنـي أحـاول مـن أجلهـا.. إنهـا وحيـدتي وصغـيرتي.. إنهـا يتيمـة.

9

تشـكل القـوس البـشري بشـكل تلقـائي، وصعـد الجميـع إلى الأعـلى وافترشـوا البـلاط البـارد حفـاة، عـدا بابـا شـيخ وبابـا چاويـش اللذيـن ظـلا يرقبـان المشـهد مـن تحـت مـن دون أن يفهـما شـيئًا، لا سـيما والصمـت الـذي أحـاط بالمـكان وكأن الجميع تحولـوا إلى طقسٍ صامت.

كان الرجـل الملتحـي ينظـر إليهـما بخطـوط مسـتقيمة ثابتـة، وهـو مـا لفـت انتبـاه الجميـع فاسـتداروا إلى بابـا چاويـش وبابـا شـيخ وأفسـحوا مجـالًا لهـما ليمـرا وسـط الحشـد، كـما لـو كانـوا يحثانهـما عـلى صعـود الدرجـات السـبع ليقفـا أخـيرًا أمـام الرجـل الـذي يجلـس عـلى ركبتيـه كأنـه تمثـال.

انقسـم الحشـد إلى نصفـين واقفـين حـين مـر بهـما الشـيخان، فأضافـا للبيـاض بياضًـا آخـر وهـما يخترقـان الصمـت، بحفيـف ثوبيهـما وعطرهـما الجبـلي الـذي أسـبغ عـلى المـكان وقـارًا آخـر وهيبـة أخـرى، كملاكَـين يصعـدان سـلم المـكان بطريقـة فيلميـة فيهـا الكثـير مـن الهـدوء والقداسـة؛ إلا الرجـل الملتحـي فقـد ظـل عـلى هيأتـه متكئـًا عـلى عصـاه، ثابـت النظـرات، حتـى اسـتقر الشـيخان عـلى يمـين ويسـاره، فيـما جلـس الجميـع سـوى بعـض

الصبيـان الذيـن ضـاق المـكان بهـم، فاعتلـوا الأشـجار المحيطـة بالباحـة العليـا لمـكان التعميـد، وهـم يسـجلون للحشـد صورًا مـن الأعـلى بموبايلاتهـم، ويكـثرون منهـا سـعيدين بهـذا التجمـع الـذي انضـمّ إليـه بابـا چاويـش وبابـا شـيخ وبقيـة المجيوريـن والقوالـين، وأثوابهـم البيـض الناصِعـة تخفـق تحـت شـمس لالِـش البيضـاء.

سنمضي الليل على جبل عرفات

تحـرّر راڤيـار مـن أجـواء التعميـد والفـرح والحفـل الشـعري والخطـابي بهاجـس البحـث عـن صديقـه القديـم سربسـت، فصعـد الدرجـات السـبع حاجـلًا، في الوقـت الـذي كانـت الفتيـات يهبطـن الدرجـات بخفـة مـع جمـوع الأطفـال والصبيـان والشـباب الذيـن شـكلوا حلقـة دائريـة أسـفل السـلالم، وعـلى باحـة العـين البيضـاء، في دبكـة جماعيـة اختلطـت فيهـا ألـوان الثيـاب ببيـاض ثيـاب الأسـيرات الناجيـات.

عـلى الدرجـة السـابعة توقـف راڤيـار، ونظـر إلى الرجـل الكئيـب الـذي بقـي وحـده بعدمـا انفـضّ عنـه جمـع الفتيـات والنسـاء، وغـادره بابـا چاويـش وبابـا شـيخ.

عانقه راڤيار وقال له بثقة:

- أعدك بالعثور على ابنتك.. طال الوقت فعلًا وطال الانتظار.

تقدم بضع خطوات إلى الرجل ثم جلس إلى جانبه:

- مالُكَ ما يزال في جيبي.. وسنجدها يومًا ما.

مـدّ يـده في جيـب جانبـي، وأخـرج رزمـة نقديـة حمـراء ثخينـة، مربوطـة بخيـط بلاسـتك التـفّ أكـثر مـن مـرة عليهـا:

- لم تعد كافية.. الكلاب يزيدون من مطالبهم في كل لحظة.

كانا ينظران إلى جبل عرفات المقابل وأشجاره المتطاولة على السفوح:

- الدواعش في وضع صعب.. يبحثون عن المال بأية طريقة، ورفعوا من سقف مطالبهم فيما يخص هذا الموضوع.

تمتم الرجل الصامت بشيء فاستدرك الآخر:

- الأهالي باعوا كل شيء مقابل هذا الفرح العظيم.

وكان يشير إلى قوس الفرح مع الصبايا الناجيات.

- كل صبية وفتاة لها قصة مؤلمة.. لعنهم الله.

لم تفارق صبيته عينيه، وكأنه يراها في هذه اللحظة المزدانة بالفرح والألوان وشرائط الزينة ورذاذ المطر والأشجار الخضراء المغسولة:

- وماذا عن نشتُمان؟

حك راقيار رأسه وتطلع إلى وجه صديقه القديم، وقال بلا حذر كما لو يقرر حقيقة مهمة:

- الصبايا الحلوات من حصص الأمراء وقادة الجيش وتخليصهنّ من الأسر أمر في غاية الصعوبة إن لم يكن مستحيلًا.

لاحظ عيني صديقه المغرورقتين وأكمل:

- الوصول إليهم ليس سهلًا.. لكنني سأصل.. لديّ علاقات ورشاوى وغنم وحيل كثيرة. أنا أدرسهم منذ سنتين..لكن الأمر يحتاج إلى وقت يا صديقي.

قال الرجل الآخر بصوت فيه غصّة:

- كنت أنتظر كل هذه الأشهر لعل بارقة أمل ولعل معجزة تحدث.

ثم استدرك:

- أعرف أنك كنت في شنكال شهورًا طويلة.. كيف خرجت؟

تنهد الرجل وهو يفرك عشبة بين يديه:

- خرجت إلى الموصل ثم إلى دهوك بطريقة صعبة بعدما يئست من العثور على ابنتي.

هرش العشبة بطريقة عصبية حتى تفتت:

- وردتني أخبار بأنها في الموصل، مع السبايا لكني لم أجدها، ولم أستطع الرجوع إلى شنكال.

أكمل وعيناه تترقرقان:

- هرّبني إلى دهوك سائق مصلاوي شجاع.. وبقيت حتى الآن.

صمت وظل راڤيار ينظر إلى عينيه اللامعتين متأسيًا، ثم استدار ناظرًا إلى الأفق المشتبك بالأشجار، وقال كمن يريد أن يبعث أملًا صغيرًا فيه:

- هناك نفوس ضعيفة بين الدواعش.. يبحثون عن المال. أكاد أقول إن الكثيرين منهم عبارة عن تافهين ومفلسين وشقاوات في بلدانهم ومخدرون بالخيال والدم والقتل.

كان ينظر إلى عيني صديقه القديم:

- خلّصت هذه البنات الأسيرات على مراحل بالرشاوى المالية، والعلاقات المختلفة معهم بطريقة زواج إسلامي وَرَقيٍّ، قد

تعرفها فيما بعد.

توقف كأنما يتذكر شيئًا:

- تصدق! بعضهم يريد أن يهرب من جحيم الحرب!

نظر الرجل إليه مستفهمًا:

- كلمني اثنان أو ثلاثة من إنهم خائفون. عرفوا أن أمريكا زجّت بطائراتها، وخططها لتساهم بتحرير شنگال وبعشيقة وتلعفر والموصل.

وازنَ جسده وهو يتربّع مستديرًا قليلًا إلى الرجل:

- يعرفون أنهم سيموتون ولا مجال للنجاة لذلك يفكر البعض منهم بالهرب قبل فوات الأوان.

نظر الرجل إليه واستمر راڤيار:

- لا أنكر أنهم قساة فعلًا، وكلاب وخنازير بشرية، ولديهم عقيدة بايخة.. لكن البعض منهم أدرك بعد أن جمع المال اللازم بكل الطرق، أن يخلص بجلده من المحرقة القادمة.

مطّ الرجل الآخر شفتيه، وأكثر من علامة استفهام ترتسم على وجهه، فبقي ينظر إلى راڤيار:

- حدثني أحدهم بصراحة، بعد أن وثق بي كثيرًا عن طريق للخلاص عبر كردستان، ومن ثم إلى تركيا.

سكت فجأةً كمن وشى سرًا فلت من لسانه لكنه استدرك:

- عمومًا أنا لا أحفل بمثل هذه المخاوف فيهم، وأخشى من أمزجتهم الدموية بصراحة.

ثم قال:

- أحدهم فلسطيني من حماس اسمه أبو العربي، تافه، لديه أكداس من الدنانير العراقية والليرات السورية. يبدو أنه جربني ذات مرة حينما اتفقت معه على تخليص إحدى الأسيرات بأن احوّل بعضًا من مبالغه المالية إلى دفاتر دولارية. ملايين كثيرة لا أعرف كيف جمعها.. وثق بي كثيرًا بعد أن عدت له خلال شهرين حاملًا له سبعة دفاتر من الدولار الأمريكي، وساعدني لاحقًا بتخليص بنتين أسيرتين، وسهّل لي طريق الهرب معهنّ لكن أخذ عمولة ليست قليلة.

صمت قليلًا وعيناه لا تستقران وأضاف:

- مستعد أن يساعدني مقابل المال وهذا فرصة كبيرة عليّ أن استغلّها.

ثم أكمل كما لو تذكر:

- كائن داعشي آخر من تونس يسمونه أبا الخير، لديه نفس الرغبة في الهرب لكن الجغرافية ضيّعت عليه كل ملامح الحياة، جُرح مرتين، يقول أنه في المرة الثالثة لن ينجو لهذا يريد الهرب بأي ثمن. هذا عكس الآخر فهو مستعد أن يدفع مالًا مقابل تهريبه إلى تركيا.

تساءل سربست بيأس:

- هل أنت واثق منهم؟

- لا.. لا يمكن أن أثق بهؤلاء الأنجاس لكننا نتعامل بمصالح

مشـتركة. همـي الأسـيرات وهمهـم المـال والهـرب لهـذا دخلـت عليهـم مـن هـذا البـاب.

صمت قليلًا وأضاف:

- ما يهمنا الآن هو ابنتك نشتُمان.

أخـرج الرجـل ذو العصـا الواقفـة صرةً متوسـطة الحجـم مـن زيقـه فخرخشـت قطـع معدنيـة فيهـا:

- هـذه الـصرّة مـن الذهـب، أرسـلها لي خـودا في يـوم ممطـر عـبر شـلال صغـير فديـة لابنتـي، فأودعتهـا في مـكان أمـين عنـد امـرأة حامـل لا تريـد أن تلـد وقتهـا يـوم كنـت في شـنگال، ولا أعـرف مصيرهـا حتـى الآن، غـير أن صرّة الذهـب عـادت لي بطريقـة لا أفهمهـا.. ثلاثـة كيلوغرامـات مـن الذهـب أو أكـثر. إنهـا فديـة لابنتـي إن لم يقتلوهـا بعـد.

نظر الراعي إلى الصرّة وأطلق تنهيدة طويلة:

- إنه فدية كبيرة. نشتُمان عند أميرهم. لأنها...

- .. لأنها صبيّة حلوة.

نهض الرجل وأشار لسربست بالنهوض:

- سـنقضي الليـل عـلى جبـل عرفـات، لـدي مـا أقولـه، لـدي أفـكار كثـيرة حـول نشـتُمان.

كان الغـروب يضفـي ظـلالًا كثـيرة متشـابكة عـلى المعبـد فغـرق في غيمـة بـرد نيسـانية، وكان الكثـيرون مـن الشـباب الناشـطين خرجـوا مـن المعبـد، وانفـضّ طقـس التعميـد واحتفاليـة الأهـالي ببنـات

لابش المعمّدات في العين البيضاء.

كان مطرٌ خفيف ينقّط على الأشجار العالية، فيغسل أوراقها العريضة فيما كان المساء يتقاطر بهدوء وصمت.

الراضوع/ ا

1

قبل حلول المساء أخرج أمير الأمراء الشيخ المجاهد السبعيني أبو العينين، بهزاله الواضح الذي حوّله إلى كائن رفيع ومشوّه؛ بشعر منفوش من كل جانب ولحية متطايرة وأنف طويل مائل كمنقار مكسور؛ بعد ثلاثة أشهر من مكوثه بردهة أميرية في مستشفى المدينة، عانى فيها من حمّى متصاعدة وهذيان مصحوب بحشرجات، ونبضات قلب غير مستقرة، وخدر في أطرافه اليسرى، وهلوسات مستمرة ورؤى غريبة يناجي بها السقف الحليبي الأملس على مدار يومه، حتى همس طبيبه الحلبي لنفسه خائفًا: إما هذا مجنون وإما نبي جاء بالغلط إلى هنا! وخشي الحلبي على نفسه حتى من هذا الهمس الباطني الذي قد يقوده إلى الموت في لحظة لا يستطيع الإفلات منها.

معاونوه من الممرضين ينقلون له رؤى أبي العينين، وهلوساته وحديثه مع سقف الغرفة بصوتٍ عالٍ، لكن من دون أن يفهموا ما يقوله، كما لو يكلّم أشباحًا متخفّين، أو ملائكة لا

يرونها، وحظي الطبيب الحلبي به مرة واحدة حينما وجده يتمتم مع السقف، ويرفع أصابعه العليلة إليه وينادي كائناتٍ غير منظورة، كمن يطلب المساعدة منها لإنجاز شيء ما. وقتها جمد الحلبي في مكانه ليشهد حادثة السقف، وملائكته غير المنظورين، أو أشباحه المتخفّين في زوايا لا يعرفها في المكان.

كان الطبيب الحلبي- الذي أُجبِرَ على مرافقة المجاهدين في غزوة الجزيرة، واحتلال سنجار- قد حقنه بالمغذيات وبعض المقويات والفيتامينات وأقراص تخفيف الحمّى المذابة بالماء، وسهر كثيرًا على صحته وقتًا طويلًا؛ فالتوصيات المترادفة التي لم تنقطع يومًا من أعلى الهرم في الموصل والرقّة أنهكت الحلبي، وصدّعت رأسه عن هذا المجاهد المشهود له بالولاء المطلق لتنظيم دولة الخلافة الإسلامية، وشارك في كل معاركها في حلب والرقة والموصل وسنجار والفلوجة وتكريت وبيجي، وتدرج في مناصب كثيرة حتى عُرف بأنه ذبّاح نادر، يقطف رؤوس أسراه بلمح البصر، حتى لو كان بأصابعه، وله الجرأة من أن يملص رؤوس الأطفال كما يملص رؤوس العصافير بيديه، من دون الحاجة إلى سكين، لذلك شكّل الحلبي؛ مترددًا وخائفًا؛ فريقًا صغيرًا من مساعديه القليلين لمراقبة وضعه الصحي طيلة الأيام الماضية، ومراقبة الهزال غير الطبيعي له، في محاولة تغذيته المستمرة، وفحصه العام بين ساعة وساعة، وأخْذ عينات من دمه وبوله وخرائه للمختبر الوحيد في المستشفى.

2

تمتم العجوز مجرِّبًا صوته القرآني بعد غيبوبة أيام لا يعرف عددها:

- المرضُ امتحانٌ منَ اللهِ عزّ وجلّ لصَبرِنا على المَكارِهِ، وَتحمّلِ أوْجاعِها.

طمأنه الحلبي إلى حد ما بعودة صحته إلى سابق وضعها، لكنه شدّد عليه أن يكون طعامه نباتيًا بلا لحوم ولا دهون ولا رز، وأن لا يمارس الجنس خلال فترة النقاهة فيعرّض قلبه للإجهاد، كما أوصاه بالمشي الصباحي والرياضة الخفيفة، ويتجنب أكل الحلوى ما أمكنه ذلك، ويقنّن شهيته للفاكهة بأن تكون حبة برتقال واحدة في اليوم أو تفاحة أو غير ذلك، وأن يخفف من عصبيته، فعمره يحتاج إلى هدوء وراحة بال.

تدور عيناه الصغيرتان حوله بضيق، ونَفَسُه لا ينتظم كما لو عاد قبل قليل من جري طويل، لكنه كان مصرًا على الخروج من المستشفى، شاعرًا بتحسن كما كان يردد للطبيب الحلبي الذي ظل يُعيد عليه التوصيات الغذائية، وهو يقرأ بالتقارير المختلفة المعروضة أمامه.

- الأمانُ والصّحةُ والسلامةُ منَ اللهِ عزّ وجلّ.. أشعرُ بتحَسّنٍ.. أخْرِجْني إلى بَيتي ونِسائي.

أنهى الطبيب الحلبي قراءة كل الملاحظات المتوفرة على طبلته المَرضية فعاد يوصيه:

- أوصيك يا شيخ أن تكثر مي وِشْرَب عصير، ما فيو سكَر زيادة، يعني شاي بلا سكر ولا تقرب عالكازوز أبدًا. وتكون منيح ع طول وتاخد رياضة.

لاح شبح ابتسامة على وجهه:

- لا عَصائرَ ولا هُمْ يَحزنون.. اللهُ سبحانهُ وتعالى أهداني إلى حليبِ العَذارى منَ الصّبايا الجَواري ما يُغني عَنْ كلّ سوائلكمْ.

عاد الطبيب الحلبي يقول كما لو أنه اقتنص فرصة ما في رأسه:

- أنا بعرف أنك تطعم حالكم بحليب العذارى الفترة الماضية.

ردد العجوز بخفوت:

- إنهُ شفاءٌ ودواءٌ وغذاءٌ من اللهِ سُبحانَه وتعالى.

حك الحلبي رأسه وقال متسائلًا بحذر:

- عجب بتحسو أنو حليب البنات بشبّع بطنكُن؟

كان أبو العينين يهز رأسه ويشيع ابتسامة خافتة على وجهه، فأكد على نحوٍ واضح أن حليب العذارى هو الذي جعله صامدًا طيلة الأشهر الثلاثة الماضية، بعدما فقد شهية الطعام، وأن رضاعته من حُلمات الصبايا جاءت إثر حلم حضر فيه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وأوصاه بحليب العذارى.. أني أوصيكَ يا مجاهد بحليبِ العذارى فهو الدواء وهو الشفاءُ.

زمّ الطبيب الحلبي شفتيه وأحنى رأسه قليلًا متمتمًا: اللهم صل على محمد وآل محمد ناظرًا إلى المجاهد المريض بعين الشفقة:

- وبتحس أنو هالحليب إلو طعم خاص؟

فتـح أبـو العينـين عينيـه قليـلًا، وطيـف ابتسـامة مريضـة عـلى وجهـه الممصـوص:

- إنهُ طعمُ الجنَةِ يا حكيم.

فوجئ الطبيب الحلبي بجواب مريضه لكنه استدرك يتساءل:

- واش هو طعم الجنة.. شوقتني يا مجاهد؟

وسّـع أبـو العينـين مـن عينيـه فبـدا وجهـه النحيـف يعلـوه شـعر منفـوش كأنـه فزاعـة طيـور:

- عندمـا يصِـفُ لـكَ رسـولُنا المُصطفـى دواءً لا يخطـرُ عـلى بالـكَ، فهـذا يَعنـي أنـهُ يبـشّركَ بالجنّـة.

وجد الحلبي أنه في خانق ضيّق لا يستطيع تفسيره:

- عجب شقد درست يا شيخ ما سمعت عن حليب العذارى!

- أنـتَ درسـتَ في الغـربِ الكافـرِ يـا حلبِـي وهـذا مِـن الطـبّ النّبـويّ الـذي يتحاشـاهُ الغـربُ الكافـر.

رد الحلبي بتسليم:

- تتهنا بالجنة يا شيخ وتتهنا بهالحليب.

قـال العجـوز وأنفاسـه تتصاعـد كـما لـو يشـم رائحـة معينـة وهـو في حلـم:

- يـاااه.. مـا أطيـبَ حليبهـنّ.. يكفيـكَ أنْ ترضـعَ ثديًـا صَغـيرًا في الصبـاح، لتبقـى إلى المسـاءِ لـنْ تجـوعَ وتعطـشَ، فتشـكرُ اللـهَ ورسـولَهُ عـلى هـذهِ النّعمـةِ الفضيلـة.

تساءل الطبيب بمكر وهو يرفع عن ساعده إبرة قنينة المغذي الذي يكاد ينتهي:

- والله هيدي أول مرة بسمع إنو بزاز البنات فيُّون حليب..!

- ههههه

ضحك أبو العينين بصعوبة، وهو يميل برأسه ليرى وجه الحلبي فبان ما تبقّى من أسنانه الصفراء، كما لو رُكّبت على جمجمة:

- خلِّ إيمانَك قويًا باللهِ سبحانهُ وتعالى ورسولِهِ المصطفى صلّى اللهُ عليه وسلّم، فكلما قويَ إيمانَك باللهِ ورسولهِ الكريم وجاهدتَ في سبيلِهُما؛ ستجد عجائبَ الخالقِ في كلّ مكانٍ وكلّ وقتٍ مِنْ حيثُ لا تَدري ولا تَحتسبْ.

- آمنتُ باللهِ ورسوله المصطفى الأمين.

تمتم الحلبي واستعجل بكتابة تقريره الأخير عن حالة المجاهد أبي العينين، ومنحه عشرين يومًا كإجازة مرضية، لا يمارس فيها نشاطاته اليومية التي لا يعرفها. وحاول الحلبي أن لا تظهر نبرة التهكم في صوته وهو يقول:

- عجب إذا شِفتْ حالك منيح مع بزاز الصبايا لا تحتاج للمراجعة يا شيخ.. مِيتِ السلامة.

أشار إلى موضع في الورقة الأخير وقرّبها إلى وجه العجوز، ووضع قلما بين أصابعه ليوقّع عليها بخروجه على مسؤوليته الشخصية.

ابتسم الحلبي في وجه الجمجمة وساعده على النهوض.

3

مرافقو أبو العينين كانوا قد سهروا على راحته الأشهر الفائتة من دون نوم، وكان بعضهم يتلقى اتصالات الخليفة أبو بكر البغدادي بنفسه، وينقل له الوضع الصحي للمجاهد العجوز أولا بأول، لهذا كانت غرفته البيضاء معبأة بالمضمدين المتطوعين، ومتطوعات النكاح الإسلامي من صبايا تونس والسعودية وسوريا وفلسطين والشيشان وبريطانيا وأفريقيا والأطباء المناوبين والمجاهدين الزائرين ومحبيه من الخط الأول للمقاتلين في سرايا الحماية المدافعة عن المجاهد أمير الأمراء، وحاشيته، وزوجاته الكثيرات من الأسيرات السنجاريات والمسيحيات وبعض الشيعيات اللواتي تخلفنَ عن الهرب يوم عاصفة داعش بدخولها المدينة.

4

استقبله حشد غير قليل من المجاهدين وهو يمشي مترنحًا، بجسده الذي كشف عن هيكل عظمي مغطى بسروال فضفاض، تتقدم وجهه الممصوص لحية بيضاء طويلة تخالطها بقع سوداء وصفراء كأنها آثار تدخين مزمن، متوزعة بعشوائية وقد طالت أكثر مما يجب، وبدا شعره المنفوش كما لو قد خرج قبل قليل من عِراكٍ مع آخرين، فيما برز منقار أنفه طويلًا ومعقوفًا أكثر مما يجب. وكانت جمجمته تحت غطاء

شـعره الطويـل بـارزة بوجـهٍ ضعيـف ومفـكك، فهـرع إليـه الكثيرون وعانقـوه وقبّلـوا يـده النحيلـة؛ وشـبح ابتسـامة متخاذلـة حـاول أن يحافـظ عليهـا وهـو يتلقـى التهـاني المتتاليـة مـن المسـتقبلين، مسـتعينًا بمرافقَيـه الذيـن يسـندانه مـن اليمـين واليسـار، ليسـتقيم قليـلًا ويصافـح مسـتقبليه الذيـن تلقـوا التعليـمات الفوريـة مـن مكتـب الخليفـة في الموصـل، أن يكونـوا في اسـتقبال المجاهـد أبي العينـين عنـد عتبـة داره ذات الطابقـين.

لستَ حيوانًا ولا إنسانًا

مـن أعـلى الجبـل الغاطـس بالظـلام النيسـاني البـارد، يبـدو المعبـد كثريـا مضـاءة وسـط ظـلام مـن الشـجر والمطـر، وتحـددت مسـاحته بسلسـلة أنـوار بيضـاء ثلجيـة لامعـة يتنـاوب وميضهـا، كـما لـو يتحـرك كلـما كانـت الأغصـان الكثيفـة تميـل بفعـل الهـواء ونـدف المطـر المتفرقـة، لتحجـب الرؤيـة بـين لحظـة وأخـرى عـن الرجلـين الذيـن جلسـا تحـت شـجرة في الهـواء البـارد.

قال راڤيار:

- ربما تتذكرني يوم كنتُ طالبًا في جامعة بغداد.

فرك الرجل رأسه:

- إنه زمن بعيد.. لكنني أتذكرك بشكل واضح.

- نعـم بعيـد. لكـن الحيـاة كـما يبـدو أصغـر مـن أن نتصورهـا. مـرّت علينـا وسـحقتنا بوحشـية نحـن الأيزيديـين.

هـز رأسـه وعينـاه سـاهمتان عـلى أضـواء المعبـد الـذي بـدا أكـثر إشـعاعًا بعـد تقاطـر الظـلام، وهـو يسـتمع محـاولًا أن يسـتذكر مـع الراعـي مـا مـضى:

- أكملـتُ البكالوريـوس في كليـة الحقـوق في جامعـة بغـداد،

وكنـتُ مهيـأ للماجسـتير، فمعـدلي كان جيـدًا، لكننـي هربـت مـن التجنيـد الإلزامـي وقتهـا، وبقيـت في الجبـل سـنوات طويلـة هاربًـا مـن الرفـاق الحزبيـين مـن دون أن يعـرف أحـد مصـيري سـوى والـدي ووالـدتي رحمهـما خـودا.

قال الرجل كما لو يتذكر حقيقة قديمة:

-.. شاع وقتها بأنهم أعدموك..!

تحرك رأسه وهو يحاول التقاط تلك الذكرى البعيدة:

- رتَّبنـا خـبر إعدامـي ليكفـوا عـن مطـاردتي في المدينـة، لكنـي بقيـت مختفيًـا حتـى انتهـت الحـرب.. و..

ضحك قليلًا كما لو يهيئ الرجل لمفاجأة:

- و.. وعدت في نهاية الأمر من إعدامي حيًا أرزق هههه

وحتى يقطع خيال الرجل أضاف:

- ادّعيـتُ أننـي كنـت مسـجونًا في اسـتخبارات بغـداد، وبقـرار إعـدام مـع وقـف التنفيـذ كمكرُمـة مـن الرئيـس، وحينـما انتهـت الحـرب واصـل الرئيـس مكرمتـه عـلى العبـد الفقـير راقيـار فأفـرج عنـه.

قال سَرْبَست وهو يستعيد شيئًا من ذاكرته:

- كنــتُ وقتهــا أعمــل مهندسًــا في دهــوك لكــن أتذكــر أننــي سـمعت بهــذا.. وكنــت أفتقــدك بالفعــل.

- آويـت إلى الجبـل لسـنواتٍ طويلـة، ذقـت فيهـا المـرارات والآلام التـي لا أنســاها، حتــى تحولــت إلى كائــن غريــب تقريبًــا، آكل

الأعشاب والثمار والأوراق في المواسم كلها حينما ينقطع عني والدي والرعاة والمهربون، تحملت كل هذا كي لا أموت بلا سبب ولا معنى.

هفهفت أوراق الأشجار بتساقط نثيث من المطر، وكان الرجل يسترسل كما لو وجد أن به حاجة لأن يفرّغ ما بصدره من ذكرى مريرة:

- تلك سنوات قاسية ومرعبة فعلًا، ضاع فيها مستقبلي وضاعت حياتي، لا بكالوريوس ولا حلم بالماجستير. ثماني سنوات وأنا أعيش مع الذئاب والكلاب والمهربين والرعاة ولصوص الحدود.

بقي يديم النظر إلى أفق مظلم مرقّش بأضواء المصابيح:

- كنت أتنقل من مكان إلى مكان، ومن كهف إلى كهف، ومن مغارة إلى مغارة، ومن حفرة إلى حفرة، حتى لا يلقي الرفاق القبض عليّ فتحولت إلى كائن آخر.

أوضح بطريقة الدفاع عن نفسه:

- لستُ حيوانًا ولكنني لست إنسانًا وقتها.

طقطق أصابعه ومضى يتحدث بهدوء:

- عرفت الجبل وطرقه ونياسمه وممراته وكهوفه ونوره وظلامه وشروقه وغروبه وأشجاره وأعشابه وعيون الماء فيه وشلالاته ووحوشه وطيوره وعصافيره وفراشاته.

صمت قليلًا كما لو يريد استدراج ذاكرته:

- حفظت ممرات وأوجار الذئاب والضباع والدببة والسباع، تعايشت مع أصوات الليل فعرفت معنى الخطر في الظلام ووحشته.

انتبه الرجل إليه أكثر:

- أكلت أوراق الشجر والثمر والأغصان الخضراء الطرية، وحتى الحجر، وبقيت كل سنوات الحرب متخفيًا مثل كلب مطارَد.

قاطعه الرجل ربما ليقطع عليه ذكريات موحشة بدأ يستحضرها بطريقة غير مقصودة:

- وكيف احتملت كل تلك العزلة.. كيف واصلتَ الحياة؟

- تعرفت على كل صغيرة وكبيرة في الجبل، وحفظت سفوحه وانحداراته وصخوره ووديانه، وقادتني خطاي إلى كل مأوى ومغارة وكهف فيه، شأني شأن الدببة والذئاب والضباع وبنات آوى والأفاعي والطيور الجارحة، وتآلفت مع فصوله القاسية لا سيما شتاؤه الفظيع وثلوجه التي حفرت بجسدي آثارًا كبيرة باقية حتى اليوم جامدة توخزني كنصال تجرحني في أي وقت.

تمتم الرجل بأسى:

- الحاضر أكثر قساوة ورعبًا وألمًا.

سرّح الراعي نظره في الظلام والتقط أضواء المعبد السفلية تحت الجبل وواصل كلامه بهدوء:

- نعم هذا صحيح. لكن الرعب الذي لاحقني إلى اليوم سببه الرفاق، وسببته الحرب والعزلة الطويلة التي فقدتُ فيها أهلي

ومستقبلي وشبابي. فتحولت من إنسان إلى حيوان أرعى مثل الأغنام والتيوس والكلاب والذئاب صيفًا وشتاء.

التفت إلى صديقه:

- حينما تعيش في غابة، ولا ترى إنسانًا تتحدث معه تتحول تلقائيًا إلى حيوان، وتستشري فيك الروح الحيوانية بشكل لا إرادي وهذا يعني أنك في قتال وصراع مع كل شيء وعليك أن لا تُفاجأ بأي شيء لأنها شريعة وسُنّة.. غابة قاسية لا يمكن أن تتصورها.

بدا التأثر النسبي على الرجل وهو يصغي:

- تعرضتُ إلى كل شيء يخطر ولا يخطر على بالك، وكدت أموت عشرات المرات، لكن كنت أخلّص نفسي بأعجوبة أو مصادفة وأحيانًا قليلة بحكمة؛ فحياة الغابة لا تستوجب حكمة كبيرة، لكن تستوجب فطنة وفطرة في الدفاع عن النفس بما يتاح لك من سلاح، حتى لو كان غصن شجرة يمكن أن تنقذك من محنة كبيرة.

تساءل الآخر كما لو يستكشف صديقه القديم:

- أما ندمت وقتها، وأنت تتعرض لهذه المخاطر في غابة جبلية، أقل ما يقال عنها مخيفة بوحوشها؟

بدا راڤيار كأنه مستعد لأن يفيض بالحديث:

- اعتراني مثل هذا بين فترة وأخرى لكنني كلما أتذكر الحرب والموت والإعدام أتردد وأخاف بشكل جدي، أنا إنسان حر

فلماذا أموت من أجل قضية لا علاقة لي بها، بل قل من أجل لا قضية برأيي، فلماذا يذبحوننا من أجل صراعاتهم الشخصية والمذهبية؟

تطشر المطر الناعم على سقوف الأشجار بعدما حركته رياح خفيفة، جعلت الرجلين يلصقان جسديهما في جذع شجرة متوارية في الظلام البارد، بينما كانت أصوات غامضة تنبعث من سقف الجبل لطيور وحيوانات صغيرة:

- قد تكون البداية صعبة فعلًا، لكنها كانت كافية لأن تجعلني أتقبّل واقع الجبل وغاباته وحيواناته التي أعرفها، والتي لا أعرفها من الكواسر إلى الطيور الأليفة وحيوانات الخيال التي كنا نخافها في طفولتنا **كالهرچي**[16] وسواها. كنت على يقين داخلي بأني سانجو، ولن أكون جنديًا في الحرب، ولن أموت في الجبل وأنني سأحيا.

تنهّد وأكمل:

- لكن لم يدُرْ بحسابي بأنني سأحيا لأشهد حيوانات بشرية تحتل مدينتي وتفترس نساءها وأطفالها ورجالها.

أطلق تنهيدة قوية في وجه الرجل:

- بصراحة هذا كان بعيدًا حتى عن أكثر الخيالات سوءًا.

لكنه انتبه وغلالة ماء تترقق في عينيه:

16- طائر خرافي

- راح الماضي كأي شيء قـذر في حيـاتي، لا عليـك، لنكـن شـجعانًا في آخِـر الأمـر فالشـجاعة هـي أن لا نسـمح للـماضي أن يتكـرر للسـبب نفسه .

تفتحــت عينـا سربســت وهــو يـرى صديقــه المثقـل بالهمـوم القديمـة وتمـلى وجهـه العريـض وقامتـه المتكومـة العضلـة، فشـعر بنـوع مـن الألفـة تجتاحـه.

- لا عليـك.. ابنتـك ليسـت نهايـة المطـاف لكنهـا تلخّـص بشـكل مـن الأشـكال الظلـم العظيـم الـذي وقـع عـلى بناتنـا الأيزيديـات.

تدحرجـت دمعــة مــن عينــي سربســت لم يســتطع كتمانهـا في محجـره الذابـل، لكــن الآخــر لم يكــن يراهــا.

- سـنفعل المسـتحيل، وعليـك أن تكـون معـي في رحلـة حرجـة وخطـرة قـد لا نعـود بعدهـا، أو نخلّـص نشـتُمان، وبعـض البنـات الأسـيرات معهـا.

اكتفـى سَرْبسـت بـأن هـزّ رأسـه وحـاول أن يمسـك دموعـه لكنـه لم يسـتطع.

- تهيّـأ لرحلـة الأيـام السـبعة وعبـور الجبـال السـبعة لإنقـاذ الـشرف الأيزيـدي مــن أعــداء اللــه والإنســانية.

تعانــق الاثنــان ونشــجا بصمــت، وكان الليــل النيســاني بــاردًا، ومعبـد لالِـش مـا يـزال يشـع بالأضـواء التـي تشـبه ثريـاتٍ بيضًـا صغـيرة بعيـدة.

قطعة أرض في الجنة / مقطع عرضي

كما تنتظم الغربان السود على أسلاك الكهرباء، انتظم طابور شباب بزي أسود يرفرف على أجسادهم تحت هواء حار في الباحة الخارجية لمكتب المفتي الحاج وعد الله، ومع الوقت البطيء كانت بعض السيارات المكشوفة تقف وتلقي بضعة أنفارٍ منهم، ليزداد طول الطابور كلما أوغل الوقت في الظهيرة، خارجًا من باحة المكتب إلى الفضاء، ثم ينحني تلقائيًا وينكسر خط الغربان تحت فيء الحائط، ويميل حد الالتصاق به كلما زاد عدد المتقدمين، وطالبي قطعة أرض في الجنّة من الحاج وعد الله، بعد تقديم أوراقهم المطلوبة من شهادات قتالية جهادية حقيقية، وتزكيات أمرائهم وقادتهم.

في آخر الطابور تأفف أبو أنس السعودي وهو يقول لصاحبه بأسى:

- فشلتُ مرتين في الحصولِ على فرصةِ لقاءِ المفتي وتسجيلِ اسمي، جئت متأخرًا.

رد الآخر بالأسى ذاته:

- وأنا للمرةِ الثانية. يبدو علينا أنْ نبكّر في المرّة المقبلة.

- لننتظر عسى الله أنْ يَهبنا من عطفهِ شيئًا يسيراً.

في مقدمـة الطابـور المتشـابه بالسـواد والداخـل في عمـق البنايـة تقـدم أحـد الفتيـان بوجهـه الأسـمر، ولم يسـتطع إخفـاء ارتعاشـاته، مثلـما لم يسـتطع إخفـاء فـرح محتمـل عـلى وجهـه، وهـو يسـلّم عـلى المفتـي ملفـوف الـرأس بعمامـة سـوداء انسـجمت مـع سرواله الأسـود وقميصـه الأسـود.

وقـف الفتـى ووجهـه الفـأري يبتسـم ويختلـج، ومـا يـزال جسـده الصغـير يرتعـش، حامـلًا بيـده ورقـة مغطـاة بغـلاف نايلـون، وهـو يرتجـل سـيرة سريعـة كـما هـو مطلـوب منـه:

- اسـمي عثـمان نـوّاف.. والـدي أوصلنـي إلى حلـب عـن طريـق تركيـا ثـم إلى الموصـل، وشـجعني عـلى أن أكـون مجاهـدًا في سـبيل اللـه ورسـوله، وأنـا في إمـرة دولـة الخلافـة الإسـلامية مجاهـدًا ضـد الروافـض والنواصـب والكفـرة الأيزيديـين، وهـذا الملـف مـزكّى مـن القائـد بجهـادي المتواضـع في سـبيل اللـه، والمعـارك التـي اشـتركتُ فيهـا، وعـدد الذيـن ذبحتهـم لنـصرة دولـة الخلافـة الراشـدية.

نظر المفتي إليه بوجهٍ مفتوح يبتسم لكن الفتى استعجله:

- عـسى اللـه سـبحانه وتعـالى أن يهبنـي مـن خلالكـم، ولـو قطعـة أرض صغـيرة في الجنـة.

وسّع المفتي من ابتسامته:

- الجنة لكم يا شباب الله.

ارتسـمت ابتسـامة صغـيرة عـلى وجـه الفتـى السـعودي، وهـو

ينظر بفرح طغى على وجهه إلى المفتي الذي أخذ يقلّب بأوراق أخرجها من ملف النايلون، وبدأ يقرأ فيها ويهز رأسه مستحسنًا فيما الفتى يشدُّ على أطراف أصابعه منتظرًا.

- لك الجنة يا عثمان.

هب الفتى متضرج الوجه وهرع يقبّل رأس المفتي:

- أنت من المُبَشّرين فيها يا ولد.

- الحمد لله.. الحمد لله كثيرا

- سأرفع أوراقك إلى القاضي الشرعي، وهو يقرر المساحة التي سيمنحها لك الله سبحانه وتعالى في الجنة.

دمعت عينا الفتى، وهو يتشبث برأس المفتي ويُكثر من تقبيله، ويردد الحمد لله الحمد لله اللهم صلّ على محمد وآل محمد.. الجنة.. الجنة..

خرج راكضًا بهستيريا كغراب مفزوع، فلحقه البعض، وتشبثوا بأذيال سرواله وطرحوه أرضًا يباركونه ويقبّلونه ويشمّون به ريح الجنّة المقبلة.

بكى البعض الآخر متأثرًا بهذه النتيجة العظيمة التي مُنحت للشاب وهو يستعيد جسده من رفاقه بوجه اختلطت فيه الألوان، يرد على مباركة أصحابه، ويتمنى لهم قطعة أرض في الجنة تشابه قطعته التي سيقضي بمساحتها القاضي الشرعي قريبًا.

- لو أحصل على متر واحد في جنة الله.. نيالك يا عثمان.

لم يسـتطع الفتـى ضبـط فرائصـه المرتعـدة بالفـرح بين الجمـوع التي تركـت الطابـور وأحاطتـه مـن كل جانـب، لكنـه كان يسـمع أصواتًـا كثـيرة تهنئـه، وتتمنـى لهـا أمتـارًا وأشـبارًا في جنـة اللـه الواسـعة.

صـاح المنـادي بالهـدوء والانتظـام بالطابـور ليدخـل رجـل جديـد إلى المفتـي، وهـو رجـل نحيـل ذو لحيـة مسترسـلة في سـاقه عـرجٌ واضـح، معصـوب الـرأس بيشـماغ حـالّ لونـه كثـيرًا فبـدا بلـون الـتراب.

قـدم الأوزبـكي أوراقـه إلى المفتـي، ولم يسـتطع إخفـاء ارتعاشـة جسـده النحيـل، فقلّـب الأخـير أوراقـه وانهمـك يقـرأ بدقـة ويقلّـب الواحـدة تلـو الأخـرى والأوزبـكي جامـد كـما لـو ينتظـر أن يكلمـه اللـه نفسـه بعـد قليـل.

- بارك الله بك أيها المجاهد المهاجِر.

ثم نظر إليه بعينين ثاقبتين:

- كل شيء في أوراقك مقبول يا مجاهد.. لكن في الفقرة الثالثة..

قلّب المفتي ورقتين وأخرج الثالثة وقال:

- لم تذبـح كثيريـن.. عـشرة لا يكفـي يـا أخ الإسـلام.. ولم يسَـجّل في أوراقـك أنـكَ ذبحـت أيزيديـين كفـرة، وأنـت بينهـم في سـنجار.. هـذه نقطـة تُحسـب عليـك.

تبلـد وجـه الأوزبـكي قليـلًا، وحـين هـمّ بالتبريـر سـبقه المفتـي وهـو يعيـد الأوراق إليـه:

- كتبـتُ ملاحظـة إلى قائـدك، وعليـك بتطبيقهـا كـما هـي، ثـم

يكتب قائدك بأنك أنجزتها وستكون قطعة الجنة بانتظارك.. بارك الله بك.

خرج الأوزبكي يجر ساقيه جرًا، ملبّد الوجه وقد تبدلت ملامحه كثيرًا كمحارب منهزم، وهو ما انعكس على طابور المنتظرين الذين انتقلت الكآبة إليهم حينما رأوا الأوزبكي كالتائه، وهو يخرج من غرفة المفتي، لكنهم طيّبوا خواطره واحتضنوه بينما انبرى أحدهم شائطًا:

- عشرة مذبوحين لا تكفي يا أوزبكي.. سبق وقلت لك هذا.

ثم وكأنه يوجّه الخطاب لغيره:

- يا أخوة الإسلام؛ الحصول على قطعة أرض في الجنة تقتضي ذبح ما لا يقل عن عشرين كافرًا أو مرتدًّا من النواصب والروافض، لا تؤخروا أنفسكم عن هذا العطاء الرباني والكفرة حولكم من كل مكان.

عاد الهدوء النسبي إلى الطابور بعد انتصاف النهار بشمس عمودية، فيما انسحب عدد غير قليل من طالبي قطعة أرض في الجنة عندما راجعوا الأوراق بين أيديهم، لا سيما الفقرة الثالثة، وكان أحدهم يتمتم بصوت مسموع:

- بقي لي اثنان.. يا رب.. الجنّة.

وهمس آخر:

- مَن سعيد الحظ الذي سيحصل على شبرٍ واحد في جنة الله تعالى.

هـدأ الجميـع وهـم يتشـاورون بعـد خـروج الأوزبـكي منكـسرًا، وعـادت السـعادة طافحـة بينهـم، وأخـذوا يحيّـون بعضهـم بلهجات ولغـات مختلفـة، ويتقاربـون متحدثـين عـن السـماء والجهـاد والأعـداء والكفـرة والحوريـات اللـواتي سيسـتقبلن المجاهديـن بأجسـادهنّ الناعمـة، وعطورهـنّ السـماوية، وشـهوتهنّ التـي لا نظـير لهـا عـلى الأرض.

قطـع اللغـط الخفيـف السـائد بـين المحشـورين في الطابـور صـوت «أبـو هاجـر» مجهـول النسـب والهويـة ومسـؤول التجنيـد إلى الجنـة، حينـما خـرج بسـمرته القاحلـة ولحيتـه المتسـافلة كثـيراً:

- أيهـا المجاهـدون؛ لا تَضْجـروا مـن الانتظـار، تذكّـروا أنكـم سـتقفونَ بـين يـدَي اللـهِ سـبحانَهُ وتعـالى وقتًـا سـيطولُ عليكـم كأنـهُ الدهـرُ الأسـود قبـلَ أنْ يحاسـبكُمُ ربُّ العـزةِ والجلالـة..

ران صمتٌ مهيب على الوجوه المتطلعة إليه:

- سـنوزعُ قطـعَ الجنـةِ للمجاهديـنَ في سـبيلِ اللـهِ بالتدريـج الجنـةُ واسـعةٌ كسـعةِ السـمواتِ والأرض ولـكلٌ منكمـو نصيـبٌ فيهـا، اصْبروا علينـا يـا أهـلَ الإيمـان، فـأن هـذا امتحـانُ الدنيـا قبـلَ الآخِـرة.

صاح الجميع: الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر..

تـورد وجهـه وزادت سـمرته وهـو يتطلـع إلى وجـوه الفتيـة والشـباب التـي يعتمرهـا الحـماس الصـادق:

- يـا أبنـاءَ اللـهِ الواحـدِ الأحـدِ الصمـدْ.. الجنـةُ كبـيرةٌ وكبـيرةٌ

ولكمـو فيهـا أجرُكـم إنْ شـاءَ اللـهُ تعـالى.. أنتـمْ جنـودُ الجنـةِ وفتيانُهـا وشـبابُها ولكمـو هنـاك فيهـا قصـورٌ وجـواري وحـورُ عـينٍ، ولا يعلـمْ إلا اللـه جلّـتْ قدرتـهُ مـا هـي الفضائـلُ الربانيـة التـي سـتكونونَ عليهـا مِـن عـزٍّ وجـاهٍ وتقديـر بـينَ أنهـارِ العسـلِ واللـبنِ والخمـرةِ الإلهيـة اللذيـذة.

شملت عيناه الطابور إلى آخره:

- الانتظـارُ جـزءٌ مـنْ جهادِكُـم في سـبيلِ إعـلاءِ كلمـةِ اللـهِ الحـق في دولتِنـا الإسـلاميةِ، فـلا تيأسُـوا، لكـنْ عليكُمـو أنْ تُدققـوا بأوراقِكـم قبـلَ المثـولِ بـينَ يـدّي الحـاج وعـد اللـه، فقطعـةُ الجنـةِ تبـدأ مـن عشريـنَ ذبيحًـا رافضيًّـا وناصبيًّـا وكافـرًا ومرتـدًا لـكلّ مجاهـدٍ، وكلما زادَ عـددُ المذبوحـينَ زادتْ سـعةُ الأرضِ في الجنـةِ للمجاهـدِ البطـل.

صاح الجميع صيحة واحدة هزت المكان هزةً عظيمة:

- الله اكبر.. الله أكبر.. الله أكبر

من دعاء السفر الأيزيدي

دوعايا ئوغري

ريیا حه قيى قه نديلا تزي خيرو	طريق الحق بعهدة حامي الطرق
هه كه جيبايه وهه كه به رييه	إذا كان جبلًا أم صحراء
ده ستى مه لدانكو دامانا شيخادي	التماسنا ورجاؤنا هو الشيخ آدي
ومه لك شيخ سنى ئاديیه	والملك الشيخ حسن الآدياني
نه م بسلغى	أن نذهب بالسلامة من هذه الأماكن
وسلامه ت يزفان جيبيا	ونأتي بالسلامة من تلك الأماكن
بجين هزا جيبيا	لتلك الأماكن
نه م ب ساغى وسلامه تي زوان جيبيا	ونأتي بالسلامة من تلك الأماكن إلى
بينه فان جيبيا	هذه الأماكن

جبل الغزلان / ١

الأربعاء الأحمر[17]

1

تكدست الأغنام والخراف المشطّبة باللون الأحمر على الضفة القريبة من نهر فيشخابور، بعد مشوار غير قصير اختاره راقيار بعيدًا عن مراصد البيشمركة ودورياتها المحتملة، فشكّل القطيع ظهرًا صوفيًا تتقاسمه الشطبة الحمراء بخطوط مجرورة وغير مستوية، يتقدمه المرياع الضخم بقرنيه المكورين وصلصلة جرسه المعلق على رقبته، وكان الرجلان يحيطان بالقطيع من

17- الأربعاء الأحمر أو سرسال؛ عيد رأس السنة، يسميه الأيزيديون «الأربعاء الأحمر» و يصادف أول يوم من شهر نيسان الشرقي الذي يتأخر عن التاريخ الميلادي الغربي ثلاثة عشر يوماً ويعدّ أقدم وأقدس عيد بالنسبة إلى الأيزيديين. ويرجح الباحثون أن بتسمية «الأربعاء الأحمر» تعود إلى زمن إمبراطورية ميديا، حيث يقال إن معركة كبيرة نشبت في مثل هذا اليوم وأريقت دماء كثيرة، وبعد أن انتصر الكرد، وانهزم العدو، سادت البهجة على الشعب الميدي آنذاك، وأضيفت كلمة أحمر نسبة إلى الدماء الكثيرة المهدورة في المعركة.

طرفيه محاولَين تقليص المسافة في أقل مساحة وتيسير عبوره إلى الضفة الأخرى، ومتابعة الرحلة الطويلة عبر القمم الضبابية المتصاعدة والقرى المنعزلة الضائعة في بطون الجبال، ليرسما قوسًا طويلًا وبعيدًا ستكلفهما سبعة أيام وسبع قمم كما خمّن الراعي حتى يلتحقا بالجانب الشرقي لسنجار.

تطوع بعض الشبان الكلدانيين المتسكعين بين أشجار البلوط والجوز، وطاردوا بعض الأغنام السائبة وحشروها ضمن القافلة المتجمعة، وأشاروا إلى الجسر الخشبي الذي تعبر منه الشاحنات التركية بعد كتلة الأشجار العالية المطلة على النهر. وهو ما يعرفه الراعي المثقل بأحماله حينما سار بالقطيع بخط طولي على الساحل الطيني، متجاوزًا كنيسة قديمة بلحيته الكثة وحاجبيه الغليظين وشعره المسترسل المفتول كالجدائل، وهو معبّأ بالثياب المتداخلة، وحقيبة القماش متدلية على كتفه مع صُرر أصغر تملأ زيقه، تطوق عنقه قلائد خرزية وصدفية وعاجية، تتدلى على صدره مع **الشيراشال**[18] الطويل الذي لا يتخلى عنه، حتى بدا وكأنه كاهن أسطوري، خرج من إحدى الكنائس ليؤدي دورًا ما في مكان غامض، وينشر الفضيلة حيثما كان هناك. وهو ما يقوله شبّان نهر **فيشخابور** سرًا ويتضاحكون كلما يمرّ الراعي الموسمي بأغنامه من هذا المكان، ويعبر

18- الناي أو المزمار

سلسلة الجبال الطويلة التي يغلفها الضباب في هذا الصباح.. يا عم كانت الحمزة في فلم الرسالة هههههه
يتبعه في آخر القطيع سربست بطوله النحيف كأنه رجل مريض، تتدلى شواربه الفوضوية الثخينة غير المنظمة على وجهٍ كئيب، وقد شدّ رأسه بيشماغ أحمر حتى حدود حاجبيه اللتين يخالطهما بياض كشخبطات الطباشير، رابطًا وسطه بحزامٍ عريض وهو يدفع النعاج المتأخرة بعصاه التاريخية؛ عصا الشهيد عيدو[19]؛ لتنضم إلى القطيع المتعثر بين أطيان الجرف والأغصان المقطوعة العالقة، فيما بقي الشبّان يساعدون الرجلين للوصول إلى الجسر الخشبي، وهم يهشّون على القطيع لحثه على الجري السريع، ومحاولة إبعاده عن أن يطمس في الطين والغرين على الجرف المتعرج.
تساءل أحد الشبان وهو يقترب من الراعي الأسطوري:
- منذ فترة طويلة لم تمر من هنا يا عم.
- مشاغل الحياة كثيرة يا ابني.

19- عيدو المجنون: شخصية أساسية في روايتي السابقة «عذراء سنجار»، وهو عيدو المجنون الذي تم حرقه حيًا في باحة جامع سنجار، تظهر عصاه على نحو ما في هذه الرواية عند الشخصية المركزية سربست، وهي العصا الغامضة التي دوّن عليها عيدو سحريات وطلاسم ورسومات غير مفهومة بثلاث لغات هي: العربية والكردية والتركمانية. وتظهر عصا عيدو بشكل رمزي وليس أساسيًا في هذه الرواية.

- قطيعك كان أكثر عددًا من هذا.

- نبيع ونشتري والرزق على خودا.

تساءل شاب آخر بمكر:

- أنت تبيع الأغنام على أهل الأغنام في قرى الجبل يا عم.. ماذا تجد في الجبال؟

تدخل شاب أشقر وقال بخجل:

- تذكّرني هيأتك يا عم بأنبياء الجبل الذين يغيبون زمنًا طويلًا ثم يظهرون فجأة هههههه.

ربت على كتفه وأشاع في وجهه ابتسامة ولم يقل شيئًا، سوى أنه امتثل لهذا الوصف مختلط المشاعر، متابعًا انتظام القطيع على رأس الجسر الذي اصطفت رؤوسه كأنها لجسد طويل واحد يتقدمه المرياع بصلصلة جرسه الذي لا يهدأ، وفي آخر القطيع كان الرجل الآخر يلوح بعصاه، وهو يحث الماشية على تجاوز الجسر الخشبي المتحرك إلى السفح الجبلي المقابل، والابتعاد عن الشارع العام والقرى المتفرقة التي تقع عليه.

2

كان راڤيار يراقب صديقه المثقل بالحزن، ويرى رأسه الملفوف باليشماغ الأحمر كجمرة متوقدة لا تخفت، لكنه يجد في داخله انتصارًا أوليًا لكبح الفجيعة المزمنة فيه لدخول المسالك الوعرة غير الآمنة كثيرًا وصعود القمم باتجاه سنجار عبر مساحة

مأهولة بالجبال والهضاب العميقة، والطرق المتروكة والقرى المدفونة في الوديان والسهول، بعيدًا عن دوريات البيشمركة، واحتمالات وجود قطعات عسكرية راصدة لهذا المكان المكتظ بالأشجار والمنحدرات النازلة إلى جوف الأرض.

صاح رافيار بعد أن حرر القطيع من النهر والجسر وتجاوز بعض القرى الصغيرة حتى ابتعد به إلى السفح القريب:

- لدينا الوقت الكافي.. سبعة أيام تكفي للوصول إلى شنگال.

تردد الصدى ممطوطًا بعطرٍ أخضر شعر به سربست، وهو يهم بصعود السفح الدائري ويطارد نعجة انزلقت عن خط القطيع، وقلبه يخفق منذ الفجر ولم يكف عن النبض المتسارع حينما يتخيل صورة لشتُمان البعيدة في غيابها الطويل، غير أنه كان يتذرع بأمل ضعيف مع هذا الصديق القديم المغامر المحكوم بالإعدام سابقًا، والغامض إلى حد كبير.

يقول لنفسه بكثير من الاطمئنان وهو يتطلع إلى الفضاء الجبلي الملون:

- يجعل الرب سرّه في أكثر مخلوقاته فوضى وغموضًا.

يناديه الراعي:

- ما إن نصعد الجبل حتى يعرف القطيع طريقه بلا تعب.

3

يظهر الجبل كلوحة مفروشة واقفة على أضلاع غير منظورة، تتكئ على خلفية أشجار خضراء متكدسة بطريقة متداخلة، يسندها جدار عملاق من الضباب، وبدا القطيع منتظمًا بالصعود مثل دمى تحركها قوى سرية في الممرات المتعرجة الصاعدة، متفاديًا الصخور الناتئة والمسننات الجانبية التي تعترضه، والأشجار المائلة كثيرًا والجذوع الساقطة، وكانت تبدو لعيني سربست كما لو أنها انعتقت من أسرها وطاشت في صعودها السريع، فحاول أن يلحق بها رافعًا عصاه على كتفه، بينما امتصت الأشجار الصاعدة هيئة راڤيار الذي اندفع إلى الأعلى، يتقدم القطيع كجني جبلي مثقل بأحمال وصرر متجاوزاً عمره الستيني، داخلًا مع القطيع بين الأشجار الكثيفة الممتدة صعودًا ويغطس في الظلال الباردة.

- عند الشلال الأول نتوقف ونسقي النعاج.. سربسـ سسـ سسسـ ت

تدرّج الصدى صافيًا وتواترت سينات اسمه متتابعة، وهو يرى القمة شاخصة تحت شمس الصباح بعد انزياح الضباب التدريجي، بوفرة خضرتها المائلة إلى السواد التي ملأت عينيه، فشعر بقدمين مخدرتين، وجسد غير مهيّأ كثيرًا للصعود الشاق حينما تطلع إلى الأعلى، لكنه كان يشعر بأنه عبر جزءًا إلى الجانب الآخر من الغموض، مع الراعي الغائص بين الأشجار سوى من صوته الغريب الذي يناغي به أغنامه السارحة

أمامـه، متعـثرة بالصخـور والمسـننات المفاجئـة والأشـجار السـاقطة والشـلالات الصغـيرة التـي تجـري سريعـة مـن مصبـات عاليـة ليسـت قريبـة منـه؛ بينـما كان يأتيـه صـوت الشيراشـال بـين فـترات متباعـدة ناعـمًا وحزينًـا يمـلأ الفضـاء الأخـضر بـروح تتمـرأى حيـة في كل شـجرة مقبلـة وكل زهـرة تتفتـح في الصعـود الشـاق، لحظتهـا يشـعر أن صديقـه المغامـر يزيـد مـن في المـكان شـجنًا وسرًا مـن أسراره الكثـيرة؛ فتنتابـه رغبـة في البـكاء وتحـاصره كثـيرًا، غـير أنـه يـرى أن الوقـت مبكـر عـلى البـكاء والألم؛ وحينـما نظـر إلى الأسـفل رأى كل شيء صغـيرًا ومتواريًـا، ولم يعـد نهـر فيشـخابور سـوى خيـطٍ ضعيـف ضائـع ومعـه المدينـة التـي بـدت تتصاغـر كعلبـة، فغمـره إحسـاس مخيـف بـأن البُعـد يصغّـر الأشـياء ويبعدهـا عـن الذاكـرة إلى حـد كبـير، لكنـه تمـرد عـلى هـذه الفكـرة منقـادًا إلى موجـات الشيراشـال المترددة بحـزن وشـجن، كأنمـا تحـول راڤيـار إلى سـحابة بيضـاء تمـر عليـه، ثـم تتركـه، ثـم تعـود إليـه مـع القمـة القريبـة مـن السـماء، حتـى الفسـحة العشـبية المفتوحـة التـي قـاده إليهـا الصـوت الصـادح الـذي امتصتـه ميـاه شـلال أبيـض نازلـة بهديـر واضـح، فهنـاك الراعـي المبتسـم الـذي حولتـه القمـة العليـا إلى كائـن أكـثر وضوحًـا، كمـن تخلـص مـن أعبـاء كثـيرة ومزمـاره في يـده، كـما لـو هـو قـدر جميـل يصاحبـه أينـما يكـن.

4

طمأنـه رافْيـار بـأن النـزول اللاحـق سـوف لا يكلـف وقتًـا ولا جهـدًا، وأن الصعـود والنـزول سـيجعل مـن لحـم الأغنـام طيعًـا في الطبـخ، وعظامهـا تصبـح كعظـام الدجـاج تحـت النـار.

- هههههـه لا تتعـب يـا رجـل فالطريـق الطويـل يحتـاج إلى مثابـرة وجديَـة وأمامنـا أيـام ليسـت قصيـرة وبـلاوي متوقعـة وغـير متوقعـة حتـى نصـل شـنگال.

- وماذا عن لحمي يا رجل؟

- ستتفكك عضلاتـك المتشـنجة أولًا، ثـم تصبـح كعضـلات الطفـل رخـوة وطيِّعـة، لكنهـا سـتكون مشـدودة كرافـع الأثقـال في نهايـة الأمـر هههـه.

تـرك رافْيـار القطيـع في القمـة المفتوحـة المعشـبة يرعـى قريبًـا مـن عـين مـاء تجـري بخريـر خفيـف، ومـن جانبيـه أشـجار حـور طويلـة، وشـجيرات ملكـة الجبـل تتراصـف معهـا أشـجار عـين البلبـل الناعمـة بسـياج لا نهايـة لـه، حتـى تهبـط مع أشـجار السُـمّاق والتفـاح وأزهار البرقـوق وعصفـورة الـوادي إلى السـهل الـذي يشـهد رواحـه ومجيئـه في مثـل هـذا الموسـم، بعيـدًا عـن نقـاط الحـدود، كمحطـة اسـتراحة قبـل الانتقـال إلى القريـة التاليـة المنحـدرة مـع السـفوح والتـي بقيـت أكواخهـا الصخريـة مهجـورة منذ سـنتين.

- سـنصل إلى القمـة ثـم نأخـذ السـفح التـالي، هـذا يسـمونه جبـل الغـزلان، وهـو قليـل الضـواري.

5

شـمس مـا بعـد الصبـاح كافيـة لنـشر بعـض الـدفء النيسـاني في أوصـال سربسـت الـذي أراح جسـده، ممـددًا تحـت عريشـة كـروم تتـدلى منهـا أغصـان متفتحـة الأوراق، بينـما انشـغل الآخـر بنـزع أحمالـه الكثـيرة المعلقـة عـلى جسـده، واتجـه إلى المريـاع كثـير الصلصلـة وبـرك أمامـه وفـكّ الجـرس المعلـق عـلى رقبتـه: **سـتفضحنا يـا كبـش. لا حاجـة للجـرس بعـد الآن.**

فـك صرّة صغـيرة وأخـرج منهـا بعـض التـين المجفـف، وثـوم العجـم المخمّـر، وقطـع خبـز وقنينـة عسـل داكنـة اللـون، وكان الاثنـان ينظـران إلى سـماء عميقـة ابتعـدت عنهـا غيـوم نيسـان، وجلبـت شـبحي طائرتـين بعيدتـين تشـقان الزرقـة يتبعهـما خرطومـان أبيضـان طويـلان.

قال راڤيار:

- يبدو أن المعارك ستندلع قريبًا.

- أعتقـد هـذا.. الحكومـة في وضـع حـرج والبيشـمركة لـن يتنازلـوا عن شـنكال.

- يعتبروننا جزءًا منهم.

- والحكومة تعتبرنا جزءًا منها.

مضغ سربست لقمته:

- ضاع دمنا بينهم وكلهم سينفضحون بعد الحرب.

تأفف الراعي وهو يلوك قطعة خبز:

- نحن مجتمع صغير وضعيف.

على الفور قال **سربست** وهو يعصر رأسه:

- قَتَلْنا الدين. كأن الأديان مبرمجة على الحروب والفتوحات والسبي والقتل.

قال الآخر كأنه في لحظة استسلام:

- ديننا **الأيزيدي** مسالم، وبسيط لا يدعو إلى الحروب والقتل وانتهاك حرمات الناس.

رد **سربست** وكأن شيئًا مكبوتًا اندلع في أعماقه:

- إنه دين لا معنى له بصراحة!

صمت **راقيار** وهو يعدّ مائدة الفطور بشكل سريع بينما واصل **سربست**:

- إنه دين قديم أكله الزمن يا رجل.

كان **سربست** يتحدث وراقيار يتحرك بين الصرة وحقيبة القماش التي علقها على شجرة قريبة.

- لو تنظر إلى الحياة ستجدها أوسع من دين صغير ثبت أنه غير صالح الآن.

أكمل إعداد المائدة الصغيرة على العشب وقال:

- أتفق معك ولا أتفق؛ لا أتفق بأن ديننا لا يصلح الآن، وأتفق بأن تطبيق أي دين بطريقة تعسفية هو معرقل للحياة.

- وماذا في ديننا يا أخي؟

- ديننا اجتماعي أكثر من كونه فقهيًا أو تشريعيًا، وأنت ترى

أن الحياة هي مجتمعات، وأي خلل فيها يعني إحداث خلل في تركيباتها النفسية، وبالتالي سيكون هناك خرق فظيع لمنظومتها اليومية.

كان سربست يجيل نظره إلى الوادي العميق:

- سبب مطاولة الدين الأيزيدي عبر الزمن هو وجود آلية أخلاقية اجتماعية تمسّك الجميع بها حتى اليوم، وهذا ما أريد أن أصل إليه.

أضاف وهو يمضغ لقمة خبز مغمسة بالعسل:

- هذا العسل في فمي الآن مر.. أتدري لماذا؟

صمت الآخر وفي عينيه استفهام:

- لأن الدين في وادٍ والحياة في وادٍ آخر، أنا ضد أي دين يجعل فمك مرًا على مدار اليوم بالرغم من العسل الوفير الذي تأكله على مدار اليوم.

ضحك الراعي وهو يبعد نعجة كانت قريبة منهما:

- أنت في أزمة وأنا أقدّرها ولك الحق أن تقول ما تشاء.

اعترض سربست:

- لا أقول ما أشاء.. أنا أستنتج وأفكر وأتأمل بعيدًا عن أزمتي الشخصية.

- لكنك قبل داعش ما كنت ترى في الدين عيبًا أو نقصانًا!

تنشق هواءً باردًا استطابه وهو ينظر في عيني راڤيار:

- كنت أرى كل شيء. أنا متنور من زمن بعيد. لكنني كنت

ضمـن قطيـع؛ مثـل قطيعـك هـذا؛ يـأكل العلـف ويقـضي الليـل بالـضراط، لـذا مـن الصعـب أن تقـول لهـم هـذا العلـف ذابـل أو غـير ملائـم ولا يصلـح للهضـم.

ضحك راڤيار ضحكة طويلة وقال بوضوح:

- أنت قاسٍ يا رجل.

- أرى الحقيقة بهذا الشكل منذ زمن طويل.

- وغـيرك لا يراهـا هكـذا، مـا مـن ديـن عـلى وجـه الأرض يُـرضي كل معتنقيـه، لأننـا ببسـاطة ولدنـا أيزيديـين، ولا نملـك أن نكـون في ديـن آخـر.

6

انشـغلا بالطعـام وهـما يتنسـمان هـواء القمـة البـارد، غـير أن سربسـت كان يشـعر أن بــه كلامًـا محتبسًـا:

- يقـول رجـال ديننـا بـأن الديـن الأيزيـدي ديـن مكتـوم حتـى لا يفسـد بالتـداول هههـه بربـك هـل سـمعت مثـل هـذه المهزلـة؟

- هذا ما فهمناه منذ زمنٍ طويل.

أشاح بنظره إلى أفق يغطيه بعض الضباب:

- بالكتـمان أفسـدوا الديـن لمصالحهـم.. كانـت مهمتهـم تجهيلنـا وغلـق عيوننـا عـن الحيـاة حتـى لا نـرى غيرهـم.. ونجحـوا..!

ناكده راڤيار بمرح:

- لو قُيض لك أن تولد من جديد؛ هل تكون أيزيديًّا؟

- سأكون بلا دين. أولد حرًا وأنا أختار. بوضعي هذا أختار اللادين فأنا رجل لا ديني مع أنني أيزيدي بالولادة والفطرة والتصرف، وحتى في الجهل.

ضحك الراعي ونهض يلملم بقايا المائدة العشبية، فيما كانت الشمس تتحرك بين فجوات الظلال فتتقافز بقعها الصغيرة على المكان الصغير، وتترك ضوءها يتغير مع النسائم في حركة الأغصان المتتالية.

قال سربست وهو يتمشى ناظرًا إلى القمة الثانية التي يغلفها الكثير من الضباب:

- اسمع سيدي. يقولون نحن أبناء قابيل لهذا لا نتزوج من غير هذه السلالة هههههه أسمعت؟

هز الراعي رأسه وعلى وجهه شبح ابتسامة:

- لاحظ كيف يتفننون بدفن السلالة إلى ماضٍ لا يعرفه أحد؟

هبّت نسائم باردة، وكان الاثنان يتفقدان الأغنام التي انتشرت ترعى، محاولَين حصرها في مساحة قريبة منهما ومن الشلال النازل بمياهه الوفيرة.

تساءل الراعي:

- كنت أعرف أنك كنت في شنگال، لكنني كنت أتحاشى أي أيزيدي هناك.

ثم أوضح:

- لم أعرفك أنت بشخصك، لكنني شممت شيئًا من هذا

وقتها عن أب يبحث عن ابنته، وصار مسلمًا يصلي معهم في الجامع وكان يتنقل في بيوت كثيرة.

تأفف سربست وهو يلهث:

- منذ أشهر طويلة تركتُ شنگال بعدما يئست من العثور على ابنتي، ولا أعرف ماذا حصل.

أكد الراعي:

- تسوء الحياة فيها يومًا بعد يوم، والدواعش يعتبرونها محطة استراحة خلفية لهم.

- عشت أيامًا عصيبة فيها، والشنگاليون القلائل فيها كانوا يقاومون ببدائية وبساطة، وكانوا يدفعون حياتهم ثمنًا لهذا.

- يا أخي حتى الحيوانات تدافع عن جحورها وأوكارها في لحظات الخطر.

قال سربست كما لو يؤكد حقيقة غابت عن صديقه:

- في لحظات الخطر هربنا كلنا، انهزمنا ثم بدأنا نبرر الهزيمة ونجد لها أوصافًا وظروفًا وخياناتٍ من الداخل.

أوقد راڤيار نارًا كان قد هيّأ حطبها من أغصان متناثرة، ووضع قوري الشاي الصغير على مثلث من ثلاث صخرات ناتئات:

- كانت عجائب شنگال تلك الفترة كبيرة، لو حسبناها بالقياس إلى ناسها القليلين المتبقين تحت الاحتلال.

- ما مضى كان هزيمة بالفعل. لكنّ للانتصار ثمنًا آخر ربما

سيكون أقسى من الهزيمة.

- وحدنا لا ننتصر، الحكومة ومن يساندها من القوى الكبرى، أمريكا، لعنة الله عليها.

كان راڤيار يعرج قليلًا، وهو يحمل قدحين صغيرين من الشاي:

- الحكومة ستواجه الأحزاب الكردية والتركية ومطامعها التي تكشفت الآن.

- نحن المجتمع الضعيف الذي لا يحقق التوازن وحده.

- يبدو أننا سنحتاج لأي مخلّص.

- وهذه مصيبتنا، سيخلصوننا ويتقاسموننا في لعبة طويلة.

- صح.. هذا متوقع.. بل أكيد.

7

هبت نسائم كثيرة متتالية تحمل عبق الجبال والوديان وبردًا خفيفًا، وكان سربست يسترخي، وهو ينظر إلى صديقه الذي يراه راعيًا حقيقيًا بهيأته المربعة العَضِلة كدب جبلي، وشارب غليظ بملامح حنطية قريبة إلى الشقرة، واكسسواراته وقلائد الأصداف والخرز الملون الذي يضعه على عنقه تضفي عليه شخصية ساحر يجوب الأمكنة ويخترع المراهم للمرضى، ويأتي بعجائب الشفاء والحيل والمواقف.

قال راڤيار وهو ينتشله من التفكير:

- حينما سنصل إلى شنكال بعد سبعة أيام تقريبًا ستكون قد تمرست على الرعي. يعني ستكون راعيًا يعرف كيف يقود القطيع، ويستدرك المفاجآت غير المحسوبة.

سحب نظره من الوادي:

- أنت أخي وأثمّن لك هذه الجهود والمغامرات من أجل بنات لالِش المعذّبات في السجون.

كما لو يريد تأكيد بعض الحقائق أمامه:

- لا تغضب كثيرًا ولا تستغرب ولا تتنرفز. ستجد أشياء عجيبة في شنكال.. شنكال تغيرت مع داعش وصارت ولاية إسلامية مخيفة.

قال بتأكيد آخر كأنه يطمئنه:

- نحن رعاة أغنام، ولدينا ترخيصات من ديوان الحِسبة في ولاية الجزيرة، وبعض المجاهدين المهمين في شنكال. ولا تنس مهمتنا من أننا نخلص الأسيرات بفدى مالية، ولعل الرب سيساعدنا ونجد نشتُمان.

قال مرة أخرى لمزيد من الاطمئنان:

- بالنسبة لك اطمئن فستمرّ من خلالي إلى شنكال. مسؤول الحدود التونسي يعرفني.

صمت قليلًا وهو يراقب انفعالات صديقه المتغيرة:

- لا تحزن كثيرًا. خودا بعثنا لتخليص صبيتك ولن يتركنا لوحدنا.

وأضاف كمن يريد أن ينهي الحديث:

- هناك أمور لم أقلها لك، لكن مع أيام الجبل ستعرف بعض الحلقات التي أعتمد عليها هناك، حتى هنا في الجبل الذي وسائل تذلل الكثير من المصاعب.

8

حمل على ظهره الحقيبة الجلدية، وبعض الأكياس التي ربطها على أمكنة متفرقة من جسده، ونادى القطيع بصوت غريب يتميز به الرعاة، ثم قال لصديقه الذي تهيأ وحمل عصاه:

- لا تنس إننا مسلمان سنيان كرديان، وشهادتنا أن لا إله إلا الله محمد رسول الله. انس طاووسي مَلك وشيخادي ولالِش. علينا أن نعبر إلى جبل الذئاب، فما تبقى من النهار يكفي للوصول إلى سفحه، وسنبيت في إحدى المغارات في الوادي حتى الصباح لنعبر الجبل.. نحن في مهمة صعبة وخطرة. ليحفظنا خودا العظيم.

جمعا النعاج المتباعدة، وظل صوت راقيار الغريب يحفزها للالتحاق بالقطيع. ثم أخرج من عبّه كيسًا صغيرًا من النايلون بحجم قبضة اليد ومد أصابعه، وانتشل منه بعض البذور الناعمة:

- هذه بذور شقائق النعمان، أطشها كلما أصل إلى هذا المكان، حتى آخر قمة تطل على شنگال.

كانت عينا سربست تستفهمان فأكمل الراعي:

- لا تنس أن نيسان هو عروس الأشهر وبداية السنة الجديدة وعيدنا السرسال[20] قد بدأ في هذا اليوم الأربعاء الأحمر ونحن وحدنا هنا لكن في عودتنا سنجد هذه البذور قد صارت وروداً حمراء نزين بها طريق عودتنا.

رمى حفنة عشوائية على المساحات الصغيرة المتروكة بين الأعشاب المخضرة ومدّ يده أبعد من ذلك وهو يسير يخطو ببطء وشفتاه تتمتمان:

- هكذا أحيي عيد السرسال بطريقتي وربما أنت لا تقتنع، إنه عيد طاووسي ملك الذي ينزل مرة واحدة في كل سنة وبمثل هذا الوقت، أم أنك نسيت؟

شعر سربست بشيء من التعاطف والإحراج فاحتضن صديقه الذي كان يبتسم:

- نحن أيزيديون شئنا أم أبينا وهذا عيدنا.

- لا يجوز حفر الأرض في مثل هذا العيد، وهذا اليوم لذلك انثر البذور وهي تتلقح ببركة شيخادي وخودا وتصبح أزهاراً من دم.

دحس الكيس الصغير في زيقه وقال لصديقه وهو يشرع بالنزول مع المرياع:

- علينا أن نجتاز سبعة جبال وسبع قمم.. سأغني كثيراً.. لا تقلق.

20- الأربعاء الاحمر

إله النار الغريب

1

رمى أبو العينين ورقة نقدية كانت مدعوكة في جيب سرواله الجانبي إلى الكتلة البشرية المتكورة على الدكة، وهو يدخل الجامع مترنحًا قليلًا كالدائخ، لكنه مُسنَد بمساعديه من كل جانب. وبدا بهيئته المثيرة مثل نبي سيوجّه البشرية، إلى الحياة الصحيحة من على منبر الخطابة العالي كثيرًا كما يعرف المصلّون الذين يحرصون على سماع خطبه النارية في نهارات الجمعة، ليكتنزوا الحماسة الأكثر بعدما تكون قد خفتت خلال أسبوع بسبب وتيرية الأيام التي تمر على سنجار.

كان يستغفر الله كثيرًا بطريقته المسموعة المعتادة، ليضفي عليه هالة من الورع ويهوّم بيديه دائمًا، ويرفع رأسه كثيرًا إلى الأعلى كأنه يكلّم أشباحًا لا يراها غيره. ينصت لهم كمن يتلقى أوامر معينة، أو يكلمهم بلغة غير معروفة، وهو يشق طريقه بجمعٍ من المصلين الذين كانوا ينتظرون طلّته بعد غيبته الطويلة في المستشفى، فبدا لهم كائنًا رفيعًا كخيارة

ذابلة، لكنّ ملامحه القاسية بقيت كما هي، كنبي غاضب على كل شيء بجمجمة بارزة وأسنان صفراء، ولاحظ المقربون منه أن طريقته في مخاطبة الأشباح غير المرئية زادت كثيراً بعد خروجه من المستشفى، فتناوب كثيرون بتقبيل يديه ورأسه وكتفيه وهو يمضي إلى خطبة الجمعة على منبره العالي، فكان مثل طائر أسود معلّق حين اعتلى المنبر؛ ينتظر أن يطير بجناحين سينبتان له بعد قليل، وهو يطيل النظر إلى السقف، والعيون محدّقه به تارة وبالسقف تارةً أخرى.

2

نهض الأعمى الخمسيني **نور الدين**، وهو يلملم الأوراق النقدية المختلطة التي كانت في طاسةٍ أمامه، ودخل الصحن متلمسًا طريقه بين الأكتاف المتراصّة، فقاده رجل وأجلسه في آخر خط مسنِدًا ظهره إلى الحائط، لكنه بقي يتلمس الأوراق الناعمة والخشنة في جيب جانبي، وكشف عن وجهه المغمض حينما خلع نظارته السوداء، وأخذ يمسح وجهه المتعرق قليلًا، وبانت آثار حروق في وجهه المجعّد، مسّها بلطف وهو يمرر منديله عليها كما لو يراها؛ متداركًا لحظته بالإنصات إلى الخطبة الحماسية التي عاد لها **أبو العينين** متوعدًا ومهددًا الجالسين بنار جهنم، كإلهٌ ناري يتجدد في كل جمعة منبرية، لا يعرف غير اللهب والقسوة والتخويف والترهيب، حتى أنه يرتعش وتتداخل

الكلمات بين زبد فمه وتهتز لحيته كثيرًا، ويصفرُّ لونه وتزداد جمجمته حجمًا؛ كأن ملاكًا واقفًا بين لحيته وشفتيه سيأخذ روحه، ويلقيها في نيران عارمة، لهذا يتحاشى الملاكَ الغامض بطريقة مذعورة ويوجهه إلى الجالسين الآثمين الصامتين على آثامهم، فيتسلل الرعب الإلهي بطريقة سريعة إلى الجميع، وتشتعل القاعة الكبيرة برائحة دخان وأنفاس محمومة، وتسقط قطرات نار من السقف يحاول الكثيرون أن يحتموا من لسعاتها القوية بالتوسل والتضرع، والدخول في صيحات أبي العينين المتتالية التي تنذر بالوعيد والعذاب، فيطلبون المزيد من الاسترحام، والتوبة على ذنوبٍ لم يرتكبوها بعد.

لا ينشغل الأعمى كثيرًا بصيحات الأمير، ولا يطلب الشفاعة من إلهٍ غريب لا يعرف غير الحرق والقتل وتذويب الأجساد في مصاهر من حجر وحديد؛ فيهرب رأسه إلى أكثر من مكان، وينسى الصوت المهيمن على الجماعة؛ معيدًا صور زوجاته السعيدات اللواتي هربنَ منه إلى المخيمات البعيدة؛ وهذه عادة يفضلها ويقضي خيالًا طويلًا معها بدلًا عن الإنصات إلى لغة النار المريبة، فيشعر بأن الله الآخَر الذي يخافه حقًا هو الذي منحه الجرأة أن يكون الزوج المخلّص في لعبة الفصول التي يقودها الراعي بأسماله المتربة التي لا تتغير، واكسسواراته المعلقة على رقبته كساحر يجوب القرى والقصبات. لكن أبو العينين لم يهدأ ولا لحظة واحدة؛ يجول بين النار والكافرين والمذنبين، ويصول في

عـذاب شـبحي يرسـمه بخيـالٍ نـادر لجماعـة صامتـة، يتمكـن منهـا في كل لحظـة، ويـدس فيهـا الكثـير مـن الشـعور بالذنـب والفجيعـة، كأنما ستشـتعل النـار بعـد قليـل في أروقـة الجامـع، ويتحـول المصلون إلى رمـاد في لحظـة غضـب إلهـي لا نظـير لهـا.

3

تتجـول صبايـا كثـيرات في رأس الخمسـيني الأعمـى بالرغـم مـن وقـود أبي العينـين المشـتعل ودخانـه السـاخن الـذي مـلأ القاعـة وعيـون المصلّين المذنبـين؛ زوجـاتٍ صغـيرات تخلصـن مـن عبوديـة الأسر وحملـنَ معهـنَ آلامًـا وخطايـا لا تحـصى، لكنهـنَ الآن هاربـات سـعيدات إلى مخيـمات يتخيلهـا بسـيطة وهادئـة، تتعاقـب فيهـا الحيـاة بطيئـة وإنْ كان فيهـا غيـاب كبـير؛ لكنـه يُطمـئِن نفسـه أن زواجاتـه مـن الصبايـا هـي مفاتيـح ورسـائل للداخـل الغامـض المهجـور لا بـد وأن يعرفهـا أهـل سـنجار فيـما بعـد. وحتـى عندمـا يزيـد أبـو العينـين مـن صراخـه الوحـشي ويشـعل جهنـم في رؤوس الجالسـين الخائفـين مـن العقـاب الإلهـي الغامـض، فـإن نـور الديـن يُبقـي عـلى الصـور في رأسـه المكتـظ ويعيدهـا بمهـل، ويـرى بينهـا الراعـي بأسـماله ولحيتـه المغـبرّة يتعاقـب بالمجـيء مـع الفصـول مـع أغنامـه فيمـلأ الأمكنـة برائحـة الغنـم والصـوف.

جبل الذئاب/٢

مرارة النسر

1

تجمع القطيع في كهف منزوٍ بين الأشجار يشق عمقه بين الصخور، وبدا لسربست كمعبد مهجور حينما ظل يتأمل أقواسه الحجرية الصخرية القديمة، وقد نُحتت عليها كتابات بلغة يجهلها وأيقونات صغيرة لم يستطع أن يفسرها لا سيما والغروب ألقى ظلال الجبال على المكان فحشره في عتمة قدِمت متسارعة.

خرج رافيار من الكهف بعد أن تأكد من حشر الأغنام في الداخل العميق، وكعادته أوقد نارًا من أغصان متساقطة جمعها وجلس يمد يديه للدفء، يطيل النظر إلى جهات متعددة مع انسدال الظلام، وعلى ضوء اللهب المتعالي شرع يقرأ بورقة خرجت معه من الكهف، ثم هزّ رأسه ونهض يتطلع إلى أقصى الشمال، كما لو يبحث عن شيء موجود يراه لكنّ انسدال الغروب جعل العتمة حاجزاً أمامه.

- ما بك..؟

تساءل سربست.

- مهرّب كان هنا منذ يومين وترك رسالة تحذير من وجود نشاط داعشي قريب من المكان.. و..

ثم أكمل للتوضيح:

- في العادة نتبادل الأسرار في أي كهف أو مغارة نكون فيها.

عاد مرة ثانية يتطلع إلى جهة الشمال من الجبل كما لو سيأتي أحدٌ ما.

- أشعر بأن في الرسالة غير هذا..!

قال سربست بصيغة القلق لكن رافيار تدارك:

- لا لا.. الغريب أن المهرّب يلفت نظري إلى أن دوريات من البيشمركة ربما تتواجد في المكان أيضًا!

مط الرجل الآخر شفتيه:

- كل شيء ممكن في مثل هذه الأماكن الملتبسة.

عاد إلى الجلوس قبل أن تغرب الشمس كليًا ومدّ يده إلى النار المتخافتة.

تساءل سربست:

- أتعرفون بعضكم؟

اقتربا من النار ورائحة الأغنام تنبعث من داخل الكهف:

- ليس مهمًا أن نعرف بعضنا. عادة ما نترك رسائل ووصايا وتطمينات أو تحذيرات لمن يأتي بعدنا، وأحيانًا نترك بعض الأسلحة الخفيفة كالحِراب والسكاكين، ويحق لمن يأتي من

المهربين أو اللصوص أن يستعملها دفاعًا عن النفس فقط، لكنه يتركها حينما ينتهي من مهمته. هذه أخلاقيات المهنة.

تكاثف الغروب كثيرًا، وطالت ظلال الجبال والأشجار، وكان سربست يجيل النظر إلى واجهة الكهف، فأوضح راڤيار:

- هذا الكهف لا يعرفه سوى المهربين ولصوص الجبال.

- شكله غريب.. أظنه كان معبدًا.

- في الصباح تستطيع أن ترى رسومات كثيرة على جدرانه الداخلية.

خمّن سربست:

- ربما كان ديرًا مسيحيًا أو كلدانيًا.

- أظن ذلك.. المسيحيون والكلدانيون والآشوريون كانوا هنا منذ زمنٍ قديم.

2

دلف راڤيار إلى الكهف حينما بدأت السماء تمطر قليلًا، وأخذ الجو يميل إلى البرودة بموجات هواء تتخلل الأغصان المشتبكة؛ بعد إنْ أشعل مصباحًا صغيرًا فتقافز ظله أمامه واستطال وهو يخطو، وتبعه سربست مثقل الخطوات منحنيًا تحت سقف الكهف الواطئ، وفي رأسه فوضى أسئلة وارتباكات لم يشأ أن يقولها. لكنه اقتعد مكانًا بين نتوءين بارزين شكّلا سريرًا صخريًا وترك عينيه مغمضتين ونسي نفسه في دفء المكان.

- المهربون كثيرون بين الجبال واللصوص أيضًا.

- هذه أمكنة لا تستطيع الحكومة أن تصلها.

- سترى قرى صغيرة متناثرة، وأغلبية سكانها يشتغلون مهربين من جهاتٍ متعددة بين كوردستان وسوريا وتركيا وإيران.. لكننا سنتحاشاها قدر الإمكان.

صمت سربست منصتًا إلى عزف الهواء البارد بين الغصون، وأخذ راڤيار يتفقد الأغنام في عمق الكهف بواسطة مصباح صغير، ثم عاد إلى باب الكهف وطلب من سربست مساعدته في سحب جذع شجرة ساقطة لتغلق الباب.

- تقلقني ذئاب الليل وهي تشم رائحة الأغنام.

أخرج من الحقيبة التي علقها بنتوء صخري حربة متوسطة وضعها إلى جانبه. ثم علبة زجاجية صغيرة فتح غطاءها ودس إبهامه فيها وسحب معه مرهمًا ومرر إصبعه على عينيه أكثر من مرة.

- مرارة النسر حتى لا أنام!

- أنت متعب.

- الليل طويل.

كان ضوء المصباح ما يزال ينير جزءًا من الكهف بينهما.

- قليل من الخمر ينعش القلب صديقي سربست هههه

مدّ يده في الحقيبة المعلقة وأخرج قنينة نبيذ ووضعها بينهما.

- هذا تخميري منذ أكثر من سنتين.

اعتدل سربست المثقل بالنعاس وعب جرعة صغيرة من فم القنينة وأراح جسده من جديد فيما عبّ هو جرعة ثانية طويلة.

اطمأن سربست وهو يستسلم لثقل جسده المتعب، وأخذه شخير خفيف، ولم يسمع أصوات الذئاب الكثيرة في الليل حتى تلك التي كانت تقترب من باب الكهف، تجذبها رائحة الأغنام المحشورة في عمق الكهف، وكانت مرارة النسر في عيني راڤيار تكفي لأن يظل يقظًا وحربته الملساء قريبة من يده، وهو يعبّ المزيد من جرعات النبيذ المعتق، ويدندن بأكثر من أغنية عن ذئاب الليل والنهار وروح الجبل الشامخ فيه.

٢- الكبد النبوي/ مقطع عرضي

1

لم يكن المنادي الحاج أبو هلال على قدر من الحماسة مثل كل مرة يدعو فيها السنجاريين القليلين المتخلفين عن الهروب، والمجاهدين الذين يحفظون أمن المدينة من الداخل لنداء أو توجيه أو بلاغ، كما في مثل هذه المرة حين علا صوته عبر الميكرفون في السوق الوحيدة، محمولًا على سيارة بيك آب مكشوفة الحوض، وبجملة مرتبطة تقطعت فيها أنفاسه: **الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر. إنه بلاغٌ من الله سبحانه وتعالى للمجاهدين والأنصار والمهاجرين والداخلين في دين الله ورسوله، وإلى أهالي ولاية سنجار الإسلامية. ندعوكم على الفور لتروا آيةً من آيات الله عز وجل في جسد أحد مجاهدينا الحاج الشهيد أبو عمر الأنصاري، الذي فتح الله في جسده معجزة من معجزاته العظيمة.. هلموا يا أنصار الله وشهداءه.**

يسير خلف البيك آب وإلى جانبيها بعض جنود الحِسبة شاهرين بنادقهم نصف الأخمص؛ يرافقهم بعض الصبية

مشـدودي الـرؤوس بقطـع سـود كأنهـم بطاريـق، يحثـون النـاس عـلى الذهـاب إلى مستشـفى سـنجار الإسـلامي، لرؤيـة المعجـزة التـي أحاطهـا الغمـوض في صـوت الحـاج مبحـوح الصـوت عـلى مـدار أكثر مـن سـاعة، جانبًا المنطقـة في كل أزقتهـا، يدعـو الأهـالي إلى الخـروج مـن بيوتهـم وتـرك أعمالهـم، ليتيقنـوا مـن معجـزة اللـه في الجسـد الشـهيد. وكان جنـود الحِسـبة يهشّـون بالعـصي عـلى أصحـاب المحـال، ويرغمونهـم عـلى تـرك محالهـم للالتحـاق بالمستشـفى الوحيـد، حيـث المعجـزة الربانيـة التـي لا تتكـرر.

تقاطـرت النسـاء المنقبـات القليـلات، وخرجـن مسرعـات مـن البيـوت يتبعهـنّ صبيـان وصبيـات صغـيرات ملفعـات بالنقـاب أيضًا، وهَـمّ رجـال كثـيرون مسرعـين نحـو المعجـزة التـي ينـادي بهـا الحاج أبـو هـلال ابـن قريـة كوجـو الـذي يعرفونـه تمـام المعرفـة، بالرغـم مـن أنـه أطـال لحيتـه وتزيّـا بالسـواد، وصبـغ غترتـه البيضـاء بسـوادٍ حالـك ولفّهـا مثلهـم. لكنـه بقـي معروفًـا للسـنجاريين القليلـين الذيـن ينظـرون إليـه بحقـد وضغينـة.

- هذا أبو هلال صاحبنا.

سكتت المرأة الأخرى وهي تتلفت.

ومـن بـين لغـط تزمـير سـيارات الإسـعاف المتناوبـة في المدينـة قالـت المـرأة الملفعـة بالسـواد بتشـفٍّ:

- أعتقد هناك هزيمة لهم.

همسـت المـرأة إلى جارتهـا السـاعية إلى جانبهـا، لكـنّ الأخـرى

ظلت تتلفت وتجبر صاحبتها على السكوت، فلا لغة يمكن لها أن تستكملها معها، وهي تعرف في حالة مثيرة كهذه التي ينادي بها الحاج أبو هلال، أن هزيمةً لحقت بهم في إحدى جبهات القتال، فتخاطُف سيارات الإسعاف في الشارع العام، والتوجه إلى المستشفى يعني كثرة الجرحى والقتلى في جبهة شرفدين[21] وهي الأقرب لسنجار وجبلها الكبير، غير أنهم تداولوا لاحقًا أن هزيمة فظيعة لحقت بهم في تكريت، وهو أمر يتيح الكثير من الأمل حتى للأسيرات المحاصرات في البيوت ومقرات القادة وبيوتهم المخفية.

2

الزحام الذي جلبه ميكرفون الحاج هلال جعل الدخول للمستشفى فيه صعوبة كثيرة، غير أن الذين خرجوا مندهشين منه كانت على وجوههم علامات استغراب ودهشة ممزوجة بخوف، يمكن للمرأتين وغيرهما مشاهدته بسهولة.

قالوا أن المجاهد الشهيد أبو عمر الأنصاري الذي ضربته قاذفة RBG 7 بشكل مباشر وأحالته إلى نثار بشري عُثر على كبده سالمًا، وقد حُفر عليه بطريقة إلهية وبشكلٍ واضح

21- مزار شرفدين يعد من أبرز المزارات الأيزيدية بعد معبد لالش، وهذا المكان دافع عنه الأيزيديون بضراوة أمام هجمات داعش ولم يسقط بل بقي في حمايتهم حتى النهاية.

(محمد رسول الله) كمعجزة، وبأن الشهيد التحق بالجنة مع الأنبياء والصدّيقين والشهداء.

- لم أرَ كبدًا بشريًا بحياتي.. بس شايفة كبد طليان!

- وراح تشوفي عليه اسم الرسول ههههه

اندسّت المرأتان بين جموع النساء من باب خاص، ودخلتا محشورتين بين العباءات بصعوبة، إذ لم يشهد المستشفى الوحيد زحامًا كالذي جمعه الحاج أبو هلال بصوته الرنان عبر الميكرفون منذ الصباح، وكان التدافع على بوابة المستشفى أكثر مما توقعه عناصر الشرطة الذين لم يستطيعوا السيطرة على الجموع الوافدة من المدينة، وأطرافها القريبة.

كان حشرًا بشريًا له رائحة زنخة جدًا.. رائحة أكثر من كبد محروق.

٣ - جبل الضباع
عندما تزوجتْ دبةٌ بيضاء

عاشق ومه عشووق مفتا بده سته	المفاتيح بيد العشاق والمعشوقين
مه مرازا خو ز وان دخو سته	نحن طلبنا مرادنا منهم
ئه وان مرازا خو ز هه ڤي دخو سته	وهم طلبوا بدورهم مرادهم من الله

(من دعاء الفجر عند الأيزيدية)

1

أيقظـه رفيـف المطـر المشـتت في فجـر الجبـل، وخفقـان الهـواء البـارد عـلى أطـراف الأشـجار التـي تظلـل الكهـف، فتلمّـس طريقـه إلى البـاب المفتـوح بـلا جـذع الليـل المطـروح، شـاعرًا بأنـه اسـتغرق في النـوم مـن دون أحـلام وكوابيـس ورؤى.

وجـد راڤيـار يشـعل نـارًا في موقـد صخـري إلى جانـب بـاب الكهـف مـع ضـوء الصبـاح الأول الغـارق بالغيـوم، ورائحـة أعشـاب طريـة وأشـجار وزهـور تتفتـح، وصـدى أصـوات متناوبـة لطيـور موسـمية وعصافـير جبليـة كثـيرة التصويـت.

جمع بعض الندى العالق على أوراق الأشجار ومسح وجهه البارد: أهو بقايا مطر أم ندى؟ لكنه تجاوز السؤال عندما ازدحمت حوله الأغنام متحررة من عتمة الكهف، وخرجت ثاغية، تاركة وراءها رائحةً صوف رطبة، وغبارًا ناعمًا، منتشرة في المكان، ترعى بعد إن أحاطها راقيار بذراعين وهميين استطالا كثيرًا، وهو يتحدث بلغة صعبة ويصوّت لها بلسانه وشفتيه فتخرج منه كلمات وأصوات غير مفهومة، حتى هدأت واكتفت بمساحتها القليلة المحصورة بين أشجار الجوز والكروم وزهور البرق الملونة الزاحفة على الأعشاب.

أشار إلى صديقه بأن يجلب له طاسة من الحقيبة الجلدية، ثم أمسك بنعجة سمينة وربت على ظهرها وكلمها فامتثلت له، عندها أقعى ومدّ أصابعه يحلب ضرعها فتساقطت نافورات الحليب الناعمة حتى ملأت الطاسة، فحملها سربست إلى مائدة وهمية من العشب وُضع عليها تين جاف وقنينة عسل وبعض أقراص خبز الـ كـه شـك والنعناع الجاف، وكان الموقد يبعث الدفء قريبًا من وجهيهما.

- سنصعد إلى القمة التالية، ولو بقي لدينا وقت سنحاول النزول إلى مغارة الضباع والمبيت فيها.

كان يشير إلى قمة لا تبدو قريبة مثل غيمة خضراء مجللة بضباب كدخان راكد عليه.

- سنتحاشى القرى القليلة ودائمًا لا نأخذ طريق الشلالات، بل نزوغ عنها حتى لو تأخرنا قليلًا.

كان الموقد يتخافت وأخذت ناره تضمحل حتى تضاءلت، لكن الصباح انتشر على نحوٍ واضح، وانسحبت الكثير من ظلال الأشجار والقمم القريبة، لتكشف فضاءً أخضر بلوحة واسعة مترامية الأطراف يخالطها ضباب وغيوم نازلة كثيرًا، فأخذ راڤيار يتطلع إلى أكثر من جهة، كما لو يستكشف مساراته الجديدة في رحلة عكسية إلى هناك، بعيدًا عن السيطرات الرسمية، وربايا المراقبة التي تغلق عليه منافذ الرحلة، وهي مسافة متعرجة بين الجبال والوديان والقرى والسفوح الصاعدة والمنحدرة.

2

منذ الليل، ومنذ أن غرق صاحبه بنوم مفاجئ عميق، أعاد ترتيب حقيبته القماشية الملأى بخبز السوني، والتين الجاف، وقنينة عسل، وأشرطة دوائية، وقبضة من الملح الخشن، وعصير الليمون، وشرائح صنوبر، والحبة السوداء، وحبوب مختلطة من الرشاد والفجل ضد سموم العقارب والأفاعي، وبعض الكبسولات الصفراء والزرقاء، والعلب الصغيرة لسوائل لم يسأل عن أهميتها، حينما اشتراها من أربيل ودهوك لبعض المجاهدين المرابطين على الحدود بين القرى والقصبات والأقضية، فظل إلى وقت متأخر؛ مع مرارة النسر؛ يسمع صفير الجبل، وحركة الليل، واصطدام الأغصان، وأصوات الكائنات المتحركة، لا سيما الذئاب

المخاتلة التي يشعر بمناخيرها المتشممة في باب الكهف، ليحدد مواقع كثيرة بديلة يمكنه أن يسلكها في رحلة العودة الربيعية، مصغيًا بحاسة استثنائية إلى خيال آخر يقرّبه من سنجار وجبلها الواسع بأقل الأيام ثقلًا، هو خيال الراعي الأخير الذي توزع في هذه المساحات العريضة أربعة مواسم كاملة، بنعاجٍ وكباش كانت تقل في كل رحلة كهدايا اضطرارية، ورشاوى للمجاهدين الذين يمسكون رؤوس القرى في كل أطراف سنجار البعيدة، حتى ملأ رأس صديقه بجغرافية السفر الصعبة إلى عرين خانق تشكّل كقدر أسود، لا بد من الخوض فيه ما دامت نشتُمان على قيد سنجار البعيدة.

3

صاح على القطيع صيحاته المعهودة، ولفّ على ظهره حقيبته، وشكّ في ثوبه صرّة صغيرة وتأكد من مزماره مدفونًا في زيقه.

- سأنحدر أمامك ولا تترك النعاج تحيد عن طريق النزول، فالسفح نازل كثيرا كما ترى.

هز الرجل الآخر رأسه شاعرًا برغبة كبيرة أن ينزل إلى الوادي، ثم يصعد الجبل البعيد، وأي جبل وراءه ليكون على مقربة من أنفاس نشتُمان، متحسسًا ثيابه الثقيلة، وواضعًا عصاه تحت إبطه، وفي رأسه أكثر من خريطة معقدة، وهو يرى نشتُمان تبتعد كثيرًا عن رأسه بين ضبابٍ أسود، ودخانٍ وحرائقَ ولغاتٍ

وسراويلَ سـود ولحـى مسترسـلة ونـيران عاليـة، لكنهـا تقـترب مـن زاويــة في روحـــه، وتســـتكين ولا تغادرهـــا. تلـــك هـــي روح البقـــاء الأعـزل في ظـروف لا تسـاعد عـلى البقـاء السـليم.

- سأكون في آخِر القطيع.

أشـهر عصـاه وتلمـس الصخـور بيـد بـاردة، وهـو ينحـدر مـع آخـر نعجـة سـمينة متعـثرة بـين الصخـور الناتئـة، فاضطـر أن يحجـل وراءهـا ليعيدهـا إلى مسـار القطيـع في الممـر العشـبي الـذي بـدأ يهبـط بهـم جميعًـا، بـين أشـجار كثيفـة وأغصـان تميـل بهـا الريـح البـاردة.

صاح به راڤيار:

- لا تشـغل بالـك بهـا. كل نعجـة تعـرف طريقهـا إلى الـوادي مثلـما تعـرف طريقهـا إلى المسـلخ ههههه

4

بخـط متعـرج وغـير منتظـم، انحـدر القطيـع مـع الضبـاب، وبـدا لعينـي الرجـل في المؤخـرة أن الطريـق سـيطول وسـتصعب السـيطرة عـلى القطيـع المتدفـق في نياسـم الجبـال ومنحـدرات السـفوح والهضـاب، تحـت هـذا الجـو الضبـابي الـذي تشـكل سريعًـا، وحجـب دفء الشـمس.

أعـاد سربسـت وجـوه صبايـا المعبـد، ويـوم التعميـد، ورقصـة الحيـاة السـعيدة في لالِـش، وحـشر وجـه ابنتـه بينهـنّ بقامتهـا

النحيفـة، ورشـاقتها، وعينيهـا الزرقاويـن، وضحكتهـا الطفوليـة، فطـاف عـلى حلـمٍ أزرق، وهـو ينحـدر مـع النعـاج متعـثرًا كأنمـا هـو نائـم: ويـن انـتِ؟

لأول مـرة يشـعر بهـذا الحلـم المتمـوج في طـواف الصبـاح الضبـابي، مأخـوذًا بجمـرة العـودة إلى شـنكال ونشـتُمان التـي تنتظـره، وهـو يتمـوج في هبـوط سريـع، متكئًـا عـلى عصـا غليظـة إئتمنهـا عنـده الشرطـي دلشـاد، قبـل أن يُحـرق في باحـة الجامـع بتهمـة الجاسوسـية عـلى دولـة الخلافـة الإسـلامية في سـنجار؛ وهـي عصـا المجنـون عيـدو التـي أخفاهـا دلشـاد عـن عيـون شرطـة الحِسـبة قبـل أن يُحـرق وقبـل أن ينتشـله صقـرٌ سـنجاري هبـط فجـأة وسـحبه مـن النـيران المشـتعلة.

- عيدو.. دلشاد.. أنتما معي.

5

كان الضبـاب يتكاثـف في الهبـوط، لكـن الشـمس تـشرق في مـكان آخـر مـن الجبـال، ولم يتوقـف رافـيار وهو يسـارع بالهبوط متسـابقًا مـع قطيعـه والمريـاع الدليـل الـذي يشـمخ بقرنيـه المعقوفـين بـلا صلصلـة جـرس، لكنـه اطـمأن حـين زحفـت أمامـه حيّـة مرقطـة في الممـر العشـبي الـذي يسـلكه، واندسـت بـين الأعشـاب، وكان الضـوء كافيًـا لأن يـرى هـذا الفـأل الحسـن، فظـل يديـم النظـر إلى مـكان تسـللها، مسـتعجلًا الوصـول إلى مغـارة الدببـة الغامضـة في رأس

صديقه الذي قضى النهار معه في النزول الشاق، بين أغنام تتزحلق وتشذ عن الممرات الكثيرة المتعاقبة، وكانت عصاه تطاردها، لكنّ صوت راڤيار الغريب يعيدها إلى مكانها كما لو تفهمه.

لم يكن الوادي عميقا كما كان يتصوره سربست، بسبب الصخور العملاقة الطالعة من عمقه التي رفعت معها غابة كثيرة الأشجار، تحاشاها راڤيار وهو يلتف حول الجبل، ويلتقي معه القطيع، ويأخذ سربست أنفاسه قليلًا شاعرًا بالتعب، غير أنه يعاند نفسه في مشواره الطويل بمغامرة صديقه الراعي المخلّص الاستثنائي البارع. حتى تباطأ القطيع متجمعًا على مسرب صخري منحوت رابض بتلقائية لا شكل له، عندها تقابل الرجلان وكان سربست بوجهه المضبب متسائلًا.

قال راڤيار:

- الوادي صخري كما تراه والغابات فيه مخيفة فعلًا، لذلك نؤجل وجبة الغداء ونواصل السير بين الصخور حتى سفح القمة الثالثة.

ثم أضاف:

- أنا غير مرتاح لهذا المكان بصراحة ودائمًا أتجنبه.

هز سربست رأسه، فواصل الراعي للتوضيح:

- أسمع كثيرًا عن هذه الغابة بأن مَن يدخلها لا يخرج!

واصل سربست هز رأسه وهو يتطلع إلى الغابة العملاقة

القريبـة، بينـما كان الراعـي يواصـل:

- لذلـك نسـلك الممـرات بـين هـذه الصخـور حتـى نهبـط مـن جهـة أخـرى، ونتسـلق سـفح القمـة الثالثـة في جبـل الضبـاع، فهنـاك أكـثر مـن مغـارة يمكـن أن تأوينـا حتـى الصبـاح، وهنـاك ضبـاع أيضًـا، لكـنّ ممـي شـفان[22] سيحرسـنا ببركاتـه.

6

تسـلل الظـلام سريعًـا كأنـه غيمـة ثقيلـة، ومـدّ معـه ظـلال الجبال التـي أغلقـت منافـذ الضـوء، فأضافـت عتمـة عـلى قعـر الـوادي، وهـو أمـر يدركـه راڤيـار بفطرتـه، ويعـرف أن الشـمس لمـا تـزل في الأفـق، غـير أن الجبـال المتطاولـة تحجبهـا، فتقـصّر مـن النهـار وقتًـا ليـس قليـلًا، لـذا حـثّ رفيقـه باللجـوء إلى مغـارة قريبـة تنـزل كثـيرًا في القعـر المظلـم، لكنـه بحساسـية القـروي الـذكي يعـرف مكانهـا، ويعـرف أن مـا تركـه فيهـا في المـرة الماضيـة سـيجده بـلا شـك.

تكدسـت الأغنـام في بـاب المغـارة، لكـن راڤيـار أضـاء المصبـاح اليـدوي، ودخـل قبلهـا متفحصًـا المـكان بهـدوء، وكان سربسـت مـع الأغنـام يلسـعه الـبرد النيسـاني الخفيـف، فيـما تلفـع قعـر الـوادي بظـلام حالـك حتـى انسـلت الأغنـام مـن بـاب المغـارة الضيـق، ودخـل وراءهـا سربسـت الـذي كان يشـعر بالتعـب بعدمـا انطفـأ النهـار في عينيـه.

22- إله الماشية والرعي

حشّ بعض النباتات الشوكية، وساعده الرجل بتجميعها أمام مدخل المغارة، ثم انسلّا إلى داخلها وهما يصففان النباتات ويكدسانها فوق بعضها، ويسحبانها إلى الداخل.

أخرج رافيار شمعة صغيرة من ثنايا سرواله العريض، وأشعلها في عمق الغار فاهتزت ظلالهما على الجدران الصخرية المجوفة، وتبددت العتمة قليلًا وتقابل الرجلان مستندين إلى حائط صخري بارد:

- سنقضي الليل هنا.

كما لو يريد أن يحيط الرجل علمًا، ويبدد عليه الوقت الطويل الذي عليهما أن يقضيانه معًا.

- كل مغارة لها قصة يا أخي.

قال ذلك وهو يتحسس طريقه إلى عمقٍ آخر مغمور بالظلام، لا يراه الرجل غير أنه سمعه يتمتم، وهو يغور بخطوات أبعد، كأنما المغارة مفتوحة إلى نفق طويل:

- كلها موجودة.

عاد وسحب الشمعة المثبتة في فجوة صغيرة من الحائط، فارتعشت الظلال بينهما وعليهما، ثم تراجع بضع خطوات، رآه الرجل يمد كامل يده في تجويف جانبي، ويسحب منه كيس جنفاص ملفوفًا، وجاء به مختلطًا مع ظلال المغارة غير المستقرة.

- من هذه المغارة حتى جبل سنجار سيكون الطريق وعرًا وغير آمن.

فهـم أن صديقـه لم يفهـم شـيئًا لكنـه قـال وهـو يفـل الكيـس الملفـوف:

- مـن هنـا إلى هنـاك طريـق وطـرق لم يسـلكه بـشر حتـى رعـاة الأغنـام، وقـد نكـون أمـام مفاجـآت لا تخطـر عـلى بـال.

فتـح إلكيـس عـن آخـره، وأدنى منـه ضـوء الشـمعة التـي كشـفت مسدسًـا صغـيرًا، وسـاطورًا متوسـط الطـول، وحربـة ملسـاء.

- لا بد للمرء أن يحتاط لكل الطوارئ والمفاجآت.

- معك حق.

- يقـال في الطـرق التـي سنسـلكها أن هنـاك ضباعًـا قاتلـة وأسـودًا ونمـورًا ودببة.

سأله الرجل:

- هل صادفتك مثل هذه الحيوانات يومًا ما؟

رفع المسدس وتأكد من خزان الرصاص فيه:

- لا.. سـوى الذئـاب البيضـاء والدببـة وحيوانـات لا أعرفهـا خاصـة في الليـل.

تساءل الرجل:

- وهل ستبقى معك هذه الأسلحة إلى شنگال؟

- سـأخبئها في مغـارة أخـرى نصلهـا بعـد يومـين، وحينـما نعـود مـع ابنتـك إن شـاء الـرب سـنأخذها وندفنهـا هنـا في هـذه المغـارة.

ثم أضاف:

- أعرف خطورة المسالك هنا.

وتابع حينما وجد صديقه صامتًا:

- كل الطرق التي يسلكها المهربون وطرق داعش ورباياهم ومخافرهم.

قال وهو يعيد تلميع الحربة والساطور بخرقة نظيفة أخرجها من جيبه الداخلي:

- من الصباح سندخل الخطر الجدي صديقي، لكن لا تقلق، أحمل أموالًا كثيرة ومعنا أغنام معقولة العدد.

نظر إليه وهو يبتسم:

- حتى كبسولات ومخدرات هههه

مرّ طيف ابتسامة على وجه الرجل، لم يلمحه راڤيار المنهمك بلف الكيس على أسلحته الصغيرة حينما تأكد من سلامتها.

- أظن أنك لم تجرّب أن تتحدث في جو مظلم!

أطفأ راڤيار المصباح فعمّ ظلام قوي داخل المغارة، وكانت رائحة الأصواف كبيرة حينما هدأت الأغنام واستكانت في مكانها محشورة إلى الداخل.

- كنت أخاف الظلام. لا شيء يخيفني أكثر منه، لكن هربي من النظام سابقًا ولجوئي إلى المغارات والكهوف مذعورًا من تلك السلطة؛ كيّفني إلى أن أواجه الظلام والعتمة والعزلة.

قال سربست كأنه يخاطب كائنًا غير مرئي:

- هناك الكثير مما لا أعرفه عنك راڤيار.

ضحك الآخر وقال:

- في الظلام قد تمر أمور كثيرة لا نشعر بها يا صديقي، وما لا تعرفه عني ستعرفه، لكن هذا أنا: كائن كنت أعيش في الظلام أجمل سنوات شبابي حتى أفقت على ظلام أكثر منه قسوةً ووحشية.

وأكمل بعد لحظة صمت:

- لا أستطيع مفارقة الجبل. صرت راعيًا أجوب القرى بين السفوح والقمم والوديان، حتى صارت هذه المصيبة التي أزهقت أرواحنا، وما حلّ بنسائنا وبناتنا.

تدخل سربست وتساءل بهدوء:

- لم تخبرني إن كنتَ متزوجًا أم لا..؟

عاد راڤيار يضحك من جديد:

- تعرف. ربما لا تصدق، إنني تزوجت أيضًا وأنجبت ثلاث صبيّات طيلة سنوات الحرب..!

- ههههه هل تزوجت دبّة؟

- ههههه نعم تزوجت دبّة بيضاء حلوة.

استغرق في الضحك طويلًا وهو يواصل:

-.. ولكن لهذا حكاية سأرويها لك حينما نعود بسلام وبركة خودا وشيخادي.

تساءل سربست مندهشًا:

- تتكلم بجدية؟

- نعم بجدية، لكن قبل هذا أخبرك إني تزوجت امرأة كنت

أعرفها سابقًا، وبعثت بمن يخطبها لي وتم الأمر بطريقة سرية، لم أنقطع عن الاتصال بأهلي ثماني سنوات.

عاد الآخر يتساءل:

- وأين زوجتك وصبيّاتك الثلاث الآن؟

- كبرنا كلنا يا أخي.. ما بقيت صبيّة عندي.. كلهن أصبحن أمهات ببركة خودا وطاووسي ملك.

- أقصد هل هم معك..؟ أين هنّ..؟

- هاجرن مع أزواجهن وأطفالهن إلى تركيا وألمانيا والنرويج. خلصن من هذا الوضع الكسيف. حتى زوجتي هاجرت مع بنتها الصغرى.

رانت لحظة صمت قطعها راڤيار وقد تغير مرحه قليلًا:

- الآن وحدي. كل الأسيرات هنّ بناتي. هذا دوري يا أخي. أنا ابن الجبل ولن أتخلى عن دوري، لذلك وجدت شغلة الراعي هي التي تقرّبني منهم، ومن شنگال ومن بناتنا المخطوفات. وأنت..

سكت قليلًا وكان يتكلم من بين كثافة الظلام:

- أنت.. ستدخل بمثابة راعي معي وسنوزع أغنامي بيننا. سنحقق هذا الأمر لأن الجماعة الدواعش صاروا جماعتي، بخاصة أولئك الذين على نقاط الحدود، لا تقلق، سأعرّفك عليهم، لا تنس أنك مسلم، راعي غنم آخر يشد من أزر راعي غنم، سنبحث عن ابنتك في كل مكان، سندفع المال والذهب والمخدرات حتى نجدها.

٣- مقشّر الجلود / مقطع عرضي

1

لم يكـن المنـادي هـذه المـرة المهاجـر الشيشـاني، ولا أبـو عُبيـدة الفلسـطيني ولا الحـاج أبـو هـلال، لكنـه أبـو فـرات العراقـي ذو اللحية الصفـراء المتراخيـة عـلى صـدره، بعدمـا وصلـت أخبـار مـن أن أبـا العينـين عـاوده المـرض، ولم يسـتطع حضـور هـذه الجمعـة المباركـة.

تمتـم نـور الديـن لنفسـه وهـو يحـاول أن يُبقـي ظهـره ملصقًـا عـلى حائـط فنـاء الجامـع في الصـف الأخـير بعـد خطبـة الجمعـة المملـة والمكـررة:

- سبحان الله مغير القلوب والنفوس.

لم يعـانِ نـور الديـن مـن تذكُّـر أبـو فـرات المسـلم، لكنـه بقـي يرسـم لـه صـورة اللحيـة الصفـراء التـي أخـبره بهـا رافيـار في الربيـع المـاضي، فالرجـل التحـى وخرجـت لـه أنيـاب جارحـة، وأظافـر حادّة يقـشّر بهـا جلـود السـنجاريين، كقائـد محـلي لـه خـبرة بالمـكان والنـاس. لذلـك لم يسـمع الكثـير مـن خطبـة القائـد الفـراقي، لكنـه عـرف أن وراءهـا عقوبـة لرجـل جُلـب مـن قريـة بعيـدة بتهمـة

التواطؤ مع البيشمركة، ونقل المعلومات إليهم، فكانت تهمة التجسس التي قضتْ بإعدامه سلخًا أمام العامّة، بعد صلاة الجمعة، ولن يقوم بهذا الفعل المثير غير هذا الأصفر الفراتي.

- سنصلبُ اليومَ خائنًا كرديًا أبى على نفسهِ إلا أنْ يكونَ جاسوسًا على دولةِ الخلافةِ الإسلامية. وكانَ ينقلُ معلوماتٍ إلى استخباراتِ البيشمركة الملحدين عن تحرُّكِ قواتِ مجاهدينا في سفوحِ الجبل، وكانَ قرارُ القاضي الشّرعي أن تكونَ عقوبتُه صارمةً واستثنائية، ليكونَ عِبْرةً لغيرِهِ ممَن تُسوّل لهُ نفسُهُ أنْ يخونَ اللهَ ورسولَهُ الأمين، ويصبح عنصرًا ضارًا؛ وذلك بسلخِ جلدِهِ سلخًا، وهو حيٌّ أمامَ العامّةِ وبمشاركتِهم بعدَ صلاةِ الجمعة.

فزّ نور الدين على صيحات جبارة اخترقت المكان بطريقة هستيرية: الله أكبر الله أكبر الله أكبر. فتحول الصدى إلى طنين ملأ رأسه، وهو يهتز منخلع القلب حتى اضطرب في مكانه كأنما بدأت حفلة العذاب والسلخ الإلهي المحموم.

وعندما أعاد الفراتي ذو اللحية الصفراء قرار القاضي، اهتزت القاعة ثانية بصيحات الله أكبر، فانتشر الصدى الحديدي من جديد في رأسه، واختضّ كثيرًا وحاول أن يتماسك كما لو زحف الجدار من ورائه وتحركت قاعة الصلاة باتجاه آخر، وشعر أن المصلين عبارة عن وحوش بشرية تنتظر إيعازات الجمعة بصبر لا يُحتَمل.

استغفر الله في سره، وهو يطرد الطنين العاصف من رأسه، كما تحاشى الرجلين المصطفّين إلى جانبيه من الشمال واليمين،

لكنـه أحـس بجسـديهما يرتعشـان وسـمع الرجـل الشـمالي يهمـس لنفسـه بالكرديـة: هـذا كفـر.. ويـن اللـه؟

2

لم يفهـم مـن الصـلاة شـيئًا كأنـه نـسي الآيـات القصـيرة التـي يسـتغرق فيهـا كثـيرًا، وكان نبضـه يطـرق في صـدره بقـوة، متخيـلًا شـكل الكـردي الـذي سيسـلخون جلـده كالدجاجـة، فاقشـعرّ بدنـه وجـفّ ريقـه، ونـسي مـاذا يقـول في صلاتـه، لكنـه اكتفـى بالسـلام عـلى الملَكـين كـما انتهـى الآخـرون إليـه، وبقـي سـمعه منفتحًـا، بعدمـا انفـضّ المصلـون ونهضـوا إلى الباحـة، فحمل جسـده متلمسًّـا طريقـه مثلهـم، بمسـاعدة رجـل قـاده إلى فضـاء الجامـع الـذي اكتنز باللغـط والثرثـرة والتشـفي بألسـن فصيحـة وبدويـة فجّـة، لكنـه خـرج مـن زحمـة الأجسـاد وأخـذ مكانـه المعتـاد عـلى دكّـةٍ في بـاب الجامـع، مجرجـرًا قدميـه، ومنصتًـا بحـواس اسـتثنائية لفجيعـة هـذه الجمعـة التـي ينتظرهـا الجميـع بفـرح كـما بـدا لـه.

3

أهـابَ رجـلٌ خـرج مـن بطـن القاعـة بالجميـع أن يتراجعـوا قليـلًا، وكان يهـشُّ بيديـه كأنـه يطـرد شـيئًا كريهًـا أمامـه. ثـم ناولـه أحـد شرطـة الجامـع منشـارًا مسـننًا، أطـول مـن المناشـير المعتـادة وكان سـطحه المعـدني يلمـع تحـت وهـج الشـمس، وأسـنانه باشـطة وصغـيرة لا توجـد بينهـا فراغـات ملموسـة، سـوى رؤوس ناعمـة

مدببة متتالية، وتجمع الأسنانَ كلَابتان مدببتا الرأسين، طويلتان كسهمين يشيران إلى قبضته الخشبية الضيقة.

تأمله أبو الفرات وفمه مفتوح بابتسامة غير معبّرة وعيناه محتقنتان ثم قال بصوتٍ غليظ:

- بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم والصلاة والسلام على سيّدنا محمد أشرفِ المرسلين.. أما الآن فقد جاءَ دوركم يا مجاهدي خلافتنا أنْ تقتصّوا من هذا الخائن بسلخِ جلدهِ حتّى الموت.. فليشارِكِ الجميعُ في الاقتصاصِ منْ عدو الله.

التفت إلى ورائه وصاح بصوت أغلظ:

- هاتوا المجرمَ الكافر.

سبقته خشبة طويلة تقاطعت عليها خشبة أخرى، يحملها ثلاثة أشخاص من الشباب المتحمسين فتشكل صليبٌ كبير، سبق أن رآه المصلون في عقوبات ماضية على أشخاص آخرين.

وبعد أن ثبّت الثلاثة قاعدة الصليب بين حجرٍ كبير أعدّ لهذه اللحظة، أدخلَ آخرون رجلًا مقيد اليدين إلى الوراء. على جسده قميص ممزق ويسحل أسفل قدميه شروال ظهرت عليه بقع دماء متوزعة، متورم الوجه، مفزوعًا، أصفر مثل البرتقالة الذابلة، عيناه تتخاطفان ولا تستقران كأنهما ستنقلعان من محجريهما. لكنهما توقفتا على المنشار المسنن حينما خطف بريقه على عينيه كمرآة تتحرك وتعكس الشمس.

جمدت عينا الرجل على المنشار بهلع وتوقفتا ببياضٍ غريب،

وأمكن بعد لحظةٍ مشاهدة خريطة مائية بللت سرواله المتدلي إلى أسفله، وما تزال عيناه ثابتتين على المنشار المعدني الذي يلوّح به أبو الفرات، لا سيما حين تقدم وشرخ القميص بلمح البصر وشقّه إلى نصفين، كذلك سرواله المبلل الذي انفلق عن جزأين تلقفه رجاله الذين يحيطون بالمصلوب، كما نزعوا نصفي قميصه، فبان جسد مرتعش بسروال أخير غطّى جزاه الأسفل.

4

تقدم أبو الفرات ووضع المنشار بشكل عرضي على صدر الرجل الذي بقي ذاهلًا بعينيه البيضاوين، وضغط عليه ضغطة كانت كافية لفتح جرح طويل، نزّ منه دم أسود وظل يسيل على صدره من دون أن تبدو من الكردي صرخة متوقعة، لكنه جفل فجأة مع صيحات الله أكبر التي اهتز لها المكان ثلاث مرات مخيفات، فتحركت عيناه وقد ازدادتا بياضًا؛ تتابعان الوجوه التي تبدلت سحناتها، واكتسبت طبيعة أخرى كانت كافية لأن تخنقه في اللحظة التي بدأ فيها أبو الفرات بمد سبّابتيه في الجرح الذي شرخ صدره بغرض تعميقه قليلًا، ومن ثم جر الجلد إلى الأسفل كمن ينزع عنه قميصًا اختفى تحت جلده، أو يشق بطن سمكة.

كانت صرخة الرجل الهائلة أجفلت نور الدين المتوتر، فزادت من توتره وهو يقف بلا إرادة منه، غير أن حركة الأقدام المتسارعة نبهته إلى أن الكردي المتهم بالخيانة والجاسوسية، قد ضاع صراخه وسط فوضى المتحمسين لتنفيذ هذه العقوبة المخيفة، لكنه لم يرَ تطاير الدماء بنثيثها أو غزارتها وجلد الرجل يتهدل أكثر، كما أنه لم يرَ المجموعة التي فتحت جلده من الخلف بسكاكين صغيرة وتعاونت على نزع جلده، ومن اليقين أنه لم يسمع صوت الجلد المنزوع كأنه بقبقة فقاعات صغيرة محصورة بين اسفنجة وخشبة.

٤- جبل الدبة

الآخر الذي فينا

تزاحمت الأغنام في مدخل المغارة مثيرة بعض الغبار الذي تكاثف على شكل غيمة خفيفة أخذت تنتشر بهدوء في الفضاء النيساني الساكن. سبقها رافيار إلى الدخول وهو يستعين بضوء مصباح صغير يحمله في جيبه، وبقي سربست مع آخر القطيع يهش على بعض الأغنام المنفردة لكي يُدخلها إلى المغارة التي يجهل عمقها. لكن روائح مختلطة من روح الكهف من الصوف والهواء الرطب تسارعت إلى أنفه وهو يدفع بآخر القطيع.

ثمة رائحة أشواك متعفنة داهمته، وهو يدخل فوهة المغارة غير أنه حاول أن يتفادى الرائحة بغلق أنفه باليشماغ عندما انحنى إلى الداخل.

- كيف عثرتَ على هذه المغارة هههه أنت شجاع فعلًا.

- هذه قمة الدبة وحولها حكايات وخرافات كثيرة.

انفتح الكهف المتداخل عن ضوءٍ مترجرج تسببت به شمعة غير مستقرة في شق صغير لمسها رافيار بقدّاحته، غير أنه أعادها إلى عمق الثقب وترك قامتها الرفيعة تبث ضوءًا ساكنًا.

فيـما أخـذت الأغنـام في عمـق المغـارة تهـدأ بعـد أن أطفـأ الراعـي المصبـاح الصغـير وأعـاده إلى جيبـه، فخيل للرجـل أن القطيـع ابتلعه نفـق طويـل لا قـرار لـه.

- أحيانا لا يحتاج المرء إلى نورٍ كثير ليرى الأشياء من حوله.

همهـم الرجـل وهـو يمـدّد سـاقيه بعـد أن خلـع حـذاء الجلـد السـميك عنـه.

- دائمًا نبالغ في البحث عن النور من أجل أن نرى كل شيء.

ظـل الرجـل صامتًـا وهـو يشـعر بالتعـب، لكنـه بقـي يتأمـل النـور الشـحيح، فوجـده يفيـض في مسـاحة الكهـف إلى حـد جيـد.

- ليـس مهـمًا أن نـرى كل شيء.. أحيانًـا لا نحتـاج أن نـرى الكثـير مـن الأمـور بيننـا.

جلس راڤيار يقابل الرجل الممدد أمامه:

- الحياة واسعة وكبيرة وعلينا أن نحدد ما يجب أن نراه.. تمام؟

هز الرجل رأسه صامتًا لكنه استدرك:

- صح. ربما في بعض الأحيان يكون النور هو الخديعة.

في الخـارج هبـط الظـلام بشـكل أخـير، وتدفقـت نسـائم بـاردة إلى المغـارة، وتقادمـت أصـوات غامضـة كثـيرة مـع أول الليـل.

- في سـنوات هـروبي مـن الإعـدام وجـدت الكثـير مـن الكهـوف والمغـارات والأنفـاق المنحوتـة في الجبـال.

قال راڤيار وهو يوضّح للرجل المستلقي أمامه:

- وعـثرت عـلى أشـياء ثمينـة في بعـض المـرات.. اعتقـد أنهـا ثمينـة

لكنها راحت للأسـف.

فتح الرجل عينيه فترقرق موج الشمعة الصغير فيهما:

- حثالات من الدواعش يسكنون بيتي.

قال بشكل مفاجئ وزفر نفسًا عميقًا واستطرد:

- كلـما أدخـل شـنگال تقـودني الأغنـام إلى بيتـي فأراهـم فيـه. يتبدلـون دائمـا لكـن بنفـس اللحـى والقـذارة.

قـال الرجـل الآخـر بصـوت منخفـض كـما لـو يخاطـب شـخصًا غـير راڤيـار:

- كيف حدث هذا...!

ذهـب راڤيـار إلى عمـق الكهـف وأنـزل كيسًـا معلقًـا وجـاء بـه إلى بقعـة الضـوء:

- نأكل شيئًا.

لكن الرجل أعاد تساؤله إلى شيء غير مرئي:

- لماذا حصل كل الذي حصل، ولماذا حدث كل شيء سريعًا..!

فتـح الكيـس وأخـرج مـن داخلـه خبـز السـوني المغمـس بالدبـس وتينًـا مجففًـا وشيشـة عسـل صغـيرة وحبـات خيـار وطماطـم وفصـوصَ زيتـون:

- الـذي حصـل مأسـاة يـا صديقـي ولكـنْ لهـذا تفسـير وقصـص محزنـة.

اعتدل الرجل حينما رفع نفسه بكسل ومدّ يده إلى قطعة خبز.

- في لحظة الخطر لم نتصرف نحن الأيزديين بشكل صحيح.

قال راڤيار وهو يلوك لقمة طعّمها بالعسل:

- كل إنسان هو واحد بمفرده.

ابتلـع اللقمـة الصغـيرة وكانـت المغـارة سـاكنة وصـوت حفيـف أشـجار مـن خارجهـا يُسـمع بوضـوح:

- لا يوجـد إنسـان وحـده في داخلـه يـا أخ.. دعنـي أتفلسـف قليـلًا فالليـل طويل.

- وماذا حدث..؟

- الـذي حـدث أن الإنسـان الآخـر فينـا انهـزم بفعـل الفـوضى والدعايـة والخيانـة والغـدر.

تقادمـت أصـوات ضعيفـة مـن الخـارج لطيـور ليليـة ليسـت بعيـدة عـن المغـارة:

- في لحظـة الخطـر كان يجـب أن يسـتيقظ الآخـر في داخـل الأيزيديـين ويتحـرك بسرعـة، والآخـر لا علاقـة لـه بنـا كأفـراد أو جماعـات. إنـه الآخـر الـذي يعـي فداحـة الخطـر وجسـامته.

لفّ الرجل قطعة خبز وغمسها بشيشة العسل:

- كان المفـروض أن لا نقمـع الشـخص الآخـر الـذي فينـا ونهـرب كالجـرذان. كان علينـا أن نـترك لـه الخيـار الأخـير.

تحركت بعض الأغنام فحرّكت رائحة الصوف الرطبة:

- لـو تحـرك فينـا الأشـخاص المخفيـون في لحظـة الخطـر لصـار الواحـد منّـا أكـثر مـن واحـد بمواجهـة الخطـر.

التقت نظراتهما على ضوء يتخافت قليلًا:

- في الحقيقـة أن الذيـن ماتـوا في دواخـل الأيزيديـين هم الأشـخاص

المخفيـون الشـجعان، وبقـي الجبنـاء الذيـن لم يتمرسـوا في الحيـاة وخديعتهـا، وداعـش تعـرف هـذا جيـدًا، لـذا اسـتثمرت الفرصـة الحرجـة وهاجمتنـا بـلا رحمـة حتـى لا ينهـض الآخـر فينـا.

شـعر سربسـت أن صديقـه الراعـي يتصبـب عرقًـا وهـو يلـوك بالكلـمات كـما لـو أنهـا تخـرج بصعوبـة منـه. فتسـاءل كأنـه أمـام حكيـم:

- والدين...!

- الديـن ضحيـة تاريخيـة. في الحـروب تضمحـل مثـل هـذه الأمـور أمـام المنهزمـين، بـل تتـلاشى ولا يفكـر الإنسـان إلا بخـلاص نفسـه.

وخزتـه العبـارة الأخـيرة فتحـرك مـن مكانـه، وزحـف إلى مدخـل المغـارة كأن بـه حاجـةً إلى الهـواء النقـي الـذي يطـوف عـلى الجبال.

شـعر راڤيـار باختنـاق صديقـه، ولـكي يقطـع عليـه أفـكارًا ورؤىً كثـيرة ويغلـق عليـه منافـذ الذكريـات الحرجـة قـال:

- أمامنـا مشـوار صعـب صديقـي وعلينـا ببعـض الوصايـا التـي تعلمناهـا يـوم كنـا هاربـين مـن النظـام السـابق.

تأمل صديقه الذي يتنفس بصعوبة كما لاح له:

- للمهربـين والهاربـين مـن القانـون إلى الجبـل حِكَـم ووصايـا علينـا أن نتبعهـا لنكسـب الوقـت ونقلـل مـن الجهـود.

انتبه سربست وهو يعيد النظر إليه كالتلميذ:

- لا تصعـد الجبـل باسـتقامة، إنمـا بميـلان دائـم، حتـى لا تشـعر أن المسـافة بعيـدة مهـما كانـت بعيـدة، وخـذ طريقـك مـع ممـرات

العشـب الزاحفـة والمتعرجـة حتـى لـو عـادت إلى مكانهـا فانهـا سـتقود قدميـك إلى الطريـق الأقـصر وتجنبـك رؤوس الصخـور المدببـة. يعنـي سـتجنبك الخـدوش والجـروح الصغـيرة.

طقطق راڤيار بيديه وأكمل:

- عندمـا تصعـد الجبـل لا تنظـر إلى أمامـك، بـل إلى قدميـك، ولكـن هـذا لا يمنـع مـن أن تتمتـع بالمناظـر الخلابـة، ورؤيـة المطر المتسـاقط حينـما تقـف، وتأخـذ صـور سـيلفي للذكـرى مـع الجبـل. هههه

ابتسم سربست وهو يصغي:

- لا تخـف حينـما يواجهـك ذئـب أو دب أو نمـر أو ضبـع، وتعامـل مـع المفاجـأة وكأنـك تتوقعهـا، فحزامـك لا يخلـو مـن السـلاح، ويـدك لا تخلـو مـن عصـا فـلا تهـرب مـن الضـواري بـل اذهـب إليهـا وعصـاك بيمينـك.

- هههه أنت شاطر صديقي المهرّب القديم.

واصل بحماسة:

- قـد يصادفـك لصـوص محترفـون، وقطـاع طـرق في الجبـل، وهـذا أمـر ليـس نـادرًا فـلا تكـن ضعيفًـا أو خائفًـا، بـل سـارع إلى اقتسـام مـا عنـدك معهـم وتمـنَّ لهـم السـلامة، فهـذا سـبيل النجـاة الوحيـد؛ ثـم كـنْ لصًـا وقاطـع طريـق حتـى تسـترد مـا خسرتـه وامـضِ إلى سـبيلك. ولكـن لا تقتـل.

صمت قليلًا كأنه يتذكر:

- أمـور كثـيرة يمكـن أن تحـدث أثنـاء السـفر، لكـن مـن الأفضـل أن تحتفـظ بسـن ذئـب فهـو يحميـك مـن شرورٍ كثـيرة.

نور الدين

كانت عصا نور الدين تطرق الرصيف بهدوء لتفادي المطبّات الكثيرة قبل أن يصل إلى المسجد الكبير، فذاكرته القديمة مشوشة تكاثر فيها الدخان والضباب والبارود، ولم يكن باستطاعته أن يتفادى مفرزة شرطة الحِسبة التي تقف في مدخل السوق كقدر يومي عليه أن يستوعبه، لكنه يستطيع مثل كل يوم أن يلقي التحية ويجامل البعض على مضض، ويمضي عابرًا الشارع بمساعدة أحدهم، أو من دون مساعدة، حيث يقابله المسجد بمنارته المثلومة التي نالتها القذائف ذات يوم صيفي لا تُنسى سخونته؛ مثلما باحته الخارجية التي ما يزال يتنفس فيها رائحة دم كثير، لا يستطيع أن يمحوها من ذاكرته، حينما يؤدي الصلاة أو يجلس على دكّة باب المسجد ويده ممدودة إلى الفراغ.

شمّ الكثير من هواء نيسان قبل أن تصل عصاه مع آخر حفرة، حينما يتحول الضباب في عينيه إلى أشباح لا تستقر كشاشة منمّشة فقدت لمعانها، فيعرف أن عناصر المفرزة يتواجدون ويرطنون بلغاتهم الكثيرة التي لا يفهم أكثرها سوى الكردية التي كان يتداولها في المدينة.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ككل صباح يلقي التحية، وتمضي عصاه تقوده بعد الحفرة الأخيرة لعبور الشارع، منشغلًا بأمور كثيرة يجد دائمًا أن كل شيء مات بداخله، وتحول إلى رجل أعمى يبحث عن الصدقات، ويتسقط أخبارًا متفرقة يأتيه بها عابرون، ومن بقي من القرويين، وبعض الأصحاب الذين صاروا مسلمين، يترددون على المسجد كل ظهيرة على مضض كما يحسب، وقد تأتيه أخبار من راقيار الذي يغيب كثيرًا لبضعة أشهر، ويعود بأغنامه مع الربيع يملأ المدينة الصغيرة برائحة الصوف الرطب، والبعرور، ولا يتكلم كثيرًا إلا بحذر حينما يزوره في خرابته التي تأويه، والتي يغيرها بين حينٍ وآخر، ويتخذ من البيوت السنجارية المهجورة أكثر من مأوى كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

لم ينتظر أحدًا يقوده لعبور الشارع الوحيد إلى المسجد، غير أن شرطيًا استماله لحظة بسؤال مفاجئ لم يعتده، وبلغة عربية فصيحة بانت فيها لكنة غير عراقية:

- يا نورَ الدين.. باللهِ عليكَ حدّثني عن حياتكَ السابقة بَينَ هؤلاءِ الكفّار؟

كان السوق فارغًا إلا من بعض المتسوقين، وعناصر شرطة الحِسبة، وثمة سيارة إسعاف يعلو صوتها كثيرًا وهي تقترب إلى مستشفى المدينة، كما لو شغلته عن سؤال الشرطي.

حاول نور الدين أن يصغي من جديد وعيناه ترمشان على

الفـراغ، ورأسـه مغطـى بيشـماغ مرقـط لكنـه قـال بصـوت متلجلـج:

- الحمد لله على كل حال.

عاد شرطي الحسبة يسأل بضجر:

- كيفَ قبِلتُم أنْ تَعيشوا بينَ الكفَّار كلَّ أعمارِكم؟

- هكذا قدّر القدر لنا أن نعيش في هذا المكان أبًا عن جد.

قال الشرطي بإلحاح:

- الذي يعيشُ في هذا الوَسطِ الكافرِ لنْ يكونَ أفْضَلَ منهُ.

استجمعت عينـا نـور الديـن الكثـير مـن الشـعاع، أراد أن يحـدد بـه مسـاحة الشرطـي اللجـوج الـذي يتحـدث معـه، فتخيلـه طويـلًا نسـبيًا بلحيـة منسـدلة، وسروال عريـض، ورائحـة غـير مسـتحبة.

قال بهدوء:

- اللـه سـبحانه وتعـالى يحاسـب عـلى النوايـا، ويعـرف مـا في القلـوب إنـه هـو الخبـير العليـم.

عاد الشرطي يسأل بمزيدٍ من الضجر:

- أتُعلَمُني حِكْمةَ اللهِ يا نور الدين؟

- نتعلم كلنا يا رجل، فأنا مسلم مثلك أتقي الله وأخافه.

عاد الشرطي بلهجة فيها تهكم وعنف:

- وماذا تظنّني يا أعْمى!

- العمى ليس عارًا.. إنه اختبار الله لعبده يا أخ.

وحينـما صمـت الشرطـي تمسـك نـور الديـن بالعصـا، وثبّـت يـده المرتعشـة متمتـمًا:

- استغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه.

همّ بالانصراف متحسسًا الرصيف بعصاه اليابسة، متلافيًا المزيد من الحديث مع شرطي الحسبة العجوز مجهول الجنسية بالنسبة له، فاستدار منتبهًا إلى حفيف الصمت الذي يملأ المكان بعدما سكت صوت سيارة الإسعاف.

لكن الشرطي تابعه بصوته الغليظ، كما لو يريد تبرير صمته الطويل:

- هذهِ خَواتيمُها لكُمْ يا مَن تُعاشرونَ الكفرةَ. عميانٌ وعرجانٌ ومقتولونَ وسبايا.. لعنكم الله.

خبّ الأعمى قدميه من دون حذر، وهو يعبر الشارع تسبقه عصاه وصوت الشرطي يتابعه مثل لعنة، محاولًا أن يوسّع من البصيص الضئيل الذي يسعفه في النهار، وهو يرى الحياة عبارة عن ضباب يتحرك بلا ملامح واضحة، لكنه يستطيع تخمين بعض الأشياء حينما يعيد الحياة إلى ما قبل سنة ونصف، قبل أن يصبح أعمى، وقبل أن يحترق نصف جسمه ذات ليلة كانت شديدة السخونة، فقد فيها كل شيء فخرج إلى سنجار لا يرى شيئًا سوى الضباب والدخان والظلام الكثير.

٥- جبل السباع

عجائز استحوذوا على الدين

الطريق الصاعد في الجبل متعرج بعرض قدمين، تقطعه صخور ونتوءات وبروزات شجرية قديمة وطين يتحرك مع مجرى المياه النازلة، مظلل بأشجار السرو المتصاعدة على السفح، وهي تتكاثف حتى تصير غابة معتمة كلما صعدت إلى أعلى، وبدت مغسولة بأمطار غزيرة ما تزال تنسكب بلا توقف منذ أكثر من ساعة، فيما كان **رافيار** المتقدم على رأس القطيع ينادي سربست:

- لا تجهد نفسك. تعرف طريقها إلى الكهف.

كانت شلالات صغيرة تتدفق في طريق الصعود، بخطوط متعرجة بين الأعشاب الخضراء المتكاثفة حول سيقان شجيرات الذئب الأخضر، وكان سربست يرى رأس صديقه قد دخل في الغيوم والمطر الذي اندلق كثيراً على رأس الجبل « **كيف عرفت كل هذه الطرق يا رجل!**» لكنه غالب تعبه حاثًا بعصاه بقايا الأغنام الصاعدة المتلكئة، محاولًا ألا ينزلق، بينما كانت ظلال الغيوم ورؤوس الجبال تتدفق بطريقة جلبت معها المساء المبكر، والكثير من أوراد ملكة الجبل الزرقاء الصغيرة التي

تهاوت مع السواقي الصغيرة التي زادت فيها كميات الأمطار.

دخل راڤيار بين الغيوم حتى كاد يضيع، ومعه القطيع الذي استقام على خط متعرج زلق صاعد إلى السماء، وبقي سربست يغالب ارتباك الصعود مع النعجة الأخيرة التي ظل يرفعها من إليتها ويدفعها دفعًا متطلعًا إلى الغيوم التي كان راڤيار يأكل قطعًا منها.

ازداد تدفق المطر كما ازداد التحام الغيوم، حتى شكلت طبقة رمادية كثيفة أسبغت على الفضاء عتمة مبكرة.

صاح راڤيار الذي خرج من بين الغيوم فيما كان القطيع يختفي في شق طولي غائر في خاصرة من خواصر الجبل:

- أسرع فالمغارة دافئة.

لحق به محاذرًا الانزلاق، حاملًا النعجة الأخيرة على صدره التي تلقفها منه راڤيار وألقاها بين القطيع المتزاحم في مدخل المغارة. فدخل سربست وراءها، وهو ينكث شعره الطويل، ويمسح لحيته الخشنة، شاعرًا بالجهد الذي بذله في مطر ظل يزداد تدفقًا على الجبل.

- كيف توصلت إلى هنا.. أين وجدت هذا المغارة؟

- لا تسأل مهرّبًا وهاربًا قديمًا عن هذا هههه، هذه قمة السباع التي يحكون عنها كثيرًا.

أكمل بطريقة بسيطة:

- يحكون في قديم الزمان أن هذا الجبل هو جبل السباع،

ومـن الصعـب اجتيـازه، وكثـير مـن المهربـين واللصـوص الذيـن مـروا مـن هنـا لم يعـودوا.. أكلتهـم السـباع.

تزاحمـت الأغنـام في نفـق داخـل إلى عمـق الجبـل، وبـدا لعينـي سربسـت أن هنـاك أنفاقًـا متعاقبـة تبعـا لطريقـة حـشر القطيـع في أكـثر مـن زاويـة، فيـما كانـت رائحـة مختلطـة مـن رطوبـة ونثـار أعشـاب ذابلـة، وأخـرى غامضـة، يتشـممها سربسـت كـما في كل غـارٍ أو كهـف يدخلـه في هـذه الرحلـة الغامضـة؛ وظـل صـوت المطـر المتسـاقط عـلى الأشـجار العاليـة يُسـمع بوضـوح، واصطفـاق الرعـد يهـز المـكان بوميـض مـترادف، ينـير بـين لحظـة وأخـرى شـيئًا مـن جـوف الغـار بطريقـة شـبحية اسـتطاع مـن خلالهـا سربسـت أن يحـدّد سـعة المـكان المتبقـي لهـما.

خـرج راڤيـار مـن الفوهـة المحشـورة بـين صخـور ناتئـة وجلـب أغصانًـا مقطوعـة ومبللـة، وضعهـا في مدخـل الغـار بعـد إن انحنـى ودخـل؛ كسـتار بسـيط يمنـع دخـول الحيوانـات الليليـة المتوقعـة الهاربـة مـن المطـر.

- هذا عرين قديم للسباع.

جلـس مقابـل صديقـه وهـو يضـع كيـس الطعـام عـلى الأرض بينهـما:

- الباقـي يومـان لنصـل إلى أولى نقـاط داعـش، وعلينـا أن نسـلك الطريـق إليهـم مبـاشرة مـن دون التفافـات، فقـد تصادفنـا كمائـن مفاجئـة، ولا نسـتطيع التـصرف بحكمـة.

- هذه الأمور تقع على عاتقك سيد راڤيار.

وقال بضعف أحسه من ضعف روحه المرتابة بكل شيء:

- أنا تحت أمرتك صديقي، لا يهمني غير ابنتي فهي خلاصي ونجاتي.

- سيهون كل شيء، بعظمة خودا سنجدها هذه المرة وستعود إلى لالِش بيضاء مثل ماء زمزم.

ران صمت قصير سُمع فيه عواء ذئاب بعيدة، وأصوات ليلة متنافرة، وحركة أغصان متوالية، وهبوب رياح تتخلل الأشجار فتصدر صريفًا متنوعًا كأنه نواح.

- أثق بك لأنك إنسان، لا لأنك أيزيدي مثلي، فالأيزيدية فكرة من أفكار كثيرة موجودة على الأرض.

التفت إليه راڤيار لكن سربست أكمل:

- حصل الكثير خلال الفترة الماضية، وربما سيحصل الأكثر ونحن في ضياع مطلق.

- التاريخ يعيد نفسه بطريقة أكثر بشاعة، أو لنقل بالبشاعة ذاتها، لكن بوسائل أكثر قسوة ووحشية.

- نحن ظلمنا أنفسنا كثيرًا صديقي، تاريخنا سري وغامض، ولا معنى له.

- لحاجات في نفوس رجال الدين حينما عمدوا إلى تجهيل أجيال كثيرة حتى يبقون في صدارة الدين.

- يبدو أن معظم الأديان تعاني من هذه المشكلة.

ـ لا سـيما حـين صـار الديـن وسـيلة مـن وسـائل السـلطة والسياسـة.

ـ التجهيل يضمن لهم البقاء والاستمرارية.

قضم راڤيار تفاحة صغيرة أخرجها من الكيس المتكوم أمامه:

ـ أظنك كنتَ يومًا في شنگال بعد الهزيمة.

ـ كنتُ..

ـ لكنك كنت مهزومًا أكثر من الذين فروا إلى الجبل.

ـ صح.. كنت هكذا.

ـ غياب ابنتك هزمك أكثر من مرة.

ـ وما زالت الهزيمة بي حتى أجد نشتُمان.

ـ إذا وجدت ابنتك هل ستنتصر؟

ـ لا.. أبقى مهزومًا للمرة 74

- تكررت الهزائم والتاريخ واحد لا يتغير كلما تقدم.

- وستعود.. لأننا لا نتعلم من التاريخ.

- وما الذي يجب أن نتعلمه؟

- الكثير والكثير والكثير.

- لكن الـ 74 غزواً لم تعلمنا شيئًا!

- لأننا لا نريد أن نتعلم.

- وهل ننتظر 74 غزواً آخر حتى نتعلم؟

- مشـكلتنا في السـلف الصالـح الـذي أغلـق عـلى الأجيـال منافـذ المعرفـة، فلـم تكـن له بصـيرة إلى المسـتقبل. كهنـة عجائز اسـتحوذوا

على الدين وخدعونا على مر التاريخ بضروراته السرية، ونَسَب الدم، ونحن أبناء قابيل، وأرواحنا تتناسخ، إلى آخر هذه الخرافات. لهذا كانت الغزوات بلا رحمة.

- معك حق.. كل شيء أصبح مكشوفًا في هذا العصر، وأولها الأديان.. الأديان صارت لعنة البشرية حينما تحولت إلى دفاتر سياسية وشعارات مذهبية وطائفية.

الراضوع / ٢

1

- هاتوا عائشة.

بـدا أمـير الأمـراء الشـيخ أبـو العينـين متذمـرًا، وظـل وجهـه الأصفـر النحيـف يـشي بمـرض غـير معـروف، يغالبـه الجفـاف في أكـثر الوقـت، وقـد قـلّ وزنـه كثـيرًا، فتفرقـت الصبايـا السـبع عـلى الفـور، وزرّرنَ قمصانهـن النظيفـة عـلى أثدائهـنّ الصغـيرة وهـنّ صامتـات، منعتقـات قليـلًا مـن وقـت العجـوز الـذي لم يكـف عـن رضاعتهـنّ منـذ سـاعتين بالتنـاوب.

يغفـو ويصحـو عـلى أثدائهـنّ الناعمـة، ويبلـع ريقـه، ويهـذي ويـردد الكثـير مـن الجمـل الطويلـة غـير المفهومـة حينـما يرفـع فمه مـن هـذا الثـدي أو ذاك، ثـم يعـود يرضـع كأنـه طفـل حتـى يغفـو عـلى ثـدي صبيـة، لم تجـد مفـرًا سـوى أن تبقـى مفتوحـة الصـدر، وإحـدى حلمتيهـا في فـم العجـوز المريـض الـذي لم يلمـح التقـزز في وجههـا، ولم يشـعر بتنمـل جسـدها البكـر وقشـعريرته الخائفـة، حتـى يطلـب أخـرى غيرهـا مـن الصبايـا السـبع المرابطـات قـرب

سريره على مضض، ليرضع بشراهة ثديها الناشئ، ثم يعاوده النعاس أو مفعول المرض الذي داهمه منذ أشهر قريبة. ثم يتكلم مع أشباح في السقف، ويبتسم ويهز رأسه موحيًا بأنه يتلقى كلامًا من ملائكة أو أشباح غير مرئيين، أو ما شابه ذلك.

2

خرجت الصبايا السبع بالتتابع، وأطلّت امرأة رشيقة منثورة الشعر كالغجرية. تصطحب الصغيرة التي أسموها عائشة، فبدت كأنها عشبة منزوعة من سنديانة أصغر منها. مترددة وعيناها الزرقاوان غارقتان بالدموع كما في كل يوم، عندها فتح العجوز عينيه متشممًا عطر الصبية التي اقتربت منه حذرة، ببيجامة وقميص شفاف بلا حمّالة صدر، كما درجت العادة في هذه الغرفة.

خرجت المرأة منثورة الشعر وأغلقت وراءها الباب، ولم تستطع عائشة أن تمنع دموعها من الانزلاق على خديها.

- ما زلتِ تبكين؟ ألم تخلص دموعك يا عائشة.. تعالي.

تقدمت الصبية مرتعشة كورقة، وهي تنظر إلى وحش ضامر، لم تستطع منذ أشهر أن تنظر إليه إلا بهذه الصورة، فتهتز روحها، وتندلق دموعها بغزارة، حتى وبختها إحدى الصبايا ذات ليلة: **سيقتلك هذا الوحش.. انتبهي لنفسك.. يتخيل نفسه نبيًا هذا المجنون.**

كانت تنظر إلى الكتلة البشرية بعينين من ضباب، وكانت الكتلة تبتسم بأسنان مبرومة صفراء فوق لحية مبعثرة كما لو أنها نبتت على جسد معزة، كما يمكن للصبية أن تتخيل ذلك في لحظة صدرها الذي فتحته المرافِقة منثورة الشعر في باب الغرفة العريضة، وهي تدفعها بمهل إلى سرير العجوز.

- تعالي.

كان النداء ضعيفًا كأنه خرج من عينين ميتتين، وحينما تقدمت الصبية الباكية كان الوجه الأصفر يناديها بالشهوة المعروفة، وهي تتعثر بخطواتها حتى صعدت السرير ونهدها الصغير يقرصها.

- ألم تشبعي من البكاء؟

كانت عيناها الزرقاوان ممتلئتين بالضباب الرطب، وهي تغرزهما في عينيه الضعيفتين، ويدها اليمنى تمسك ثديها الأيسر.

- ما سرك يا صبية؟

طقطقت بأصابعها النحيلة وأدامت النظر إليه بعين الاستعطاف المتكرر.

- أتألم.

خرجت الكلمة منها من دون أن تدري.

- وكيف تتألمين؟

تساءل بصوت ضعيف. ثم أشار بيده إلى صدرها.

- تعالي.. اقتربي.

زحفت على السرير مرتعشة وجسدها يختض، وبركت أمامه وهو نائم وما تزال يدها تمسك ثديها العاري من تحت قميص البيجامة. وكانت عيناه تتفرسان بزاوية القميص التي أغلقتها يدها الممدودة على الجهة اليسرى.

- تتحايلين دائمًا بالبكاء.

- أتألم يا شيخ.

أزاح يدها وفتح قميصها على وسعه، ومدّ ذراعه لتنام عليها بصورة مائلة.

- ما زلت متعطشًا لحليبكنّ يا بنات.

- ما عندي حليب يا أمير.

- أنتِ الوحيدة التي لا أشبع من ثديك يا عائشة.

- أنا لسه صغيرة يا أمير.

لمس ثديها الناعم وعصره بخفة:

- حليبُ العذارى شفاءٌ للمؤمنين يا عائشة.

- أنا ما عندي حليب، لسه صغيرة يا أمير.

- صار أكثر من سنة ونصف وأنتِ معي، تدرّين حليبكِ حتى شفيتُ في أوقات عصيبة.

أعادت اللازمة عليه:

- لكن ما عندي حليب يا أمير، صدري يؤلمني، تعبت.

- هذه وصفةٌ نبويةٌ جاءت من السماء.

نظـرت بعينـين اختلطـت زرقـة المـاء فيهـما، وهـو يتحـدث نائمًـا وذراعـه ممـدودة تحـت رأسـها.

- في الرؤيـا قـالَ لي سـيّدُ المُرسـلين رسـولنا المصطفـى الأمـين مُحمّـد عليـه أفضـل الصـلاة والسـلام؛ أن في حليـبِ العـذارى شـفاءً وغـذاءً ودواءً، وتكـررت الرؤيـا عـليّ أكـثر مـن مـرة.

نشـجت وحاولـت أن تضبـط ارتعاشـات جسـدها، ونهدهـا الصغير منقبـض بـين أصابعـه، ثـم مـال عليهـا وسـألها فجأة:

- أتحنّين إلى اسمكِ القديم؟

كانـت عيناهـا تبرقـان مـن تحـت الزرقـة المضببـة فيهـما، واسـمها القديـم يطـوف فجـأة أمامهـا كـما وردة تفتحـت للحظتهـا، لكنهـا وجـدت في عينيـه وميضًـا غريبًـا فأحنـت رأسـها عـلى ذراعـه تتفادى ذلـك الوميـض المرعـب الـذي تعرفـه.

- ارضع يا أمير.

أخرجت نهدها المرتعش من زيقها.

- خلصتـكِ مـن اسـمٍ نجـس، ومنحتـكِ اسـمَ أشرفِ النسـاء يـا بنـت.

ردت بقلق:

- ارضع يا أمير.

همس وعيناه تتوجهان صوب سقف الغرفة:

- عائشـة.. أحـبُّ الأسـماء إلى قلبـي، إنهـا رؤيـا تـراودني دائمًـا. أنـا عبدٌ صالحٌ ووليـكِ وسـيدكِ يـا بنـت.

حاولـت أن ترفـع مـن صدرهـا وتضـع حلمتهـا الناعمـة بـين شـفتيه، لكنـه كمـن كان يتحـدث مـع السـقف:

- سأكون يومًا نبيًّا، ويمشي العالم على حدّ سيفي وساطوري.

فزّت الصبية قليلًا، وبقيت منصتة وخائفة:

- عائشـة.. أيتهـا الوحـي الصغـير الجميـل، والملاك الأزرق الـذي يسـكن روحـي وقلبـي وجسـدي.

حاولـت أن ترفـع رأسـها لكـن الخـوف شـلّها، وبقيـت تنظـر إلى السـقف مثلـه:

- حليبـكِ طاهـرٌ وأنـتِ طاهـرةٌ في الدنيـا والآخِـرة. فيـكِ الشّـفاءُ ومنـكِ الـدواء وأنـتِ الغـذاء يـا بهجـةَ السّـكران في محبتـكِ والضالـعِ في عشـقكِ. أنـا نبيـكِ ووحيـكِ ومـلاككِ أيتهـا الغائبـةُ الحـاضرةُ في مسـاربِ روحـي والذائبـة في محبتـي. أنـتِ الليـلُ والنهـارُ والفجـرُ والضحـى والغـروبُ والـشروقُ والغسـقُ والشـفق، يـا بهجـةَ المبتهجـين عائشـتي الكبـيرة.

ران صمـت مريـب وخشـيت الصبية أن يسـمع العجـوز اختلاجات قلبهـا، ومـا يـزال نهدهـا عاريًـا لكنـه انكمـش كثـيرا، وانسـحب إلى داخـل ثوبهـا كفـأرة مذعـورة.

- عائشة.

كأنـه صـدى فخـم هـدر في الغرفـة الميتـة، يحمـل الاسـم في لغتـه فخامـة لا تدركهـا بسـهولة، لكنهـا تعـي غيبوبـة هـذا الكائـن المخيـف. حينـما يتجـلى ويتوهـم ويسـوّق نفسـه إلى كائنـات لا

تراها قبل أن يغفو ويشخر ويمصمص شفتيه ثم يستفيق فجأة:

- هل صليتي العشاءَ يا عائشة؟

فزّت وارتعدت مفاصلها فتلعثمت:

- لا.. طـ طـ. طلبتني وأنا أتوضأ.

قال وهو مغمض العينين:

- كوني عائشة، وتخلّصي من اسمكِ النجسِ القديم، عندها ساقبلُ صلاتكِ قبلَ أنْ أكونَ نبيًّا أيتها الأيزيدية الكافرة!

٦- جبل الخفافيش

كأنها رياح خضراء

هه قو تو بادشاهى	أيها الحق أنت الملك
خوداني مه هرو ماهى	أنت خالق الشمس والقمر
رهزاقي جن وئينسي	أنت رازق الإنس والجن
خودايى عاله ما قودسى	أنت رب العالم القدسي
خالقي جن وئينس	أنت خالق الجن والإنس
	«دعاء ما بعد الصلاة الأيزيدية»

- على بَركة خودا نخرج.

كان **رافيار** قد جمع محتويات الصرّة من العسل والتين المجفف والخبز وبعض العلب الصغيرة، وعلّقها على ظهره متلمسًا طريقه بعصاه إلى باب الكهف، وهو يردد الدعاء أكثر من مرة بهمس يسمعه صديقه.

أزاح الأغصان التي وضعها عائقًا في باب الكهف، فوجد الفجر رصاصيًا باردًا، وكفت الأمطار عن الهطول فبدا الجبل أخضر مغسولًا كله، وبصوت متكرر منه لم يستطع سربست، أن يفهمه

أو يستوعبه بالرغم من أنه يسمعه يوميًا، هبّت الأغنام من ممرات الكهف، وتدفقت من حلقه المفتوح إلى الخارج، عاملة فوضى ومثيرة رائحة صوف وغبارًا ناعمًا، وبقي سربست ينتظر خروج آخر نعجة، فتبع القطيع الذي سار بخط متعرج، وهو يهبط إلى الوادي تحت غلالة الفجر الوليد متأبطًا عصاه، وقد وضع قبعةً على رأسه وعيناه تمسحان المكان، حيث الشمس تبكّر وتنشر ضوءها الأول المتفرق بين القمم السوداء.

- يا خودا العظيم.

لا يعرف لماذا قال ذلك، لكنه بهاجس لا يعرف مصدره أكمل الدعاء مرتين في سريرته، وهبط محاذرًا الانزلاق في الممر العشبي المبلل الذي سلكته الأغنام في انحدارها السريع، بينما اختفى رافيار في مقدمة القطيع مع بقعة ضباب غمرته فيها مع أشجار السرو المصطفة على المنحدر الوعر.

كان الصباح مشمسًا ونثار غيوم مارّة على رؤوس الجبال فتمر ظلالها سريعة، وتنسحب معها، تاركة فيوض الشمس تطل على الجبال والسفوح والأودية العميقة التي يتبدد فيها ضباب شفاف، فيكشف عمق الوادي وعمق الانحدار فيه.

كان رافيار قد ارتدى فروة خروف أخذها من الغار، حال لون البياض فيها، وهو يتقدم القطيع، وبقي سربست خلفه شاعرًا برطوبة الغار ما تزال في جسده، وهو يهبط في ممر مبلل بأمطار البارحة، وكان يقطف أوراقًا صغيرة من شجيرات

متتالية ويأكلها، شاهرًا عصاه على النعاج المتخلفة؛ فيما بدت قامات السرو شاخصة عند المنحدر تتدرج بالتتابع. وعند النبع المنخفض في الوادي الأصفر تجمّع القطيع، وانتشر على قوس الماء الأزرق الضارب إلى الاخضرار بسبب أشجار البلوط التي تدور المطلّة والتي تنعكس ظلالها الطويلة عليه.

- سقية الصباح للأغنام.

قال راڤيار لصديقه:

- علينا أن نستفيد من النهار المشمس، وسنكون اليوم عند أول نقطة داعشية، لكننا لا نغامر في الدخول مساء. نبيت الليلة في مغارة الغزلان التي أعرفها، وغدًا صباحًا ستبدأ رحلة المتاعب الحقيقية.

- ثم عليّ أن أخفي المسدس والساطور حتى العودة.

صاح على الأغنام بصوت خليط غير مفهوم، وارتجل نداءً غامضًا فسار القطيع وراءه متعثرًا بين الصخور الناتئة، والأشجار المائلة، وبقي سربست في نهايته تعلو عصاه وتنخفض على الأغنام المتأخرة التي بقيت مرابطة على حافات النبع، وكان يرى خط الأغنام المنحدر كأنه سلسلة طويلة تتصاغر كلما هبطت مع المنحدرات السريعة والالتفافات المفاجئة.

سحب راڤيار من زيقه الشيراشال الطويل، وتفحص ثقوبه ثم وضعه في فمه وهو يتمهل بعدما اطمئن إلى سلامة القطيع النازل، فخرجت من بين شفتيه أشجان بطيئة أول الأمر، بدد بها

وحشـة المـكان، فـترددت أصداؤهـا خفيفـة كأنها ريـاح خـضراء، ثـم تصاعـدت بوتـيرة غريبـة حتـى أدركهـا سربسـت في آخـر القطيـع، وتمايـل مـع النغـم وأرهـف أذنيـه، وحـلّ شـجن عظيـم لم تشـوش عليـه حبّات المطـر ولا النسـائم البـاردة؛ هـو الشـجن غـير المسـتتر الـذي ضرب روح سربسـت فأدمـع عينيـه، فيـما تـرادف صـدى الشيراشـال بنوبـة عاليـة، وهـو يحـاكي أرواحًـا في نغـمات بقيـت تتدفـق كموجـات ضالّـة في بريـة خـضراء، تلقفتهـا الجبـال والسـهول والوديـان والأشـجار والأمطـار والقـرى المحشـورة في بطـون الصخـور، فتوحـدت صـورة «خـدر فقـير[23]» مـن دون صوتـه، بصـورة فيهـا مـن القسـوة والألم، مـا جعـل عينـي سربسـت تبتـلان هـو يتلقـف الصـدى الحزيـن في رأسـه وقلبـه وروحـه.

23- الأشهر بين المغنين الأيزيديين الراحلين . وهو من الذين حافظوا على التراث الأيزيدي المحلي، وما يزال العامّة يحفظون الكثير من أغانيه التي تتسم بطابع الحزن.

صلاة الأعمى

أنهيتُ صلاة الظهر بعجالة، وقد شوّشت عليّ أصوات متقاطعة، لم أفهم سر لغطها في الباحة، فانقدتُ وراء الأصوات المتداخلة مستعينًا أيضًا بضوء الشمس الذي يدلف من شبابيك الجامع.

درجتُ أخبط بعصاي منصتًا بحواس كاملة لمصدر اللغط، لا ينتابني القلق بقدر ما دفعني الفضول لمعرفة الفوضى الصغيرة التي جعلتني في عجالة من صلاتي بسبب عدم التركيز، فالأصوات الأخرى لا تجعلني ذا تركيز كامل وأنا أؤدي صلاة الظهر.

كان أكثر من عنصر في شلّة «ابن تيمية» يمسكون بخناق شاب يتوسل باللغة الكردية التي أفهمها، وكان بينهم أبو المعتز؛ عرفته من صوته؛ الذي لفّ ياقة قميص الشاب على عنقه؛ أعتقدُ ذلك؛ كمن يريد خنقه والشاب يعده بأنه لا يكرر فعلته بقص لحيته، وأن ما حدث لم يقصده. وكان يستنجد: **دخيل خودا.. دخيل محمّد..**

كان يبكي ويتوسل ولاشك أن وجهه كان مذعورًا بلونٍ أصفر؛ أو تخيلته هكذا؛ غير أن أكثر من عنصر من الشلّة القاسية كان يدفعه إلى داخل الجامع بالدفع والضرب والبصاق.

جلستُ على الدكّة في باب الجامع حتى هدأت الضجة التي أحدثتها بعض عناصر الشلّة، ويبدو أن الحلقة التي كانت تمسك بالشاب حليق اللحية انفضّت بعدما أدخلوه إلى إحدى غرف الجامع، وبقيت أستعيذ بالله وأتمتم بخفوت، وفي رأسي تتناوب صور كثيرة لعقوبات شهدتها على مدار سنتين في هذا المكان لأي سبب بسيط، غير أن هذه العناصر من شلّة ابن تيمية، وجماعات النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، لا يتهاونون في سبيل تطبيق شريعة الدين بقلوب حجرية، وطرق مبتكرة وغريبة وموجعة جدًا، لست قادرًا على أن أتذكرها فقد درّبتُ ذاكرتي على النسيان، وعينيّ على الخيال وعصاي على الهمس، فأنا رجل مكتظ بالتفاصيل الغنية التي لا أريد لأحد أن يطّلع عليها، ولا يهمني من أمري سوى أن أتزوج من جديد صبيّة سابعة أو ثامنة، إلى ما شاء الله أن يهبني من فضله وعطفه، لأكون بمستوى سنجاري التي ضيّعها هؤلاء ومسخوا أهلها، وأوهموا القلة المتبقية منهم بالسلام والأمان لمجرد إطالة اللحية ونكاح الصبايا.

يعود بعض أفراد شلة ابن تيمية يتخبطون، ويتضاحكون بلهجات رملية لا أستسيغها كثيرًا.

يناكدني أبو المعتز وظله يغطي وجهي:

- أمسكنا بواحدٍ من ربعكم زيّن لحيته.

بقيت صامتًا لكنني ابتسمت له ببلاهة فعاد يقول:

- تعرف يا نور الدين أن زَيَّان اللحية عقوبته الجلد.

- أعرف.

جلس إلى جواري وجلس عنصران آخران لم أتبينهما بعد.

- لا أدري لماذا لا تطبقون شريعة الله يا نور الدين.

- الحمد لله على كل حال يا أبا المعتز.. هذا شاب لا يعرف أصول الشريعة ويحتاج إلى تنبيه حتى يتعلم.

- يحتاج إلى كم جلدة حتى يجي على الطريق المستقيم.

قلت باستسلام:

- أنتم أعْرف مني بالشريعة وتطبيقاتها.

- العقوبة تختصر الطريق إلى الشريعة.

قلت بمرارة لم أظهرها كثيراً:

- لكن الشاب كان يستنجد بالله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم، وأقسم أنه لن يحلق لحيته بعد الآن.

على الفور رد أبو المعتز:

- هذا كاذب.. ثم أن الله سبحانه وتعالى خلقنا بعقل، وهذا الشاب بالغ، ولا يحتاج إلى توجيه، واستنجاده بالرسول الكريم لا يعني شيئًا!

كنت أحاول أن أقوده إلى ما في رأسي بطريقة سرية وغامضة:

- لنترك موضوع هذا الشاب يا أبا المعتز، ففي ذهني بعض التساؤلات ولم أجد أخْيرَ منك ومن الجماعة أن يوصلوني إلى بعض الحقائق.

- تفضل.

- الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، ألا يشفع له؟

- لا

جاءت الـ لا حازمة وفورية وصادمة لكنه استكمل بقناعة:

- لا فائدة للرسول المصطفى بعد أن يموت، هذا لأن التشفع به يؤدي إلى الشرك وهذا مفسدة صريحة.

- ولكنه رسول الأمة يا أبا المعتز.

- لا يُقبل استغفار الرسول للبشرية الضالّة، وأعطيك أمثلة لا بد وأنك تعرفها.

أصغيت بانتباه:

- أبو الرسول مات مشركًا، وأمه ماتت مشركة، وعمه وجده وأبوه كلهم ماتوا مشركين، لذلك لن تُقبل شفاعته لهم، وهذا ثابت يا نور الدين وقطعي ولا جدال فيه.

قلت بمكر حاولت إخفاءه بطريقتي معهم وأجاريه في الحديث:

- حقا هذا رسول الأمة العظيم، ولا يشفع لأهله فما بال هذا الشاب الأحمق؟

- هههههههههه

ضحك أبو المعتز، وضحك جماعته ونهضوا ينفضون عن ثيابهم التراب.

٧- جبل الصقور
شنكَال مسقط القلب

قاتي هه ر هه فت ده ركه هيت قودره تى كه ي
هه رجار كليليت مه عريفه تى كه ى
مـه بخـودان بكـه ى: زهـارى، زمـارى / ز تـارى، ز دوبشـتكى، ز دوزى، ز ده سـتى هـارا، ز غافـل،
خودا نكه ى: زكورى بوختان، ز هه فتيو
دوو ملله ت، زهرده هه زار خولياقه ت

بحق أبواب الغيب السبعة
ومفاتيح المعرفة الأربعة
أحمِنا: من المجنون، المتهور، الحيّة، الظلام، العقرب، اللص، ومن المغفلين
واحفظنا من: من الكذابين والعذال،
وأحمنا من اثنين وسبعين ملّةً وثمانية عشر ألف مخلوقًا
من دعاء نجمة الصبح الأيزيدي

1

قال لي صوت من داخلي أن نمكث الليلة على سفح الجبل، ونترك عبور السهل إلى الغد، فهذه قمة الصقور المطلة على شنكال، فامتثلتُ له بشعور صريح من أنني متعب فعلًا، بعد عناء الأيام الستة التي مضت في صعود ونزول الجبال، وعبور الوديان والمبيت في الكهوف والمغارات.. لم يبق إلا السهل الأخضر الواسع المشبّع بالأزاهير والأوراد وشقائق النعمان والروائح الطيبة في اليوم السابع، لذلك تبعت الصوت الذي يأتيني بين حين وآخر، وارتأيت أن نقضي الليل على السفح الأخير للجبل مع الأغنام، مع أن الوقت كان مبكرًا، حيث بدت الغيوم التي كللت الجبل تنحدر باتجاه الشرق، تاركة للسماء زرقتها الأليفة عصرًا.

بررتُ لصديقي المثقل بالتفكير:

- في السهل سنكون مكشوفين، لذا سنقضي الليلة على هذا السفح بين الأشجار والصخور، فالجو مريح، ونتناوب بحراسة الأغنام، وما تبقى هو المرصد التونسي لا غيره.

ولكي أطمئنه:

- هناك أصحاب فيه يعرفونني، بخاصة المجاهد التونسي أبو الخير.

ثم مِلتُ عليه وأنا أضحك:

- هذا جمّع أموالًا طائلة، ويريد أن يخلص بجلده، وعلينا أن نستغله.

ثم قلت لسربست:

- سنضع الفائض هنا في أي شق جبلي. الحربة والساطور والموبايلات. يجب أن نظهر أمامهم راعيين لا نملك شيئًا سوى هذا القطيع.

تركنا القطيع يتجمع عند حاضنة عشبية، فيها الكثير من الماء الطافح، كوّنتها أمطار الأيام الفائتة، وكان سربست يحدق في الأفق المفتوح بعد أن انتهت رحلة الجبال الدائرية إلى شرق سنجار، وبدا لي كأنه يشم رائحة المدينة الصغيرة، واحتراقها، ويستقطر وجه ابنته الغائبة في هذا التيه الداعشي المعقد.

جلسنا على صخرتين متقابلتين وأشرت له عبر السهل المترامي:

- هناك المرصد الأخير الذي لا بد وأن نمر منه، وكما ترى فالأرض مفتوحة، والآن ينظرون إلينا بنواظيرهم.

وأكمل:

- لا بد من المبيت.. أريدهم أن يروننا تمامًا، ويبلغوا أبا الخير التونسي.. الآن مجازفة اجتياز السهل من دون تصريح.

همس بصوت خائف أو متعب:

- نعم.. تلك هي قرى شنگال.

- كُنْ هادئًا.. لا تنسَ أنك كردي، وتؤمن بدولة الخلافة الإسلامية، أحفظ هذه اللازمة السخيفة، كما انك تؤمن بخلافة أبو عمر البغدادي خليفة للمسلمين.

- لعنه خودا في الدنيا والآخرة. سارق ابنتي.

- اش اششششش.. نحن راعيان على باب الرب، ولا علاقة لنا بالكرد والعرب ولا بأحزابهم وطوائفهم العفنة.

- هذه الخلافة العفنة. هذا الرعب الذي سرق ابنتي واغتصبها.

- علينا أن نحاذر من الألغام. في الصباح سيكون الأمر أكثر معقولية.

هزّ رأسه وعيناه تغرقان في الاخضرار القريب الذي يملأ المساحات أمامه.

- لن ندخل **شنگال** مباشرة.. علينا أن نجوب أطرافها.

صفرتُ للقطيع المتناثر نسبيًا ولوحت لها بالعصا وجمعته عند رابية وحاصرته بين شجيرات وصخور مرتفعة، ثم اتخذت واجهة جانبية أطلُّ من خلالها على السهل، وفي رأسي أكثر من فكرة، بينما بقي **سربست** في مكانه يراقب الجهة الشمالية، وكان المساء يتقدم ببطء حتى اسودّ السهل أمامي.

2

من نقطة التفتيش الأخيرة، أو الكمين الأخير قبل الدخول إلى **شنگال**، كدتُ أختنق وأنا أشم رائحة الحقول والبيوت والقرى المتباعدة ورائحة نشتُمان، وأتطلع إلى أشباح المدينة غير البعيدة، وكنت مستفزًا وحذرًا وخائفًا، فأنا أعوّل على شطارة راڤيار، وألمعيته وعلاقاته مع دواعش الحدود والجبل، وهو أمر لمسته فورًا من الكمين المتقدم الذي فاجأنا، يقوده

مقاتـل سـمين بعـض الـشيء، تتـدلى لحيتـه عـلى صـدره كثـيراً، وكان يمسـد عـلى ظهـر المريـاع الـذي وقـف أمامـه كأنـه يعرفـه.

قال لراڤيار من دون مقدمات:

- أُبلغنـا بصـدور أمـر إلقـاء القبـض عـلى شـخص أيزيـدي، وهـو أسـتاذ جامعـي اسـمه رشّـو، متهـم بحيـازة كتـب ممنوعـة وخطـيرة، كتـب الضلالـة والكفـر الشـيوعية والماركسـية والشـيعية وغيرهـا.

بقـي راڤيـار سـاكتًا، وجسـمه المربـع ثابتًـا، فيـما أكمـل الملتحـي السـمين:

- إن كنتما قد رأيتما مثل هذا الكائن الكافر في الجبل؟

راڤيـار أخـبر الشرطـي الـذي تسـلم منـه كيسًـا صغـيراً، لا أعـرف محتوياتـه مـن أنـه لم يسـمع بهـذا الاسـم مـن قبـل، وأن أسـتاذاً جامعيًـا سـنجاريًا بهـذا الوصـف والاسـم ربمـا هـو خـارج العـراق، أو أن المعلومـة تحتـاج إلى تفصيـل آخـر، لكـن الشرطـي الملتحـي قـال هـذه أوامـر وعلينـا متابعتهـا وأن الأسـتاذ الجامعـي يتخفـى ولا يسـتقر في مـكان معـين.

وقبل أن نلم القطيع المتناثر وننحدر إلى المدينة قال السمين:

- الواجـب الشرعـي يقتـضي منكـما أن تحـضرا إعـدام مكتبـة هـذا الكافـر في سـاحة الجامـع، بعـد صـلاة الجمعـة حتـى نجلبـه شـخصيًا، ونحرقـه هـو وشـيوعيته الكافـرة.

تعانـق راڤيـار مـع السـمين، ثـم صافحنـي، وشـدّ عـلى يـدي حتـى خلتـه سـيقطعها، لكننـي هرعـت إلى الأغنـام التـي تفرقـت مـع

العشب، وقلبي يخفق كما لو أنه سيخرج من صدري.

تلبَسني المكان والرائحة والمرأى الحزين لشنكالي المغتصبة. لكن رافيار قال بحزم وهو يدخل في رأسي بشكل مفاجئ:

- يا أخي عليك أن تكون طبيعيًا. للحزن وقت غير هذا، نحن في مهمة حساسة وأي خطأ أو شك سيحرقوننا في الجامع، انسَ ابنتك وشنكالك وذكرياتك وكن مثلهم إلى أجل قد يطول بنا، فلعلنا نجد مخرجًا ببركة خودا وطاووسي ملك.

تمتمتُ بشيء كالمخذول محاولًا أن أستعيد توازني، وأقلل من ارتباكي، وأنا أخطو إلى شنكال مسقط روحي وقلبي، ورأسي يتصدع مغمورًا بفيوض رؤى كثيرة هاجمتني فورًا حاولت حبسها فلم أستطع؛ فبكيت جالسًا تحت منخفض تظلله شجيرات صغيرة مزهرة، متسترًا أيضًا بوليد نعجة ظل هادئًا معي وهو يمسح وجهه في صدري.

3

ياره بي ئيك نه ما ل تاوى

ياره بي نه ز كه تيمه تاويمه، ت وده رمانى

هه م ت وده وايى، ت وده رمانى

هه م تو طه بيبى تو حه كيمى ته م دغه ريبين

ياره بي تو دزانى دهر دو ده رمانى مه ل كو دبي

يا رب أنا العليل المريض

أنت الدواء

أنت الداء والدواء أنتَ الطبيب، أنت الحكيم، ونحن الغرباء

يا رب. أنت العالِم بدائنا ودوائنا

من دعاء طاؤوس ملك / 12

بـدأ الصبـاح المبكـر هادئـًا وبـاردًا بروائـح بريـة مختلطـة، وكنـت أعــرف أن **سربســت** لم ينــم، فقــد ظــل في قلــق دائــم يجــوس الليــل منفــردًا، وقليــلًا مــا تحــدث معــي، فمدينتنــا عــلى مرمــى النظـر ونشـتُمان هنـاك؛ في مـكانٍ مـا مـن شـنگال ومعهـا كثـير مـن الأسـيرات، ومعـي أمـل جديـد أن أشـتري بعـض السـبايا بفـدىً جلبهـا لي بعـض الأهـالي لأهرّبهـنّ عـبر الجبـال والوديـان بمخاطـرات لا أدركهـا إلا عندمـا أخـرج مـن عنـق جنـود الخلافـة الدواعـش، عندهـا أحـصي كميـات المخاطـر، وحجـم المغامـرة، ونوبـات الخـوف والقلـق التـي تنتابنـي بشـكل مفاجـئ؛ وحينـما لملمنـا القطيـع، ووضعنـاه عـلى ممـر عشـبي متعـرج ومسـحوق، حـذّرت **سربسـت** مـن ألا يتيـح المجـال للأغنـام أن تتسـرب مـن السـهل عـبر الممـر؛ فالألغـام كثـيرة وعلينـا أن نكـون حذريـن إلى آخـر لحظـة.

- ولا تنـس أن تلـوِّح برايـة بيضـاء، أو أيـة قطعـة باللـون ذاتـه حينـما تـراني أرفـع رايتـي أعـلى مـن رأسي، فربمـا هنـاك شرطـة جـدد لا يعرفوننـا.

تلـك هـي الإشـارة إلى التونـسي، ومـن معـه مـن شرطـة حـدود من

جنسيات مختلفة في آخر نقطة لدخول المدينة، وهي أول نقطة للخروج منها. وكنت أدرك بالضبط أن نواظير المرصد تابعتنا منذ أن نزلنا الجبل، ودققت بوجودنا ليلًا عبر الكمائن السرية التي تجوب السهل بلا شك، وكنت أدرك أن أكثر من ناظور تابع الأغنام المتعثرة بين الصخور في هذا الوقت، وهي تهبط إلى الرابية وتتجمع عند بُركة صغيرة، أو ترعى بين الأعشاب قبل أن نقودها في ممر العشب المزدان بالورود الصغيرة الحمراء والبيضاء.

لم تبقَ الا الخطوة الأخيرة للدخول إلى أول قرى شنگال، عبر مرصد التونسي الذي أحمل له مبلغًا ضخمًا من الدولارات، كتحويل عملة عراقية وسورية أثقلت جيوبه بعدما وثق بي لأكثر من موقف؛ بالرغم من تباعد مجيئي راعيًا لأغنامي وعابرًا الحدود بأقل الخسائر كما أحمل في سريرتي رجاءه بأن يخلّص بعض الأسيرات، مثلما فعل مرتين بطريقة ناجحة لكن بفدية كبيرة، ولم يساورني القلق بأن لا أجده في احتمالات أن يكون قد غيّر مكانه لأسباب تخص سلامة تنظيمهم، والتحق بمرصد آخر، أو ذهب إلى جبهة قتالية في الموصل أو بعشيقة أو تلعفر، أو انيطت به مهمة استخبارية؛ فهؤلاء مثل الغجر الرحّل ينفذون الأوامر ويرقصون على النيران أينما يتواجدوا.

4

عـاد الربيـع بي مـن جديـد، وأنـا أخطـو بـين الروائـح، والمريـاع يجلجـل بأجـراس عنقـه الكبـيرة؛ وفي الوقـت المناسـب، ونحـن نقطـع شـوطًا مـن السـهل، لـوّح أبـو الخـير ببندقيتـه لنـا، فأخرجـت مـن حقيبتـي رايـة بيضـاء مدعوكـة، وشـككتها بغصـن، ورفعتهـا إلى الأعـلى، ومثـلي فعـل سربسـت في آخـر القطيـع وهـو يرفـع يـده عاليًـا مـن دون علامـة بيضـاء، وبقيـت رايتـي ويـده ترفرفـان عـلى رأسـينا علامـة سـلام أو استسـلام. لكننـي عرفـت تلويحـة أبي الخـير ببندقيتـه فهـدأ قلبـي كثـيرًا وأنـا أخطـو إليـه، مشـيرًا إلى سربسـت أن يبقـى في آخـر القطيـع، وأمـام هـذا الكائـن ذي الوجـه المحنّـط في ظاهـره أنزلـت الرايـة، فعانقنـي كصديـق حميـم.. الحمـد للـه عسـلامتك.. وكانـت لحيتـه توخـز صـدري ورائحتـه غـير مريحـة كـما في كل مـرة ألتقيـه.

ناديـت عـلى سربسـت وقدّمتـه إليـه، ومـا زال يرفـع رايتـه عـلى مسـتوى صـدره:

- هذا أخي.. راعٍ مثلي.

صافحـه أبـو الخـير بعينـين فيهـما لمعـة غريبـة إلى حـد مـا، أو هـي انعـكاس لقلقـي الـذي لا أسـتطيع كبحـه، فهـذه أول مـرة لسـت وحـدي أجـوب المـكان وأغامـر بالوصـول إليـه وأتشـاطر مـع البعـض لفـك الأسـيرات تحـت واجهـة بيـع الأغنـام في سـوق المدينة. ربـت عـلى كتفـي شـاب خليجـي تتـدلى لحيتـه السـوداء عـلى

صدره، لا أرتاح لوجوده هنا؛ فهو سخيف وساذج ويعتقد أن البشرية كلها كفر وإلحاد، وأنهم جاؤوا ليطهّروا الأرض من رجسنا؛ نحن الأيزيديين والكرد والعرب والمسلمين.

مرة قال لي:

- اشكر الله على أنك ما زلت تتنفس.

وككل مرة أتحاشاه بقدر المستطاع، لكنه وجدني هذا الصباح المبكر، وقال بطريقة هازئة:

- لسه اسمك راڤيار.. يا أخي سميتك طه.. كافي أسماء كافرة.

- أنا طه يا أخ.. حتى نسيت اسمي راڤيار من زمن بعيد.

- وإيش معنى راڤيار؟

- الصياد.

- وشنو تصيد هههههه

- هههه نصيد ما يرزقنا به الله سبحانه وتعالى.

- الحمد لله أنك ذكرت اسم الله ولم تقل خودا.

أعتقد أن ثمة منتسبًا جديدًا أضيف لهذه المجموعة، فهو ما يزال يطيل النظر بنا بعينيه الزرقاوين ووجهه المدوّر، حاولت ألا ارتبك مخمنًا أنه شيشاني أو منغولي، ولكي أتفادى أي موقف أخبرت سربست بأن يقود القطيع إلى السهل المفتوح، ويبتعد به لأنه جائع، غير أنني أمسكت بنعجة سمينة، وقدمتها لشرطيين كانا قريبين مني: هذه غداء لكم يا مجاهدين.

5

قادني التونسي المسلح ببندقية قصيرة إلى حفرة واسعة، معمولة بعناية كغرفة محمية بسقفٍ كونكريتي متين، ومجهزة بسرير وأغطية ومكتب صغير عليه تلفونات ميدانية كثيرة العدد.

أنزلت صرّتي المعلقة على كتفي، وفتحتها بهدوء وأخرجت من جيوبها الداخلية المتداخلة شدّة مالية خضراء مغلفة بكيس نايلون أسود:

- عشرة آلاف دولار وهي ما ساوت تقريبًا عملتك العراقية والسورية.. وأنا أكملت الحساب لتكون كاملة.

دفعها التونسي تحت المخدة القريبة وتساءل:

- اقتربت المعركة على ما يبدو. طائرات استطلاع أمريكية تجوب السماء ليل نهار.

- الأجواء تشير إلى معارك قريبة كما نسمع في دهوك وأربيل.

- لا أشعر بضرورة أي شيء. أنت صديقي المؤتمن ولا أقلق منك.

- لنا نفس الأحاسيس صديقي المجاهد.

- أريد أن أرجع إلى تونس. تعرف هنا لا يسمحون. الدخول إلى الحرب ليس كالخروج منها.

- أتفهمك.

كان وجهه لا يزال محنطًا:

- المعركة المقبلة ستكون ضخمة كما أتصور. خاصة وأن أمريكا

ستشترك فيها بكل ثقلها الحربي.

قلت بثقة:

- وجدت لك طريق العودة، وهو سالك بلا مراصد، ولا بيشمرگة ولا قوات عراقية.

تساءل بقلق:

- والطريق إلى تركيا؟

- سالك عبر دهوك.. اعتمد عليَّ ولا تقلق.. وسربست هو دليلك إلى آخر نقطة.

- تقصد هذا الرجل الذي معك؟

- نعم. إنه دليلك إلى تركيا.

ثم أضفت بحذر:

- إنه أحد أقربائي. ابنته أسيرة ويبحث عنها.

- أها.. أخبرتني مرةً عن هذا.

- صبية صغيرة ويتيمة.

ولتذكيره بكلام سابق قلت له:

- أنها أجمل صبية أسيرة.

حكّ رأسه، ودارت عيناه على جدران بيضاء عليها شعار الخلافة يتكرر لأكثر من مرة، فأعطى انطباعًا بسواد المكان.

- هذه مسألة صعبة وخطيرة يا صديقي الراعي.

- تقصد.. ربما تكون عند أحد المجاهدين الأمراء الكبار؟

- لعل هذا صحيح. لكنها ستكون في مأمن عند أي أمير ما

دامـت بهـذه الحـلاوة!

- ممكن ندفع فدية ونخلّصها؟

- هذا أمر لا أفتي به. صعب.

ثم أكمل:

- الرجـل غامـر وجـاء معـي. وهـو دليـل جيـد إلى تركيـا.. أحسـب هـذا الحسـاب يـا مجاهـد وهـو ابـن الجبـل والمـكان ثـم أنـه ابـن شـنگال وكان هنـا فـترة طويلـة، وأعلـن إسـلامه وشـهادته أن لا إلـه إلا اللـه ومحمـد رسـول اللـه.

ظل التونسي صامتًا فاستثمرت صمته:

- لديه مال وذهب فدية لابنته الأسيرة، وأنا الضامن له.

- دع الأمر بيننا وسأتحرى الموضوع بشكل خاص.

رفعـت يـدي إلى السـماء بطريقـة مسرحيـة مناسـبة، وكان قلبـي يـدق:

- يـا رب.. هـذا أمـل عظيـم أن تعـود البنـت اليتيمـة مـع والدهـا بصحبـة المجاهـد أبي الخـير.

الجزء الثاني

إعدام مكتبة / مقطع عرضي- ٤

1

لم يكن أمامي خيار غير أن أمضي إلى الجامع في جمعة الخطبة المملة التي تزيدني خوفًا وترهق أعصابي، بعدما تركني رافيار أتجول في السوق الوحيدة قبل ساعتين، ونأى بعيدًا عن المدينة بقطيعه، لكنه أخبرني أن نلتقي على أطرافها قريبًا من الجبل بعد الخطبة والصلاة ومعاينة العقوبات المتوقعة في يوم كهذا، وهمس لي؛ كما لو تذكّر شيئًا؛ بأن أتحاشى رجلًا أعمى يقتعد باب الجامع على مدار النهار، وأن لا أكون قريبًا منه بأية حالٍ من الأحوال.

لم أفهم كثيرًا هذا التحذير سوى أنه زرع بي القلق وفاقمه، وأنا أتخيل شكل الأعمى المفترض؛ فالدخول إلى شنگال لا خروج بعدها، وقد يكون الموت في أية لحظة من وشاية أو شك أو مراقبة أو خطأ أو التباس.

ربما انتبه رافيار إلى قلقي من هذا التحذير فوضّح لي:

- ذلك الأعمى لديه قدرة عجيبة على شم الغرباء.

ثم أضاف للتطمين:

- لكن لا تقلق، إنه رجل مسلم وبسيط يعيش على الصدقات وليس عدوانيًا.

كانت إشارته مواربة، لكنني كنت أثق به وكيف يفكر من أجل أن تمضي أيامنا بسلام بلا شكوك ومتاعب ومفاجآت. ومع هذا ترسخ تحذيره بي فصرتُ من لحظتي وكأنني أرى الجميع عميانًا وعليّ تجنبهم.

2

لم أصدق أنني هنا من جديد، وأعود ثانية بعد فراق سنة في هرب كان مضنيًا حينما تاهت بي السبل إلى **نشتُمان** بين **شنكال** والموصل، وضاع مشوار البحث المخيف عن صبيتي التي تلقفتها السراديب والسجون، حتى يبس عودي وجفَّت روحي، وضاع الأمل إلى آخر الشوط المضني الذي كنتُ فيه. لكنّ الراعي **رافيار**، المغامر بحق، والذي خرج إلى حياتي وأنا في مخيم الأسيرات الناجيات، أقنعني أن المغامرة جزءٌ مبهمٌ من الحل، وأنه يمكن خداع عدوك وأنت معه تسير ظلًا بظل، والحياة واسعة أكبر مما نتصور بمفاجآتها التي لا نحسب حسابًا لها، وخودا سيكون إلى جانبنا.

3

عندما أخبرته بأن خودا أرسلني قبل سنة إلى هنا، وبقيت أصارع

الحياة الصعبة مع هؤلاء، وشهدت فيها أحداثًا جسيمة، وعاشرتُ شخصياتٍ أيزيدية خرافية؛ قال هي الحياة صراع مرير وفضاء مخيف، ولكن علينا أن نواجهها بكل شيء يتيسر بما في ذلك الحيلة، وعندما حكيتُ له قصة حرق مجنون المدينة الوحيد عيدو في باحة الجامع قبل عام، وكيف وجدتُ القسوة التي لا نظير لها بحق البشر، قال أنه كان وقتها بين الجموع، ولكنني لا أعرفه، ورأى كيف أن صقرًا انتشله من الحريق، وطار به بمعجزة ربانية فاقت خيالاتهم، وفي ليلة كان فيها مطر نيسان غزيرًا، تذكرت بصوتٍ عالٍ المرأة الأيزيدية الحامل[24] التي ترفض الولادة بالرغم من بلوغ حملها شهرها الثالث عشر في ذلك الوقت، والتي اختفت فيما بعد، قال راڤيار أنه رأى صقرًا انتشلها ذات نهار، وأخرجها من شنگال ببطنها المنتفخة وكانت ترفض الولادة حتى عبرت المدينة الأسيرة ولا يعلم بعدها بشيء.

آلمني راڤيار في ليلة أخرى حينما ذكر لي مصير سالار[25] بائع الخضروات والفواكه الذي مات جميع أبنائه مجذومين في البئر الذي كان يخفيهم فيه، بعيدًا عن شرطة الحِسبة لسنتين متتاليتين، وآلمني ثانية وهو يعيد كل شيء جرى في المدينة:

- كنت أبيع الخضار أول الأمر وأجلبه من قرية **كوجو** إلى

24- هي أيضًا من شخصيات روايتي السابقة «عذراء سنجار».

25- سالار كذلك من شخصيات رواية «عذراء سنجار»

المدينة، وكنت أراك مهمومًا ومثقلًا، وحينما سألت عنك عرفت قصتك من سالار رحمه خودا.

- كيف لم أرك في ذلك الوقت؟

- كنت تراني ولم تكن تراني، كنتَ مشغولًا بالأمل وأنا كنت مشغولًا باليأس، لم ينتصر أحد في هذه المعركة، لكننا نحن الذين خسرنا، وعلى المهزوم أن يكتب هزيمته حتى لا ينهزم مرة ثانية، وليس المنتصر دائمًا على حق. هذا هو المنطق.

في نهارٍ مشمس من رحلتنا الطويلة كنا نتغدى في باب مغارة لم ندخلها، تساءل على نحو ليس له مناسبة:

- الشرطي دلشاد، أو عبد الله. أظنك لم تنسه بعد؟

- لا أعرف مصيره حتى الآن.

- شهدتُ واقعة حرقه في الجامع متهمًا بثبوت ازدواجيته بين الدولة الإسلامية وأيزيديته التي تخلى عنها خداعًا لهم.

- وزوجته؟ وأطفاله؟

وجدت ملامحه قد تبدلت وشعرت أنه كتم عني شيئًا:

- لنطوِ كل شيء مر فالماضي ينغص علينا الحاضر، والحاضر كما تراه قد حوّلنا إلى أنصاف بشر ومسخنا، وما بقي فينا هو جذوة صغيرة قد تعيننا على فعل شيء مناسب.

التفت لي ولم يستطع إخفاء ألمه:

- أولًا علينا تخليص الأسيرات بأي ثمن، وطريقة فهذا جزء من واجباتنا تجاه بناتنا ونسائنا.

4

كنت منغمرًا بشعور مزدوج من الخوف والقلق والرهبة، وبي شيء خافت من فرح لا استطيع إظهاره وأنا أخطو في المدينة، كأنني أولد مع كل خطوة بإحساس أنني سأجد نشتُمان في الخطوة التالية، فشنگال ليست كبيرة، وقراها المتباعدة بحجم قبضة اليد، أحفظها عن ظهر قلبي أنا المدرِّس القديم هنا وهناك.

كنتُ أقترب من روحٍ نقية فارقتها سنة كاملة، فتلبسني المكان من جديد كأنني لم أفارقه أبدًا، وتلبستني أطياف ابنتي الوحيدة، كأنها تناديني الآن.. بابو.. تكي..

قلبي يقرأ المدينة ويقلِّب صفحاتها، ويتتبع رائحة صغيرتي المنتشرة في شنگال كما لو سألمسها بعد قليل، بعد لحظات، بعد أقل من ساعة، لن يطول الوقت عليّ حتى أعثر عليها. فهذا وجهها الطفولي يشع في كل مكان، وتلك زرقة عينيها تفرش دربي أمامها كمياه الخلجان الصافية.

5

لازمني الخوف وكنت تعبًا ومرهقًا وحزينًا، وأنا أتوجه إلى الجامع حريصًا على أن أبدو متماسكًا، ومتحاشيًا الاقتراب من الأعمى الذي لا أعرفه، غير أنني فوجئت بأكوامٍ من الكتب مرمية ومبعثرة في باحة الجامع؛ عشرات ومئات مكوّمة على

بعضها بطريقة عشوائية، وتناثر الكثير منها بين أقدام الداخلين إلى الجامع الذين كانوا ينظرون إليها بكراهية، ويتجنبونها كأن في داخلها جراثيم مخفية.

لم أجد الأعمى وأنا أدخل مضطربًا؛ كنت مشغولًا بأن أراه ولو من بعيد؛ لكنني صرفت الفكرة مراقبًا تل الكتب المتكومة والمتناثرة التي يدوس الداخلون عليها بلا تحفظ، وأمكنني ملاحظة مجلدات ضخمة، تباعدت وانفرطت أوراقها وأغلفة كتب معروفة تمزق معظمها من كتب دينية، وروايات، وقصص، وقصائد، وفلسفة، وسياسة، تداخلت مع بعضها بطريقة فوضوية.

قرأت بعض العناوين المقلوبة والمخلوعة، وأنا أتخذ مكانًا قريبًا منها: رأس المال لكارل ماركس، البيان الشيوعي، جيفارا، مبادئ الشيوعية، المجموعة الكاملة لمحمود درويش، ماو تسي تونغ، ألفية ابن مالك، تولستوي، دوستويفسكي، كراسات لينين الحمراء، بلابوش دنيا، مجلات الأقلام والآداب والكرمل، الأيزيدية لصديق الدملوجي.

أسماء وكتب لم تكن غريبة عليَّ ومجلدات كاملة بأجزائها المتسلسلة: ألف ليلة وليلة طبعة بولاق، سيرة عنترة بن شداد، الظاهر بيبرس، طه حسين، الفكر الشيعي، مجلدات بحار الأنوار، محمود العقاد، نجيب محفوظ، علي الوردي، نهج البلاغة، البؤساء بأجزائها القديمة.

وكانت ذاكرتي تمضي إلى الموصل في الحياة الجامعية، وبغداد أحيانًا حين كنا نزورها في مواسم مختلفة، ونلتقي بأصحابنا يوم كانت الحياة سهلة وجميلة وبسيطة، وبين هذا الزحام من الكتب الضخمة، خطر في بالي الأعمى الغامض في رأسي، فخرجت من الجامع متطلعًا كما لو أني أتنفس الهواء، لكنني لم أجد أعمى متسولًا، بل كأنني أرى الجميع عميانًا يتخاطرون في الباحة، بين الكتب المرمية بفوضى، فعدت أدراجي حينما نودي على الجميع أن الأمير **أبا العينين** سيلقي خطبة الجمعة بعد تماثله للشفاء، فتزاحمنا بالجلوس في صحن الجامع، وتناثرت معظم الكتب والأوراق الملقاة بين الأقدام والأغلفة الممزقة.

ومع أن الخطبة مملة ومكررة ومتشابهة، كما كنتُ أسمعها سابقًا، إلا أن العقوبة كانت غريبة إلى حد ما، وهذه أول مرة يعلن فيها **أبو العينين** عن إعدام مكتبة للكافر الجامعي **رشّو**، وحفّز الحاضرين على ضرورة البحث عن الرجل، وإلقاء القبض عليه، كما وعد بمكافأة شخصية منه، وهي منحه أسيرة صبية في حال القبض على هذا الضال، الملحد، الشيوعي، الكافر، الزنديق، المتمرد، الأيزيدي النجس، كما كان يكرر ويعضُّ على الكلمات عضًّا، مثلما بشّر المؤمنين في كل مكان من منبره العالي، بأن القاضي الشرعي لولاية الجزيرة أعطى فتوى بإعدام مكتبة الأستاذ رشّو حرقًا حتى تصبح رمادًا، ولم ينسَ أن يهيب بالجالسين من عناصره ومن الأيزيديين القليلين المتواجدين

كأسرى دخلوا الإسلام مرغمين، بأن يحرروا كتب الضلالة والكفر بتسليمها إلى شرطة الحِسبة لحرقها فورًا.

6

كنت استعيد بذاكرتي وجوه رجال شنگال المتعلمين القليلين، فخمّنت أن الرجل يقيم خارج العراق، وهذه مكتبته القديمة، أو أن هناك اسمًا مستعارًا لشخصية أجهلها لكنْ لا، يوجد لغزٌ كبير في الموضوع، فكان هذا الحرق الرمزي الذي نادى به الأمير الشرس مشهدًا عجيبًا وغريبًا ومؤلمًا، ذكّرني بحرق مجنون المدينة عيدو قبل سنة، وفي المكان ذاته، حينما تناوب عناصر شرطة الحِسبة بصب جِرار الزيت والبنزين على جبل الكتب العملاقة، حريصين على أن يتسلل إلى قعر الكتب المتراكمة، ففاحت رائحة البنزين التي اختلطت برائحة الزيت والأوراق والأغلفة والأحبار القديمة، قبل أن يتقدم أبو العينين بهزاله الشديد ووجهه الأصفر الممصوص، ويوقد النيران من مشعلٍ يحمله في هذا الجبل الورقي المرتفع كثيرًا؛ فتعالى اللهب واستعرت النيران بطريقة سريعة، وتطاير دخان زيتي جعلنا نبتعد خطوات إلى الوراء متفرقين، وكانت فرصة للبعض أن يخرج من باحة الجامع، غير أنني لم أكتفِ بمعاينة أن أول ما احترق في قمة الجبل الورقي هو كتاب الأيام لطه حسين، تبعته روايات دوستويفسكي وأنا كارنينا وجيفارا والجبل السحري ومجلدات مبعثرة لكتاب الأغاني وألف

ليلـة وليلـة ولمحـات اجتماعيـة مـن تاريـخ العـراق والشـاهنامة وكتـب كرديـة وفارسـية وتركيـة.

صـار جبـل النـار أعـلى مـن جبـل الكتـب، وتطايـر شرار بحجـم كبـير عـلى شـكل كـرات ظـل يتلـوى في سـماء الجامـع؛ فذابـت روح تولسـتوي مـع ابـن المقفـع معًـا، وتـضرج وجـه ميكافيـلي بالنـار لكنـه لم يصمـد أمـام هيجـان اللهـب، فتحجـرت دموعـه ثـم طواهـا رمـاد أوفيـد، واحـترق فـن الهـوى قبـل أن يلتهـم روح شكسـبير، لتمتـد النـار إلى ابـن عـربي وتحـترق عمامتـه البيضـاء التـي تشـظّت إلى جيفـارا، ومـن ثـم التهمـت ديـن زرادشـت وبقايـا لينـين في كراسـاته الحمـراء الصغـيرة، التـي ذابـت كقطـع الشـوكولاتة عـلى صـدر الحـلاج مقطـوع الكفـين والسـاقين، قريبًـا مـن مجلـدات مجلـة الهـلال المصريـة.

7

بقـي أبـو العينـين النحيـف كالخيـارة صافنًـا عـلى أقـواس وألسـنة النـيران التـي أخـذت تحفـر في الجبـل الورقـي، وتذيبـه بالتدريـج، الأمر الـذي اضطرّنـا أن نبتعـد أكـثر مـن لهيـب النـيران التي بـدا أن لهـا صوتًا مخيفًـا، يتفرقـع وينفجـر وينـشر كـرات الـشرار في كل اتجـاه ومـكان.

لم أفـق مـن صدمـة هـذا الحريـق، وبالرغـم مـن اللغـط والهمـس الـذي أخـذ يُسـمع وتكـرار «اللـه أكـبر» مـن البعـض كأنهـم في يـوم القيامـة، وقـد نجـوا مـن نارهـا، كنـت أعيـد ذكـرى حـرق مجنـون

المدينة عيدو يوم كنتُ داخلًا إلى شنكال بوحي إلهي، وكيف انتشله صقر عابر من جمر القيامة التي أوقدوها عليه، بعد أن قتل مسؤول الحِسبة بعصاه التي ورثتُها من الشرطي دلشاد.

8

في باب الجامع تيقنت الآن من وجود المتسول الأعمى، الذي قاده رجل وهو يسعل وأجلسه على دكّةٍ حجرية، تتيح للداخلين والخارجين رؤيته وكان يهشُّ الدخان الذي تطاول كثيرًا خارج الباحة.

همس رجل - كأنني أعرفه- لآخر مستغلًا فوضى النيران الملتهبة: «رشّو أستاذ معروف كان في جامعة بغداد يدرّس الاقتصاد الاشتراكي، وهو من مدرسة الاتحاد السوفيتي السابق، وعاد شيوعيًا منها فطاردته سلطات البعث، وحجزته أكثر من مرة لكنه تمكن من الهرب عبر كردستان، وعاد إلى الاتحاد السوفيتي ولم نسمع عنه أخبارًا إلا اليوم. واعتقد هذه مكتبته عثروا عليها في بيته والتي تركها منذ زمنٍ بعيد»

كان جبل الكتب قد هوى، وظل دخان أسود يتكاثف بعمود غليظ، ويتجه إلى الأعلى فخرج الكثيرون بعد هذه الواقعة ينفضون عنهم الغبار والرماد.

ابتعدت قليلًا وأنا أديم النظر إلى الأعمى الجالس الذي كفّ عن السعال وهدأ.

لمحات الشيطان المغامر

في سوق الغنم لم يكن هناك سوق أو غنم، بل حظيرة متروكة يبس القش والبرسيم والبعرور في كل مكان فيها، وبقيتْ رائحة الصوف القديمة والروث عالقة مع الهواء المحيط لها، ورُقاقات دم ملتصقة سوداء أشبه بقشور الخنافس على شواخص خشبية قصيرة متآكلة ومدفونة كانت تُستعمَل لتثبيت الذبائح وسلخها.

أوصاني راڤيار أن أكون هادئًا في المكان مثل أية نعجة هنا:

- لا تُستفَز من اي أحد. بِعْ باي سعر. لم نأتِ هنا للأرباح كما تعرف. سيمر عليك شرطة الحِسبة ومجاهدون عاديون، وشخصيات شنگالية قد تعرف بعضها، فكن طبيعيًا ولا تفكر بأن هذا أو ذاك خائن وضع يده بيد جنود الخلافة. فالخيانة ظرفية ومفتوحة في المدينة. بل هي تقية المغلوب على الغالب.

لم أقل شيئًا.

كنت أنظر إلى صراحة راڤيار، وهمّته في صباح جمعنا في ساحة صغيرة، كانت سوقًا لبيع الغنم كما أتذكر، ولم يكن الجو غريبًا علي، نفس الخراب ونفس البؤس ونفس المدينة المنطوية على جحيمها الشخصي، كما لو لم تكن مدينة من قبل، بل قرية

مهجـورة لا يطرقهـا سـوى مسـافرين عابريـن.

- سـآخذ بعـض النعـاج وأسرح بهـا بـين البيـوت والبقيـة تبقـى معـك هنـا حتـى العـصر. المريـاع سـيكون معـي. جرسـه يلفـت الانتبـاه. اعتـادوا عليـه.

كنـتُ أقـرأ في عينيـه لمحـات شـيطانية لمغامـر صعـب المـراس، تثير بي طيفًـا صغـيرًا مـن أمـل مقتـول، وكان لا يخفـي تلـك اللمحـات الغامضـة كثـيرًا حينـما يكلمنـي، ففـي عينيـه وميـض كـدتُ أتفهمـه تقريبًـا منـذ رحلتنـا الجبليـة الصعبـة.

- النهـار طويـل، وسـأمرّ عـلى الكثـير مـن البيـوت. لـدي عناويـن وأسـماء. لعـل خـودا يسـاعدني.

تسـارعت أصـوات الجـرس للمريـاع ذي القرنـين المعقوفـين، وتبعتـه النعـاج الملطخـة بالأعشـاب والأطيـان، وتـراءى لي وهـو يلـوّح بعصـاه إلى القطيـع الصغـير ويبتعـد بالتدريـج، كأنـه إلـهٌ صغـير سـينشر الفضيلـة هنـا وهنـاك ويعـود جائعًـا.

الروح الميتة في كل مكان

1

حمل القطيع وراءه غيمةً من الغبار الرطب، يتقدمه الراعي المثقل بأحماله الكثيرة، وعيناه تتخاطفان بين المارّة، وفي جعبته الكثير من الوقت والأمل، كما في كل مرة يعتزم فيها المغامرة، وجرس المرياع لا يكف عن الرنين المعلق برقبته.

يلقي التحيات بين لحظة وأخرى على رجال قليلين، سحناتهم لا تبعث على الأمان، وعلى شرطة ملتحين راجلين يتفقدون الشوارع والأزقة بملل، يرطنون بلغات مختلطة ليس مهمًا أن يفهمها كما يقول لنفسه، فيدلف بين الأزقة من دون أن يتوقف كما لو يمشي بخريطة في رأسه منقادًا، وراء ترددات الجرس.

يتبعه في أوقات متفاوتة بعض الصبيان، وهم يرونه مثقلًا بثيابه وإكسسواراته وشعره النازل على كتفيه، فيلاطفهم بود، أو يسألهم عن أسمائهم، ليكوّن صورة بسيطة عن هذا الزقاق أو ذاك، وعن نوع الأسر الغريبة التي اجتاحت المدينة منذ سنتين، وسكنت بعض البيوت المهجورة؛ وفي أحيانٍ كثيرة لا يفهم لغات

الصبيـان، لكنـه يفهـم مرجعيـات سراويلهـم وبيجاماتهـم المنفوخـة ولفافـات رؤوسـهم المتكـورة عليهـا، ومـن يشـاميغهم البيـض ودشاديشـهم القصـيرة. ثـم يمـضي متحسّسًـا الـروح الميتـة في كل مـكان، فيرى المـوت فيـه أكـثر مـن السـابق الـذي تركـه قبـل أشـهر قليلـة، وهـو يجـوب في أمكنتـه القديمـة، ويـرى الأشـجار ذابلـة أو مقصوصـة في حدائـق البيـوت. حتـى الأرض يابسـة كـما لـو مـرت عليهـا حرائـق جففتهـا عـبر الفصـول.

2

الشـارع العـام أكـثر حركـة بسـيارات عسـكرية متناوبـة، ونـاس يتخاطفـون ويرطنـون كأنهـم مـن أجنـاسٍ أخـرى، وفـدوا إلى المدينة، وغيرهـم يعـرف ملامحهـم ولغاتهـم وأزياءهـم فيتحاشـاهم بخفّـة. لكنـه بقـي يتوجـس مـن الجميـع، حتـى عندمـا خـرج رجـلٌ مـن دار تشـقق حائطهـا الخارجـي ونـادى عليـه.

كان يرتـدي سروالًا عريضًـا، ويشـد رأسـه بعمامـة صغـيرة، كأنمـا لا تريـد أن تثبـت عـلى رأسـه بسـبب عرضهـا، يقـود طفـلًا صغـيرًا شـاحبًا كثـير السـعال:

- السلام عليكم يا أخ..

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أطـال النظـر بالقطيـع الصغـير، وتحسـس أكـثر مـن نعجـة مـن إليتهـا، حتـى توقـف عنـد واحـدة بيضـاء يخالطهـا سـوادٌ داكـن:

- كم سعر هذه النعجة يا أخ؟

- كما تريد. استفتاح الصباح لا سعر له.

- بما يرضي الله.. كم تريد لهذه النعجة؟

- لنقل خمسين ألف دينار.

- كثير.

- ننقصها خمسة آلاف لهذا الصغير الحلو.

أعاد ذو السروال العريض تحسس إلية النعجة، كما لو يبحث عن شيء هناك:

- ليكن السعر بالنصف.. أعتقد سعر مناسب.

- هذا قليل يا أخي.

قال الرجل كأنه يستعطف راڤيار:

- أحتاجها لأمر ما ولا أملك إلا المال الكافي.

رد راڤيار بارتياح:

- ولا يهمك.. استفتاح خير إن شاء الله.

أخرج الرجل ماله وبدأ يعدّه، فيما كان راڤيار ينظر إلى وجهه المنحني لعدّ النقود فسأله:

- أنت أيزيدي؟

بهت الرجل وارتبكت أصابعه، وهو يفرد النقود بين أصابعه، غير أن راڤيار تدارك اللحظة القلقة للرجل:

- حتى لو لم يكن معك السعر الكافي لا تهتم.

- لا لا.

قاد الرجل نعجة متوسطة الحجم شاكرًا الراعي الذي أطال النظر إليه فيما كان الأخير يتلفت مسرعًا كأنه متهم بشيء يعرفه.

عصا عيدو

أخذتُ أبدّد الوقتَ بتأمل عصا عيدو ذات الرأس المكوّر الغريب.

الشهيد عيدو فلق بها رأس مجاهد أفغاني ذات يوم، فأحرقوه حيًّا في ساحة الجامع، لكنّ خودا رحمه فأرسل له صقرًا انتشله من النيران، وطار به إلى السماء.

أحاول أن أقرأ رموز العصا الكثيرة، وخطوطها الزرقاء المتعامدة أو المتقاطعة وإشاراتها السوداء غير المعروفة، وخرائطها الحمر الدقيقة غير المرئية تقريبًا، وحروفها الملونة غير المترابطة بالكردية والتركمانية والعربية.

لم تكن التواريخ الناعمة تذكّرني بشيء، لأن أرقامها تتسرب أمامي مثل النمل، وتدور على العصا الملفوفة أكثر من دورة وربما تنتظم جملًا صحيحة أو مقطوعة. كانت مختلطة ومتداخلة، ومقشّرة أتعبت عينيَّ كثيرًا. أشبه بالطلاسم السحرية التي لا يمكن أن أفتح معانيها، لكنني مستمتع بهذا الدوران الحروفي الغريب لدقة الكتابات الناعمة على عصا ليست متينة، ولا يمكن لأي كائن أن يسطّر عليها مثل هذه الكتابات الإبرية، والرسوم الدقيقة جدًا.

عيدو كان مجنون المدينة الوحيد، انتشله صقر جبار في يوم إعدامه بمحرقة في جامع المدينة، ففاض روحًا شهيدة، وذكرى لا تُنسى في مدينة أسيرة بكاملها. شاهدتُهُ بأمّ عيني يوم كنت احمل أثقالًا من اليأس والهم والقلق، وأنا أبحث عن ابنتي في كل بيتٍ وشارعٍ وشبرٍ، ورائحتها تتنقل من مكانٍ إلى مكان، وكنت أتبعها مثل المخدّر حتى أوصلتني إلى الموصل، لكنني فقدتها في آخر الأمر، وتبخرت رائحة طفولتها العذراء، فهربتُ بذات الطريقة التي دخلت فيها شنگال بعد إن ورثت عصا عيدو من الشرطي دلشاد، الذي لا أعرف مصيره.

عرفت أخيرًا من راڤيار أنهم أحرقوه في بيته مع زوجته وأطفاله لثبوت خيانته لدولة الخلافة، كجاسوس لجهات كردية وأيزيدية، وأن إسلامه كان تقيةً وكذبًا.

رافقتني العصا شهورًا طويلة، ولم أتركها ولا لحظة واحدة.

يومها قال لي دلشاد والذعر مرتسم على وجهه:

- هذه العصا مخطوطة حيّة، لا تتركها ولا تعطِها لأحد. اعتبرها كتابًا مقدسًا، ففيها علوم لا يعرفها الكثيرون، وفيها تواريخ شنگال كلها، والفرمانات القذرة التي حاربونا فيها على مدار حياتنا وأجيالنا. هكذا أخبرني عيدو في لحظة غامضة ذات يوم، وكان يضحك بألم.

- أنت ابن التاريخ يا دلشاد، فأنا ضائع لا أفهم منه شيئًا. صارت ابنتي الأسيرة هي التاريخ.

- احتفـظ بهـا لزمـن سـيأتي، فعيـدو المجنـون كان أذكى واشـجع شـخص في شـنكال المغتصبـة.

- وأين ستذهب أنت؟

- كـثرت شـكوكهم حـولي ومـن المؤكـد أنهـم سـيقتلونني. خـذ العصـا واحتفـظ بهـا حتـى يحـين حينهـا.

أربكنـي كثـيرًا، لكننـي تحاملـتُ عـلى ذلـك، فقـد كنـت أخطـط للهـرب إلى الموصـل. وصـار حديـث بيننـا طويـل ومتوتـر قـد أتذكـر بعضًـا منـه، لكننـي لم أرَ دلشـاد بعـد ذلـك اللقـاء، وبقيـت العصـا ملتصقـة بيـدي أتـوكأ عليهـا، وأقـرأ بهـا لعـلّي أجـد أثـرًا لنشـتُمان في هـذا التاريـخ الـذي كتبـه مجنـون شـنكال الوحيـد. وحينـما تسـللت إلى دهـوك لم أتـرك العصـا، ولم أسـمح لأحـد أن يمسـكها حتـى اليوم.

أكـثر مـن سـاعة وأنـا أدوّر بالعصـا عـشرات المـرات، فلـم تلفتنـي غـير رسـومات ناعمـة متقطعـة، تتكامـل كلـما دوّرتُ العصـا بـين أصابعـي، مثلهـا مثـل الحـروف التـي تتكامـل بالتدويـر على نفسـها، مائلـة قليـلًا حتـى تنتهـي. لا أعـرف أيـن.

أدوّرهـا مـن اليمـين إلى اليسـار، ومـن اليسـار إلى اليمـين، فألتقـي بالغمـوض ذاتـه، ولعـلي وجـدت أنـه يمكـن قـراءة العصـا مـن أي اتجـاهٍ ووجـه. العصـا الأنبوبيـة لا وجـه لهـا ولا اتجـاه. أكلّـم نفسـي، ثـم أقلبهـا بـأن أضـع رأسـها المكـوّر إلى أسـفل، لأجـد أن هنـاك عالمًـا آخـر محفـورًا ربمـا بـرؤوس الدبابيـس، والأظافـر وشـظايا الزجـاج، يسـير عكـس الكتابـة تمامًـا، بينـما بقـي الـرأس المكـور خاليًـا مـن

أية إشارة، وكأني أشم فيه رائحة دم الأفغاني الذي قتله عيدو.

ثمة ما يدفعني لتأمل شجرة الحروف والرسمات والجمل المتقاطعة، لا سيما الكردية والعربية منها، وأعجب كيف لهذا الرجل المجنون أن ينسخ كل هذه الفوضى بشكل دقيق، وإن كان غير مفهوم ويشي بالغرابة، لكنه كما أرى إعجاز لمجنون امتلك عقلًا كاملًا، وتصرف بحماسة ووطنية عالية، حينما قتل مسؤولًا أفغانيًا صلفًا.

تدور بي الحروف والكلمات غير التامّة، وتخذلني الرسمات الناعمة جدًا، وتتقلب العصا بيدي، تدور عرضًا وطولًا فتتعاقب الرسمات الصعبة التي تقاطعها رسمات جانبية على ما يبدو، فارصد عينًا مطفأة. كومة حبر كأنها رأس نملة، يعلوها قليلًا حاجب رفيع، تحته دائرة انغلقت على سواد أستطيع أن أقول أنه كان واضحًا إلى حد ما. عين واحدة. ربما هكذا كنت أجد. وربما ثمة عينٌ أخرى قد تكون في مكان آخر، لكن الحروف الكردية والتركمانية تتعاقب أيضًا وتتمدد بانسيابية بلون أسود، وثم أزرق وثم لا لون واضح كأنما تركّبت عليها حروف جديدة، فأغرقتها تحت أو فوق العين المطفأة كما أحسب.

البرابرة يأكلون الحلبي

1

حاولتُ أن أتملص من يوم الجمعة الكئيب، لكنني خشيتُ من رجال الحِسبة المتجولين الذين يطاردون الناس قبل موعد الصلاة الجماعية في جامع المدينة، حتى رافيار أعيته الحيلة بأن يبتعد عن الموعد الممل لخطبة أبي العينين المكررة، والسخيفة عن الجهاد والجنة والنار والحوريات والأيزيديين الكفرة والقتال والدم والعقوبات التي لا آخِر لها، لكننا تركنا القطيع في حظيرة البيع محاطًا بمجموعة تنكات وأقفاص فاكهة قديمة، وتوجهنا إلى الجامع على مضض.

لم يقل رافيار شيئًا، بل اعتكف على صمتٍ لم أفهمه، ونحن نذرع الشارع الوحيد كما لو شغله أمر ما ظل يداوله مع نفسه، يجيل النظر بين المحال المغلقة والبيوت المهجورة حتى وصولنا عتبة الجامع.

مدّ رافيار يده في جيبه، وأخرج ورقة نقدية صغيرة مطوية أكثر من مرة، ودسّها في جيب الأعمى المرابط في باب الجامع

فشكره الأخير، ودعا له بالسلامة والعمر الطويل وأن يحفظ أولاده.

2

كان أبو العينين مثل الخيارة الذابلة، وهو يجلس على منبره العالي، ولحيته المسترسلة حمراء يخالطها بياض خشن، فبدا كله عبارة عن لحية مركّبة، متدلية إلى الأسفل كما لو تسحب بقاياه، لكنه بقي متشبثًا بكرسي الخطابة بيدين متمسكتين بمسندي الكرسي من جانبيه.

3

جلسنا في الخط الأخير متربعين كالآخرين، وجلس الأعمى إلى يمين راڤيار بعد أن تحسس مكانه فساعده وأجلسه إلى جانبه، لكن بقيت صورة العملة المطوية التي دسها راڤيار في جيبه تعود في رأسي أكثر من مرة، ولم أحسن الانتباه إلى ما كان يقوله الأمير الخيارة، بالرغم من قوة الصوت في الميكرفون الذي شدّ الأسماع عنوة، لكنني صرفت هذه الصورة عن رأسي بعد أن علا صوت أبي العينين غاضبًا أكثر مما يجب:

- اليومَ ستشهدونَ عقوبةَ إعدامٍ لجاسوسٍ على دولةِ الخلافةِ، حاولَ خيانتَنا بطريقتهِ الغادرة، لكنّ اللهَ سبحانَه وتعالى كانَ لهُ بالمِرصاد.

ران صمتٌ مهيب في القاعة، وبقيت الرؤوس تتطلع إلى خيارة

المنبر العالي الذي تحول إلى كائن آخر بعينيه الناريتين، وحتى لحيته صارت ترتعش وهو يُكمل:

- هذا الجاسوسُ أخزاهُ اللهُ جلّ وعلا، كانَ يقتلُ جَرحى دولتِنا الراشِدة بالسّمومِ التي يَعملها في المختبرِ، والأدويةِ الفاسدةِ الميتة، مستغلًا وظيفتَهُ كطبيبٍ، وثقتنا به التي أوليناها لهُ، لكنَ اللهَ سبحانهُ وتعالى يُمهل ولا يَهمل.

تحنطنا كلنا وبقيت الأسماع متوترة ومشدودة إلى وجه الكائن الخياري الذي تحول إلى نمرٍ عدائي بطريقة مخيفة:

- الواجبُ الشرعي أنْ نقتصّ منهُ على هذه الخيانةِ التي أوْدتْ بفقدانِ مجاهدينَ جرحى لا حولَ لهم ولا قوَة.

طال الصمت كثيرًا، ووجه الخيارة يزداد اصفرارًا، وهو يخرج ورقة من جيبه الجانبي:

- القاضي الشرعي قرّر إعدامَ هذا الخائن الكافر بالطريقة التي يقررها أميرُ سنجار وقد خيّرنا بين ثلاثِ طرقٍ.

أطال النظر بالوجوه المحنطة، وكاد قلبي يطفر من صدري. أحسست بحشرجة في بلعومي، ويباس كما لو تحولت حنجرتي إلى قارورة رمل خشن:

- إما حرقًا ليذوقَ عذابَ جهنَمَ في الدنيا قبلَ الآخِرة، أو قطعَ الرقبة بالسّيف الشرعي، أو تقطيعِ أوصالهِ على أنْ يشاركَ جميعُ المجاهدينَ المتواجدينَ في صلاةِ الجمعة، ومنَ الذين دخلوا رايةَ الإسلامِ بهذهِ الواقعة، ليكونَ عِبرةً لمن تسوَلُ

لـهُ نفسُـهُ أنْ يكـونَ جاسوسًـا عـلى دولـةِ الخلافـةِ، وينبـع أهـواءَ أسـيادهِ الروافـض والنواصـب.

خرقـت الصمـت المتخشـب صيحـات اللـه وأكـبر المتكـررة التـي مـلأت القاعـة صخبًـا ورعبًـا، حتـى انبعثـت رائحـة أجسـاد وأفـواه كروائـح جثـث بـدأت تتفسـخ الآن، وكنـت أحـاول أن أتماسـك، وأنـا أردد ببلاهـة ولا شـعور: اللـه أكـبر وكان صـوت رافيـار يتحـشرج هـو أيضًـا، والأعمـى يـردد اللـه أكـبر بصـوت مختلـج كـما أسـمعه.

علت وجه أبي العينين ابتسامة مصنوعة وبدا وحشًا مكشرًا:

- بمـا أن القـاضي الشرعـي أعطانـا ثلاثـةَ خيـاراتٍ لإعـدام هـذا الجاسـوس الوضيـع، لـذا أرى أنْ نختـارَ ثالـثَ الخيـارات لنُسـاهِمَ جميعنـا بقتـلِ المـارق وتقطيـعِ أوصالـهِ وهـو حـي.

عـادت اللـه أكـبر تشـلّني، وتبعـث بي خوفًـا مضاعفًـا، وأنـا أرى الحماسـة تعصـف بالجميـع بصيحـات مترادفـة صاعقة، حتـى اهتزت الجـدران، وتطايـر غبـار ناعـم، واهتـز عـرش أبي العينـين نتيجـة للتدافـع الحـماسي الـذي كان قريبًـا منـه، عندهـا رفـع يـده مشـيرًا:

- سـنلبّي نـداءَ اللـهِ سـبحانه وتعـالى، ونشـارك جميعُنـا بإعـدامِ هـذا الجاسـوس، فعـينُ اللـهِ ترانـا الآنَ ونحـنُ ننفـذ حكمَـهُ العـادلَ بهـذا الكافـرِ المجـرم.

كان ينظـر إلى السـقف موحيًـا أنـه يتلقـى أمـرًا عاجـلًا مـن السـقف أو مـا بعـده، كذلـك شـخصت أبصارنـا إلى الأعـلى، وكنـت أحتقـن وأتلـوى بمـكاني، ورافيـار الملاصـق لي متشـنج لا يقـوى حتـى

على التنفس، وقد احتبس الكلام فيه وجسده يرتعش، وحاول أكثر من مرة أن يقول شيئًا لي لكنه لم يستطع، غير أن الأعمى تحدث معه بشيء سريع، فهزّ رأسه وعيناه ترفّان كثيرًا.

4

أحسست بأن سربست سينهار، وهو يتحول من زاوية نظر إلى أخرى أمام مقصلة شبحية. كنت أشدّ على كتفه محتبسَ الكلام بريقٍ يابس، وضباب رمادي يخترق عينيّ.

قال نور الدين هامسًا:

- بعد الإعدام أروح لسوق الغنم.

أزاح وجهه وحشر نفسه بين الجمع المحتشد، حينها خرج أربعة أشخاص من باب جانبي يقتادون رجلًا مربوط اليدين بحبل غليظ، انكشفت صلعته حمراء وبان مخذولًا محني الرأس يجرجر ساقيه بصعوبة. في الوقت الذي خرج فيه أبو العينين من باب آخر تحيط به ثلّة من المجاهدين الشباب، وبيده ساطور تلمع صفحتاه ببريق شمسي يخطف الأبصار، متجهًا إلى الرجل المخذول الذي رُبِط على عمود خشبي من بطنه وبقي جسده قلقًا، لكنه استطاع أن يرفع وجهه المرتعب قليلًا، ناظرًا إلى أبو العينين باستعطاف. غير أن الأخير صاح ووجهه يكتسي بملامح وحشية:

- يا مجاهدين.

انتظمنا بالصمت المطبق الخائف:

- هــذا هــو الطبيــبُ الحلبــيُّ الــذي ائتمنّــاه عــلى أرواحِ مجاهدينـا، لكنـهُ خـانَ الأرواحَ المجاهـدةَ في سـبيلِ اللـه وانكشـفَ بأنـهُ جاسـوسٌ يعمـلُ لجهـةٍ تعـادي خلافتَنـا الراشِـدة، وكانَ يقتـلُ جرحانـا بالسّـمومِ والأدويــةِ الفاسـدة.

ثم وجّه كلامه إلى الطبيب الميت - الحي:

- لا أنـسى في يـومٍ مـا أنـكَ سَـهرتَ عـلى راحتـي أيامًـا وأسـابيعَ، وأحطْتنـي بعنايتـكَ الشـخصيةِ، لكـنْ كانَ هـذا واجبـكَ قبـلَ أنْ يغويـكَ الشـيطانُ وتصبـحَ خائنًـا. أمّـا الآن وأنـتَ هكـذا مـدانٌ ومتلبـسٌ بالخيانـةِ، وقتـلِ الأبريـاء مـن مجاهـدي الخلافـةِ، فهـذا واجبـي وعـليّ أنْ أنفـذهُ أمـامَ اللـهِ فهـوَ القـاضي بيننـا بالحَـق.

كانـت عينـا الطبيـب تنطفئـان بالتدريج، وجسـده يتخـاذل وصلعته تحمرّ بطريقـة غريبـة، كأنمـا سـينبثق منهـا دم غزير بعـد قليل.

- سـأمنحكَ فرصـةً أخـيرةً لتتلـوَ شـهادةَ أنْ لا إلـهَ إلا اللـه وأن محمـدًا رسـولُ اللـه.

كان الصمـت أكـثر قسـوة مـن أي وقـتٍ مـضى، وأبصارنـا شـاخصة عـلى الطبيـب الحلبـي المنهَـك، الـذي لم يسـتطع حتـى أن يحـرّك شـفتيه، وكان أبـو العينـين يحثـه عـلى الشـهادة:

- قلْهـا ولا تُحمّلنـا إثمـكَ قبـلَ أنْ ترحـلَ إلى ربّ السـمواتِ بعـدَ قليـل.

تمتمــت شــفتا الطبيــب بــشيء لم نســمعه، وكان أبــو العينــين

يُـدني أذنـه منـه ويهـز رأسـه، وكنّـا أنـا وسربسـت نعـاني مـن تلـك اللحظـات المميتـة، ونحـن نـرى الطبيـب لا يقـوى قـول أي شيء، حتـى خلنـاه مـات عـلى عمـود الصلـب، غـير أن سـوطًا لاذعًـا مـن أبي العينـين عـلى وجهـه أيقظـه بأنـين ضعيـف، فسـارع شـابان ملتحيـان لـركل الحلبـي عـلى بطنـه أكـثر مـن مـرة، فتحـرك المصلـوب قليـلًا وصـدر منـه صـوت يشـبه التوسـل.

أشـار أبـو العينـين إلينـا أن نجلـس كلنـا في الباحـة المشمسـة وخاطبنـا:

- سنأخذُ أدوارَنا تِباعًا بتقطيعِ أوصالِ هذا الكافر الخائن.

تعالـت صيحـات اللـه أكـبر بهسـتيريا جماعيـة انخلـع فيهـا قلبـي، وطـار صـوابي، وشـعرت بـألم يعتـصر كل جسـدي، وكان بالإمـكان أن نـرى الطبيـب المصلـوب قـد بـدأ بالتبـول عـلى نفسـه، وهـو يلهـث كقـط أطبقـت عليـه جـدران حديديـة بـدأت تضيـق كل لحظـة.

- كونـوا مـعَ اللـهِ يـا قـوم. قطّعـوا هـذا الجاسـوس الخائـن، فحرامٌ أنْ يضمّـهُ قـبرٌ. هـذا مصـيرُ الذيـن يخونـونَ اللـهَ سـبحانهُ وتعـالى في ميـدانِ الحـق.

اللـه اكـبر.. اللـه أكـبر.. كانـت الصيحـات تصـك الآذان، وبدأ سـعار غـير معقـول يجتـاح المصلـين، وتطايـرت رائحـة فاسـدة جـدًا مـن المـكان، حينـما انقـضّ الجميـع عـلى الطبيـب المصلـوب، وتنافسـوا في تهشـيمه وتقطيعـه وتفكيـك جسـده بطريقـة أجفلتنـا، وجعلتنـا نـرى فيلـمًا مـن أفـلام الغابـات ذات الطقـوس الدمويـة، وتحـول

الحلبي بعد لحظات فقط إلى قطع متناثرة بين الأيدي والأفواه.

أكلوه حيًا قبل أن يموت، وكانت الدماء تتسرب من بين الأفواه، وتسيل على اللحى بسعادة لا نظير لها.

لم يعد الحلبي حلبيًا بعد وقت خاطف، حينما هجمت عليه صيحات الله أكبر المخدّرة، وفرّقت جسده إلى كل اتجاه، وبقي عمود الصلب واقفًا، ملطخًا بدم قليل متناثر، لكن من دون جسد الطبيب الذي كان قبل قليل يرتعش، ولم يستطع أن يقرأ شهادة الموت.

رأس الخيط

أشبه بشرفة معدنية كانت زاحفة من أعلى محل مقفل، ألقت بظلها العريض على القطيع الهاجع تحت ظهيرة اليوم، وكان رافيار يتحدث مع الأعمى بهمس قبل أن يسلّمه رزمة نقدية كبيرة، ثم طبطب على كتفه وانصرف.

لم أشأ أسأل عن هذه العلاقة الغامضة بين الرجلين، لكنها باتت شبه واضحة لي، فرافيار ذئب سنجاري كما بدا لي، شجاع وغامض وسريع البديهة؛ لكنني كنت أشعر بالرعب منذ يوم أمس، ولم أستطع النوم وأنا أعيد في رأسي صورة الحلبي الذي أكلوه نيئًا وحيًا، وتفرقت أوصال جسده في صيحات الله أكبر المسعورة. لذلك كنت أرى ولا أرى الأعمى، الذي جاء إلى هذه السوق الصغيرة تحت الشمس، وأخذ رزمة نقود حمراء.

لا أستطيع إعادة المشهد على نحو صحيح، فما حدث كان غريبًا وبشعًا ووحشيًا إلى أعلى درجة مفرطة من الهمجية، وهذه أول مرة في حياتي أرى بشرًا يتحولون بلمح البصر إلى حيوانات ضارية هائجة في غابة سائبة، بينما بقي أبو العينين يتفرج بدم بارد، وابتسامة عريضة تنفتح في وجهه، وهو يشاهد تقطيع الطبيب

الحلبي حتى أكلوه كله في وقت سريع لم أستطع أن أستوعبه، وهو ما مكّنني من ألا أفهم شيئًا كما جرى سوى صور كابوسية جاءت سريعة، وانتهت بلعق الدم المُسال على اللحى.

حتى رافيار ظل في وجهه خوف، لم يستطع إزالته بالرغم من أنه حاول أن يواسيني:

- علينا أن ننسى يا رجل. لا بد من أن تنسى كل ما ترى، فنحن في مدينة محتلة، ومحتلوها ذئاب وخنازير وضباع. هكذا! علينا أن نفهم الحالة بشكل طبيعي.

لم أقل شيئًا.

كنت خائفًا وجسد الحلبي الممزق بالأيدي والسكاكين والمأكول حيًا لا تبرح رأسي.

- لم تسألني عن نور الدين!

لم أفهم لذلك أعاد بصيغة أخرى:

- الأعمى.

- ما به..؟

- لم تسألني عنه!

لم أستطع تجميع مشاهدات سريعة وقصيرة كنت منتبهًا لها في الأيام الفائتة:

- تركت الأمر لك.

- كنت أتوقع ألا تسألني عنه.

قلت بشكل سهل:

- إنه أحد المفاتيح.

ضحك راڤيار وتبدد الخوف العالق في وجهه:

- لكن حادثة الأمس وتقطيع الحلبي الوحشي، تجعلنا نتريث كثيراً، ونضبط أسرارنا بشكل أكثر دقة.

ثم أضاف:

- بالمال نحل بعض الأمور العالقة.

فزّ قلبي واتسعت عيناي كما لو أنني انتبهت إلى ما يرمي اليه:

- ونشتُمان؟

دنا مني وتطلّع إلى عيني وقال:

- توصلت إلى أسيرة واحدة خلال وقت قصير.

- ونشتُمان؟

فلت من السؤال المضني مرة ثانية، فأجلسني على تنكة مغروزة في المكان، وكان الظل يطبق عليها:

- علينا أن نمسك برأس الخيط مهما كان صغيراً، وهو الذي يقودنا إلى بقية الخيوط.

هززت رأسي موافقًا، وعيناي تبحثان عن الأعمى الذي توارى بين الأزقة:

- نور الدين مسلم شجاع، وهو ورقة رابحة جدًا لا يلفت الأنظار إليه.

كانت عيناي فيهما أسئلة كثيرة أثق بقدرة راڤيار على اكتشافها:

- ساعَدني كثيراً في تخليص بعض الأسيرات في أكثر من مرة سابقة.

اعتدلت بجلوسي وأنا أوازن التنكة تحتي والتي بدأت تميل:

- نور الدين أعمى. لكنه يرى مثلي ومثلك!

فضلت أن أصمت:

- لا يوجد في شنگال غير الجامع الذي يلتقون به يوميًا. هناك أهمية نور الدين.

وقف يتطلع إلى المكان من كل جانب. ثمة سيارتان تمرقان بسرعة، وبعض السابلة العائدين من السوق شبه المهجورة.

- أحد مسلمي شنگال.

جلس وهو يكمل:

- كان يعمل في الموصل مدرسًا للتربية الإسلامية، وفي العطلة الصيفية يرجع إلى قريته سنوني، حينها وقع هجوم داعش، فبقي مع من بقي، ولا يعرف مصير أسرته.

وقبل أن أقول شيئًا بما يشبه الشك، قال راڤيار وكأنه علم ما في صدري:

- لم يكن أعمى طبعًا. لكن سُجن وعُذب من قبلهم، فخرج شبه أعمى أو قل أعمى!

قلت بألم:

- كان مدرسًا فصار متسولًا أعمى..!

لم يتأخر راڤيار بالجواب:

- كل شيء يتغير في الحرب. الأسير لا حول له ولا قوة.

تساءلت بصوت مسموع وبشك أيضًا:

- هل هو أعمى فعلًا؟

مهنة العميان في الحرب

1

يسمونني أبو النسوان ههههه

تسمية ظريفة لا تخلو من حسد وإيماءات معينة، حرصت على أن أبدو مغفلًا كلما سمعتها من جماعة ابن تيمية الذين يحسدونني على أنني صاحب زيجات متعددة، لا سيما المجاهدين العراقيين الذين وفدوا من خارج شنكال، ليمرروا المعلومات عن مقاتلي جبل سنجار من الأيزيديين في مزار شرفدين الذي بقي عصيًا على دولة الخلافة، ولم يستطيعوا احتلاله حتى الآن.

أكره المجاهدين العراقيين بصراحة، لأنهم خونة الأرض والمكان والتاريخ، وأفكارهم الجديدة لا رصيد لها في الواقع، لا ماضيًا ولا حاضرًا، غير أنهم ركبوا موجة الجهاديين الدواعش بطريقة إرهابية متطرفة ومخيفة، لكنني أستطيع التعامل نسبيًا، وبحذر مع المجاهدين الأجانب، من شيشانيين وأفغان ومنغوليين وبريطانيين قليلين، أحسست بوجودهم أكثر من مرة، حينما أكون في باب الجامع، وهو مكاني الذي لا أبارحه، ولو أنهم في

نهايـة الأمـر أجانـب، ومغتصبـون لمدينتـي، بعدمـا فقـدتُ بـصري أثنـاء التعذيـب، ولهـذا لا أحبهـم أيضًـا في سري.

2

أبو النسوان.

أغلـب المـرات يقولهـا المجاهـد الصحـراوي الخشـن أبـو المعتـز حينـما يدخـل إلى الجامـع وحينـما يخـرج منـه، فأسـتوعب مزاحـه اللحـوح بمزيـدٍ مـن القلـق، مـع يقينـي بأنـه يريـد أن يشـيع عنـي هـذه الصفـة بـين رفقائـه الشـباب الذيـن أخشـاهم أكـثر مـن كبـار القـوم، ربمـا لتكـرار زيجـاتي بـين فـترات ليسـت بعيـدة؛ لكـنْ مثـل هـذا المـزاح يـورثِ بي الخـوف ضمنًـا، ويجعـل القلـق آفـة لا أسـتطيع الفـكاك منهـا، لا سـيما وصـورة الطبيـب الحلبـي المأكـول تـأكل رأسي، وتفتـت روحـي، عندمـا كنـت أسـمع التهـام جسـده المتـوزع بـين المصلـين، وأسـمع تكسـير عظامـه بـين الفكـوك الشرهة، وصيحـات اللـه أكـبر المختلطـة بلحمـه ودمـه وصراخـه الـذي ذاب بـين أسـنانهم.

لم يكتـف أبـو المعتـز بهـذا المـزاح الثقيـل، بـل زاده حبتـين حينـما قـال لي ظهـر اليـوم بأننـي عنّـين ولسـت فحـلًا، لهـذا تهـربُ منـي الصبايـا بعـد وقـتٍ قصـير.

وكان يضحـك بقـوة. يفتـح فمـه العريـض ويطلـق صيحـاتٍ ضاحكـة طويلـة، فأحـس بتفاهتـه أكـثر مـن اللـزوم، ولا أملـك سـوى

محاباتـه وأضحـك بعمـق أجـوف أيضًـا؛ فبالضحـك تمـر الكثـير مـن الأمـور الصعبـة كـما أتوقـع.

ربت على كتفي وهو يقول:

- في الـزواج المقبـل قـد تحتاجنـي أيهـا العجـوز نورالديـن هههههههـه

ثم بصوت أعلى:

- اسـتغفر اللـه اسـتغفر اللـه. أنـا أمـزح معـك يـا رجـل. أنـت رجـل ونصـف يـا نـور الديـن.

يمـضي عاصفًـا؛ ومعـه الفتـى أبـو سـيّاف كـما أظـن؛ فيخفـق الهـواء مـن حولـه، وتذهـب معـه رائحتـه الصحراويـة الثقيلـة، فأتحسـس المـكان مـن حـولي، وأنـا أرى كل شيء يمـر بانتظـار بعـض الذيـن يسـتظرفون وجـودي، ويمضـون بعـض الوقـت معـي في أحاديـث تتقطـع دائمًـا عـن الحيـاة والحـرب والنسـاء والـزواج والصـلاة والحوريـات والحـلال والحـرام والجنـس والكفـر والإلحـاد والأيزيديـين والكـرد والشـيعة والسـنة والمسـيحيين والصفويـين وتكريـت وبيجـي والنفـط وسـنجار والموصـل والعـراق ودولـة الخلافـة الإسـلامية التـي تتوسـع كل يـوم.

3

وقـتٌ كثـير يمـر في فنـاء الجامـع، نتبـادل فيـه مـع ثلـة الشـباب بعـض الأحاديـث بشـكل طبيعـي دون توجـس، وكنـت اسـميهم

في سري «شلّة ابن تيمية»، والحمد لله ما زلت أحفظ الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، كوني مدرّسًا قديمًا أيام الموصل لمادة التربية الإسلامية، لهذا لن يمر عليّ الكثير من الغش وتحريف المعاني، لكنني مضطر أن أكونَ على مقربة من دينهم الجديد، ومرجعياتهم الوهابية وكتبهم القديمة، لا سيما منهاج السنة لابن تيمية الذي قرأوا لي بعض فتاواه الفظيعة، لهذا كنت أتلافى أية أخطاء محتملة في أن أتقبّل منهم مطاوعًا أي تلقين جديد أسمعه منهم، حتى أكون معهم بروح الخلافة الإسلامية الصحراوية الدموية التي أنشأها محمد بن عبدالوهاب، على أطلال معلمه ابن تيمية، لهذا أنا متحفظ جدًا.

لا أرى شيئًا وأرى كل شيء.

أسمع وأقول القليل لأبقى تلميذًا مع هؤلاء الصغار بالرغم من ما بعد أربعينيتي الزاحفة إلى الخمسين، فالمعرفة ليس لها عمرٌ معين. هكذا كنتُ أقول لهم من أجل أن أبقى صامتًا، أتلقف الكثير من معاني دينهم وما يفكرون به، وبالتالي أخطط لما أفكر به مقتنعًا بالثقة التي بيننا بوصفي رجلًا فقير الحال، وأعمى أقضي ليلي في البيوت الكثيرة المهجورة وحيدًا ومتوحدًا. أتنقل من بيت إلى بيت محاذرًا من ألا أبتعد كثيرًا عن مكان الجامع، فالليل فيه وحشة مخيفة لبيوت تركها أصحابها فارّين ذات يوم ساخن في جحيم فوضوي، وغزوة غادرة قتلت الصغير والكبير، لكن بقيت أرواحهم تحوم حولها منذ سنتين، وكنت

أشعر بالكثير من الأرواح المجهولة تدور وتحوم في ليالٍ حالكة الظلام، لكنها لم تؤذني بل تعطف على وجودي الناشز التائه في هذا المدار الداعشي المرعب، وتطلب مني أن أكون حارسها المؤتمن الوحيد. فكنتُ وما أزال حارس البيوت المهجورة في الليالي المريرة التي عشتها وأعيشها وما أكثرها.

4

قد تجذبني لغة بعض العربان الشباب الفصحى، فأنصت إلى رنينها القديم، لكنني أنفر منها لقراءتها غير المستساغة حينما تلوكها ألسنٌ صغيرة متكلفة جدًا، تنذر بالخوف وتفسّر بطريقة الترهيب التي لم أقرأ مثلها في كتب التاريخ الإسلامي. فيشغلني كثيراً هؤلاء الشباب الانغماسيون الجاهزون للانتحار والموت والقتال حتى آخر نَفَس، من أجل قضية مشوَهة ممتدة عبر التاريخ. غير أنني مضطر أن أتماشى مع هذه المعضلة النفسية بيقين داخلي مضاد، وأعكس اليقين الآخر الذي يريدونه، مستسلمًا وصاغرًا من أجل نبتة صغيرة نَمَت بداخلي مع مرور الأشهر هي: ليس الوطن هو الجزء المسلوب مِنّا فالأوطان تعود مهما طال بقاء الغزاة، لكن الشرف هو ذلك الجزء المسلوب الذي لا يعود كما كان. لذلك اعتدتُ مع هؤلاء أن أكون يقظًا وأهزّ برأسي فأنا لا أحتاج إلى كثير من المعاني والتشبيهات والكلام لكي أفهم. قالها الراعي الذي يتردد

بين فترة وأخرى على الجامع ويقضي قيلولته، أو يحتمي من المطر أو يؤدي الصلاة بعيدًا عن أغنامه التي يتركها في السوق.

مرة انتابني الخوف منه في ظرفٍ ملتبس جدًا:

- هل تعرفني سابقًا؟

- لا أعرفك يا نور الدين. لكنني أعرفك. الشنگاليون يعرفون بعضهم أيزيديين كانوا أم مسلمين. فينا ملح شنگال. بأشكالنا ولهجاتنا وألسنتنا وملابسنا.. والآن في ضياعنا وشتاتنا هنا وهناك.

- هل صرتَ معهم؟ أ.. أعني كيف فلتّت من الأسر حتى الآن؟

- كما فلتتَ أنت. لكل واحد ظرف ومصادفة وحظ. نعم. حظ لا غير.

ثم همس بألم:

- أنت الأعمى وأنا الأعرج. يعني أنا وأنت هو كل ما تبقى من شنگال.

وقتها بكيت. وما زلت أبكي.

5

ينصحني بالزواج من جديد:

- أكمل نصف دينك يا نور الدين. أنت رجل ضرير وتحتاج إلى امرأة في حياتك قبل أن تشيخ وتموت وحدك.

يبدو جادًا لكنني أنني أجاريه وأضحك وأتمنى أن يغير الموضوع:

- هذه المرة أعدك ألا تهرب منك مثل الباقيات.

أحاول أن أمسك كتفه الصحراوي ولا أعرف لماذا:

- هههه هذه مشكلة العمى يا صديقي المجاهد. لا أعرف لماذا يهربنَ مني. هل كل العميان تهرب زوجاتهم منهم؟

كنت أتساءل على مضض، وعيناي من خلف النظارة ترمشان مسرعتين، لكنني أرسم شبحه المتين وهيكله العضل من صوته ونبراته الخشنة.

- الغريب أننا لم نعثر على أية زوجة من زوجاتك الهاربات.

يدق في نبضي خطر أخشاه جدًا، وأتذكر الطبيب الحلبي الذي أكلوه قبل أيام:

- لا يتبخرنَ سيدي المجاهد أبو المعتز. ستعثرون عليهنَ فسنجار ليست كبيرة ولا واسعة.

قبل أن يتركني يدس في جيبي ورقة نقدية:

- سنزوجك رغمًا عنك، وسنتكفل كما في كل مرة بمهرك، فصبايا سنجار الأسيرات حلوات. لكن هذه المرة عليك أن تربط صبيتك بحبل حتى لا تهرب هههههه

يمضي شبح أبو المعتز كالعاصفة الترابية، وأحس بأن ريحًا رملية تتبعه وهواءً ساخنًا يركض وراءه، لكن يبقى صدى كلماته يقلقني ويعذبني، فأعيده على مدار الوقت وأتأمل ما وراءه مقتعدًا باب الجامع، أو يخيّم الليل علي في أي بيتٍ مهجور.

أخشى هذا الكائن وأقلق منه كثيرًا، وتطوف في رأسي أفكار غريبة عن هذا المجاهد الذي لا يقل عنهم رعونةً وهمجية. وأسمع الكثير عن أفعاله الإجرامية في الفلوجة والأنبار وتكريت والموصل كذبّاح وقاطع رؤوس، لكنه يحتاج بعض الوقت ليكون أميرًا تتبعه شلة ذبّاحين، تتلقى أوامر الذبح الإسلامي منه.

يا للعنتك يا نور الدين.

كيف تتنصل من هذا الكابوس، وتهرب بجلدك قبل أن يأكلونك حيًا كالطبيب الحلبي المسكين الذي سال دمه على اللحى الطويلة.

ابْتعدُ بضعة أيام، وأعود متوكئًا على عصاي، بذريعة المرض لو صادف وأن سألني الصحراوي أبو المعتز الذي يدس كعادته ورقة نقدية بجيبي، وتمضي وراءه العاصفة الرملية، ولا ينسى أن يحثني على الزواج من جديد؛ فزوجاتي السابقات هاربات إلى جهات مجهولة حتى الآن. والجهات المجهولة لا يعرفها إلا راقيار الشجاع.

أنا متزوج من عدد كبير من السبايا الصبايا. لكنني غير متزوج.

هذه مهنة العميان في ظروف الغزو والحروب.

زوجاتي الهاربات

- هذا مطر نهاية نيسان. كله خير وبركة.

دخل راڤيار إلى البيت يزيح عن رأسه قطرات المطر العالقة، وبيده مصباح صغير، بعد أن رفع ستارة من نايلون ليحمي قطيعه من المطر الغزير في الفناء المتروك، فتراقصت ظلال الهول وموجوداتها المبعثرة وجلس مبللًا تقريبًا ثم انطفأت الظلال وعمّت ظلمة ساكنة تخللها المطر النيساني المتدفق.

أعاد إشعال المصباح، وتوجه إلى فانوس مركون عند عتبة شبّاك المطبخ، فعالجه وأوقد فيه قبسًا من نار صغيرة كانت كافية لإنارة المكان المقفل علينا نحن الثلاثة.

هذه أول مرة أكون مع نور الدين في بيت ضمنا نحن الثلاثة، ولا أقول أنها مصادفة، ثلاثة أشخاص تائهين في مدينتهم جمعهم بيتٌ مهجور، بل كان هذا من تخطيط راڤيار الذي كتم عني الكثير من الأمور كما قال لي مرة في الجبل، ونحن نتخفى من العيون والمراصد: عندما نصل إلى شنگال لا تسألني كثيرًا. أنا أتحرك ببطء مرة وبسرعة مرة. ألتقي بالكثيرين من الدواعش وأهديهم غنمًا، ومالًا، فأبدو كأنني صديقهم الحميم. ستجد من تعرفهم

مـن الشـنگاليين فتـصرف وكأنـك نسـيتهم. أنـت لسـت غريبًـا عـن شـنگال وتعـرف الصغـيرة والكبـيرة، ولكنـك سـوف لا تتعـرف عـلى الكثـير مـن المجاهديـن الجـدد؛ فالقدمـاء أيـامَ كنـتَ هنـا قُتلـوا عـلى الأرجـح في المعـارك، أو نُقِلـوا إلى جبهـات الموصـل والفلوجـة وتكريت. سـتجد صغـارًا بطـول إصبعـك الوسـطي، فتحاشَـهمْ، فمثل هـؤلاء هم القنابـل التـي تشـتغل عليهـا دولـة الخرافـة الإسـلامية. الانغماسـيون كـما يسـمونهم. وهـؤلاء عقولهـم متحجـرة جـدًا توقفـت عنـد أعـوام مـا قبـل الهجـرة، يـوم كان الأجـلاف يتبولون بـين أفخاذ نسـائهم خوفًا مـن ذئـاب الليـل في الصحـراء.

أخرجني راڤيار من صمتي وقال بهدوء:

- شـنگال لنـا فقـط. نحـن الثلاثـة أهـل مدينـة واحـدة. أيزيديـان ومسـلم. نـور الديـن مسـلم لكنـه شـنگالي أبًـا عـن جـد.. وربمـا هناك متخفّـون في القـرى. لكنهـم قلّـة. والبقيـة أسرى.. لذلـك نحمـد خـودا عـلى أننـا نـرى المدينـة بشـكل حـي، ولـو تتعـذب ونتعـذب معهـا.

خلـع نـور الديـن نظارتـه، ولم أتبـين عينيـه بسـبب خفـوت الضـوء في الفانـوس، كـما نـزع يشـماغه الأسـود، وأخذ يهـرش شـعره ولحيته النازلـة، وعـلى وجهـه طيـف لا أعرفـه، فبـدا لي - نسـبيًا- أفتـى مـما أراه في الجامـع كل يـوم، كـما لـو كانـت النظـارة واليشـماغ يضفيـان عليـه عمـرًا آخر.

- يرهقنـي بإلحاحـه المجنـون أبـو المعتـز. لذلـك أنـا أكـثر حـذرًا منـه هـذه الأيـام.

- ماذا يريد؟!

- يريد أن يزوّجني كتعويض عن زوجاتي الهاربات هههههه

- هههههههههههههه

انتبهت إلى ضحكة رافيار التي امتدت طويلًا، فعاود نور الدين الضحك من جديد، وبقيت مبتسمًا بشكل تلقائي حتى توقفا معًا:

- نور الدين الشنگالي الأصيل الذي لا تستغني شنگال عنه يومًا.

وكان يوجه الكلام لي كمفتتح تعريفي للرجل:

- كان مدرسًا إسلاميًا في الموصل، وأثناء العطلة الصيفية صار الغزو والاجتياح.

هززت رأسي:

- لسوء حظه كان في القرية. ولسوء حظه أنه فقد أفراد عائلته. ولسوء حظه أنه محاصر هنا ولا يستطيع الإفلات من قبضتهم.

ثم قال باهتمام واضح:

- وجوده هنا خدم بنات شنگال الأسيرات، وخدم شرف المدينة وهذه تُحسب له على مدى التاريخ.

تابع رافيار بهدوء موجهًا كلامه لنور الدين الذي أفرد مسبحة سوداء بيده:

- صديقي القديم سربست مهندس شنگال الأول، ومخطط مساحاتها الخضراء.

رفع نور الدين وجهه صوبي منصتًا بجدية:

- فقد ابنته الصغيرة الوحيدة نشتُمان، وما يزال يبحث عنها منذ سنة تقريبًا. لكنها اختفت بين السبايا ولا أحد يعرف مكانها. هنا أم في الموصل أم حلب أم الرقة أم في الفلوجة.

أطال نور الدين النظر في وجهي لكنّ راڤيار أكمل:

- نشتُمان تتميز عن بنات شنگال بأنها أجمل صبية.

التفت نحوي كما لو يستأذنني:

- عيناها زرقاوان. وجهها جذاب جدًا كأنها أنثى بالغة. وهي بيضاء ورشيقة وصبية صغيرة. يتيمة ووحيدة هذا الرجل.

اضطرب الجو في الخارج قليلًا برعد وبرق خطف على النوافذ المغلقة، وسُمع صوت المطر يطرق السطح الواطئ ويهمي على النوافذ من خارجها.

قال نور الدين وهو يترك حبّات مسبحته نازلة واحدة فوق الأخرى، فتطقطق بالتتابع بعد إن ران الصمت قليلًا:

- كأنني سمعت بهذا الاسم من قبل.. نش.. تو.. مان..!

فززت وهو يتهجى اسم ابنتي بطريقة بطيئة:

- صبايا كثيرات للأسف يتداولونهنّ للبيع والشراء هؤلاء الحمقى.

تساءل راڤيار:

- هل بقيت في شنگال سوق لبيع الأسيرات؟

قال نور الدين:

- لا. لكن فيما بينهم يتم هذا الموضوع. عملوه سوق دعارة أولاد الزنا.. يتبادلون الصبايا والنساء فيما بينهم لقاء مبالغ

رمزية أو يرسلونهن إلى الموصل وبرفقة لقاء مبالغ مالية لهن.

- ألا يحصل هذا الآن؟

- يحصل بشكل قليل.

- كيف؟

- كلهم موتورون جنسيًا. شباب غير ناضجين يتقاتلون. ويموتون من أجل وهم اسمه الحوريات.

- ليذهبوا إلى جحيمهم فهناك حورياتهم.

تأففت بلا إرادة وصورة نشتمان تداهمني بين لحظة وأخرى. بابو وينك؟

تدخلت في الكلام وقلت لنور الدين الذي أراد الآن مفتوح العينين، سوى من شروخ قديمة على وجهه على ما أعتقد:

- بقيت في الموصل ثلاثة أشهر ولم أجدها. كل مزادات البيع والشراء حضرتها لكن لم أعثر عليها.

كان نور الدين يصغي إليّ بانتباه:

- الأسيرات العائدات يؤكدن وجودها في أحد بيوت الأمراء، كونها صبية جميلة، لكن هذا ليس نهائيًا. لا أعرف. قد أموت ولا أراها بعد.

قال نور الدين:

- الأمراء يعزلون الصبايا الجميلات لهم. خنازير. لا يخافون الله.

جمع مسبحته في يده اليسرى وأشار لي بيده اليمنى:

- قد نجدها. بيوت الأمراء ليست بعيدة.

شَلّة ابن تيمية/ 1

- ها قد جاء العلّامة أبو سيّاف.

شاب بنصف عمري تقريبًا، يتردد على الجامع كثيرًا مع أصحابه، يعدّونه حفيدًا لابن تيمية، وحافظًا لفتاواه، وحجةً في الدفاع عنه، ويفخر بهذا علنًا « أنا خيرُ خلف لخير سلف».

كان اسمه يوحي بأنه رجل عريض، وطويل، وسيفه يتهدل على خاصرته، غير أن معاشرتي له بشكل يكاد يوميًا، أفرز لي صبيانيته وطيشه وتمسكه بأوهام دينية غريبة، ومتطرفة، لم أسمع أو أقرأ عنها شيئًا من قبل. وحينما يتكلم بأمور الدين وفتاوى ابن تيمية فأنه يفخّم صوته، ويحرص على مخارج الحروف، وحركاتها، وسكناتها.

في كل مرة أتخيله منفوشًا كالديك حينما ينادونه أبو سياف، فلهذه الكنية وقعٌ خاص عليه كما يبدو، حتى خلته لا يتحرك إلا والسيف راكز في خاصرته اليسرى، مثل محارب صحراوي ألقت به القرون الهجرية إلى الحاضر الدموي، مثله مثل كائنات أخرى اختفت بالقتل والانتحار الفوضوي في الجبهات الساخنة، حينما أملت عليهم أسماؤهم المستعارة مواصفاتٍ مهيبة أخرى

على الآخرين: المنتصر بالله، أبو حذيفة، أبو عائشة الليبي، أبو صقر السعودي، أبو الفهد. وهؤلاء مروا في المدينة، غير أنهم فجروا أنفسهم في أماكن مختلفة من تكريت والموصل والفلوجة.

مرة تبجح أبو سيّاف بطريقة فيلمية:

- سيفي بيميني، وإيماني بشمالي، وقلبي مترع بحب الله جلّ وعلا، فمن سينتصر عليّ؟

وكانت يشرع يده اليمنى في الهواء كالسيف، مسّني رفيقُها العصبي وكنت أرثي لهذا الشاب المنفعل مع اسمه كثيرًا لكنني كنت أخافه.

يكرهون أسماءهم، ويحبون المستعارة منها. منشطرين على أنفسهم بطريقة فظيعة حتى صار من اليقين الثابت أنهم لا ينتمون لاسم معين، لأنها تتبدل حسب المواقع التي يشغلونها، والأماكن التي يتواجدون فيها.

- كل الأسماء لنا. كنت أبا سارة الحجازي قبل سنة، واليوم صرتُ أبا سياف، وغدًا لا أعرف ماذا سيسميني الله سبحانه وتعالى. نحن نتصرف بوحي يأتي لساعته، ويسمّينا لأننا جنود الله في كل مكان، وأعمارنا ليست لنا إنما في سبيل دولة الخلافة القائمة على الحق والعدل.

أسميهم في سري شلّة ابن تيمية؛ هؤلاء الصغار والشباب، المُلقنين تلقينًا لا يضاهيه تلقين في عماء القلوب والضمير والفكر؛

فلا يعرفون من الشرع غير فتاوى ابن تيمية، ولا يعرفون من الحياة غير الموت، ولا يعرفون من الموت غير الحوريات، ولا يعرفون من الحوريات غير الجنس.

حتى من دون مناسبة يتحدثون ويتبارون ويتغزلون بشيخهم ابن تيمية:

« كأنني به نبي كل العصور خالد أبدًا.. إنه حالة كونية لا نظير له».

« شيخنا يرى أن كل مجاهد يستهدف الكفار، ويجد بينهم المسلمين، يجوز له قتلهم من أجل الظفر بالكفّار، فالغاية إيذاء الكفار وقهرهم بالوسائل المختلفة».

« ابن تيمية قال بدار إسلام، ودار كفر التي يتوجب قتالها وسبيها واغتصابها، وأما الأولى فقد أباح شن الحرب عليها، وفرض أحكام الشريعة، حتى من كان يدين بدين الإسلام فيها».

«في ظروف قتال الكفار، تُستحَل دماء المسلمين لغاية عظيمة؛ هي أهم من وجودهم».

كنتُ أسمع بذهنٍ يقظ، وكنت أبكي في سري على هذا الخراب الفظيع.

أنت تبقى مع الغنم

أخبرني راڤيار بموعد عرس نور الدين يوم غد الخميس.

كانت مفاجأة لي، وكان راڤيار أكثر فرحًا مما كنتُ أتصور.

لم أقل شيئًا يناسب الحدث غير المتوقع بالنسبة لي، لكنني بقيت أنظر إلى راڤيار بإعجاب ودهشة لمحها الرجل في عينيّ اللتين كانتا تنظران إليه بالكثير من الغموض.

كانت ظهيرة شمس ما بعد نيسان في سوق الأغنام. لقد مر شهرٌ على وجودنا وبدأ القطيع بالتناقص بيعًا وهدايا يهبها راڤيار لا أعرف لمن، ولم يخبرني بشيء. وأخذ الجو المشمس يبدد الشعور بالبرودة اليومية اللذيذة التي اعتدتها في المدينة.

دخلنا في الليل المظلم الساكن بعد نهار طويل في السوق الفارغ، إلا من أصوات متفرقة لسيارات شرطة الحِسبة المتسارعة في ليل شنگال، وكان نور الدين في مكانٍ آخر، وبيتٍ آخر معتادًا على الوحدة الثقيلة في ليل المدينة الطويل.

- الهدف الأول تحقق، عرس جديد.

قال راڤيار بما يشبه الهمس لمست الفرح الخفي فيه.

- ولشتُمان؟

- اششششش كل شيء يجري بصمت.
كبحتُ فورة الدهشة التي فاجأتني وبقيت أنصت:
- كلما يقل عدد القطيع، تزداد فيه إمكانية زواج الأعمى من أسيرات شنگال لديهم. فهمتني أخي سربست؟
هززت رأسي فقال وصوته ما يزال خافتًا:
- غدًا سأحضر زواج نور الدين، وأنت تبقى مع الأغنام ونلتقي ليلًا.
نهض إلى المطبخ وانشغل بإعداد قوري الشاي، وبقيت على صمتي أتأمل، لكنه نادى:
- سأهدي العريس كبشًا، وأذبحه تحت قدمي عروسته الجديدة.
وحينما عاد بالشاي جلس أمامي مباشرة كأنه يلقنني:
- نور الدين الورقة السرية المهمة لنا، وأي خطأ سيأكلوننا أحياء كالطبيب الحلبي.
أخرج من كيس صوفي معلق على الشباك خبزاً يابسًا:
- هناك حلقات متصلة بيني وبين نور الدين، وآخرين لا تعرفهم للوصول إلى الأسيرات.
فتحتُ عينيّ، كما لو أن الإنصات في هذه اللحظة هو إنصات العيون:
- البحثُ يجري عن نشتُمان بالمال والذهب. فهمت؟
اتسعت عيناي أكثر مما يجب:
- وسيتزوجها فيما بعد نور الدين.. وستهرب منه كما هربت زوجاته السابقات على التوالي، وهذا السر العظيم بيننا!

كنت أنظر بقلق ممزوجًا بدهشة، وطار خيالي بعيدًا:

- زوجات نور الدين الهاربات الآن يتمتعنَ بالحرية. فهمت؟!

طار رأسي إلى يوم الاحتفال ببنات لالِش الأسيرات العائدات. إلى ساعة التعميد في العين البيضاء. الفرح والرقص والبياض. جبل عرفات. راڤيار المخلّص الأمين.

صبّ المزيد من الشاي:

- نحتاج إلى وقت إضافي لنخرج بزوجتين في الأقل من زوجات الأعمى ههههه

لم أضحك ولم أبتسم.

- رندة. هي الأسيرة التي اشتريتها. أووه. وهبها المجاهد أبو المعتز، لتكون زوجة لنور الدين..!

بقيت مشدوهًا وخائفًا:

- سنبيع بعض الخراف. أبو المعتز طلب واحدًا، وأبو سياف أيضًا.. سنتخفف من عدد القطيع لكي يكون الرجوع أخف علينا.

ظل جسدي يختض، وغمرتني ارتعاشة باردة، سرعان ما تحولت إلى حمّى مع الوقت، وكان الليل أطول مما يجب عليّ في هذه الليلة التي سخنتُ فيها كثيرًا وتصدّع رأسي، وقد تقاذفتني الخيالات يمينًا وشمالًا، وصورة نشتُمان لا تفارقني بكل أشكالها الطفولية التي أستدرجها كل ليلة إلى رأسي وذاكرتي وأبوتي الجريحة.. بابو.. نشتُمان..

لا أعرف لماذا غمرتني كراهية مفاجئة للأعمى نور الدين.

هل هي كراهية بالفعل أم شيء آخر..!

سأعلّقكَ على هذهِ الشجرة

مع أول الصباح فوجئ أبو الخير التونسي بعجلة مكسوّة بالطين، تجاهد بصعودها البطيء على السفح، وهي تشخر بقوة نافثة وراءها خرطومًا من الدخان والغبار، وبدت له كدبابة عجوز تنوء بالصعود، وحينما رصدها بناظوره أشار إلى حاشيته من الجنود والحرس أن يرتبوا المكان، ويأخذوا مراصدهم المعتادة على التلال القريبة؛ فهو يعرف مراقبة المجاهد الكبير أبي العينين للمناطق الحدودية المتاخمة لقوات شرفدين التي تشاغل المكان في بعض الأحيان بأسلحة خفيفة، أو ترسل كمائن تتخفى بين الأشجار والصخور.

مثل هذه الزيارات تتكرر بأوقات مختلفة، وربما يكون فيها بعض الملاحظات والتوجيهات، ووجوب الحذر من المباغتات العسكرية؛ لكنه لم يكن يشعر بالارتياح كلما زاره هذا المجاهد النحيل. فالرجل قاسٍ وفي رأسه غرائب ليس من السهل استيعابها، كأن ينتظر نبوته التي طالت عليه لكنه يتوقعها، أو يتغذى على نهود الصبايا بوصفه طبًا نبويًا قاله له الرسول في أكثر من رؤيا!

شخرت العجلة، ووقفت مخلفة وراءها غيمة دخان أبيض، فنزل منها أربعة مسلحين بأزيائهم السود، ثم خرج أبو العينين بطوله العجوز ولحيته الطويلة.

- السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتهِ يا أنصارَ اللهِ ومجاهديه. اللهمّ اجعلْ صباحَهم أملًا ويسرًا وانصرْهُم على القومِ الكافرين.

عانقه التونسي محتفيًا به، وقاده إلى غرفة محصّنة تقع أسفل صخرة قريبة، وبقي جنود الحماية الأربعة على مدخلها.

- وددتُ أنْ أنبّهكم إلى ضرورةِ حمايةِ حدودِ دولةِ خلافتنا منَ المتسربينَ والفارّين أيضًا، ولا نريدُ أيةَ ثغرةٍ ينفذُ منها أعداءُ اللهِ من الأيزيديينَ الكفرةِ والكردِ المارقين.

كان التونسي ينظر إلى عينيه البارقتين بوميض غريب:

- كل شيء تمام شيخنا الفاضل. لا تقلقوا من هذه الجبهة.

ردّ بصرامة:

- نقلقُ كثيرًا من هذهِ الجبهةِ يا أبا الخير.

ازداد الوميض في عينيه، وهو يرمق التونسي بعينين شرستين:

- لا دالّةَ على المجاهدينَ هنا، ولا شهادةَ نتمكنُ منها لثبوتِ تقصيركم لكنْ أشيرُ إلى أن أسيراتٍ أيزيدياتٍ هربنَ من هنا بأوقاتٍ مختلفة خلال فترة متقاربة.

اضطرب التونسي قليلًا لكنه تماسك بينما واصل أبو العينين:

- ليسَ عندي دليلٌ ضدّكَ. لكنكَ مجاهدٌ في سبيلِ اللهِ، ومن أنصارهِ، وقد تركتَ ديارَكَ ومالَكَ وحلالَكَ حتى تنصرَ المجاهدينَ

على أرضِ الرافدين، لنوطِّد رايةَ الإسلامِ في كلّ مكان.

وقبل أن ينطق أبا الخير بشيء واصل العجوز وعيناه مخنزرتان:

- تعرف أن طلائعَ مجاهدينا على مشارفِ بغدادَ الآن؟

هزّ التونسي رأسه وفتح ابتسامة رضا على وجهه:

- لا نسمحُ بأيّ خرقٍ من هنا، ومَن يُحاول الهربَ اذبحوه، أو احْرقوه حيًّا، حتى من دونِ الرجوعِ إلينا. هذه أوامِرُنا.

تمكن أبو الخير من أن يقول:

- إن شاء الله هذه الجبهة تبقى أمينةً، وشبابنا يحرسونها ليلَ نهار. وليس هناك ما يُقلقنا.

نهض أبو العينين وعيناه غامضتان فتبعه التونسي إلى باب الصخرة:

- أكثرُ من ست عرائسَ هربنَ.. يا تونسي..!

ثم التفت إليه وقال بلهجة غير معتادة:

- أيُّ هروبٍ لأسيرةٍ سنجارية من هذا المكان، سأعلّقكَ على هذهِ الشجرة وأحرقكَ حيًّا.

وأشار إلى شجرة حور عالية تفتحت الشمس عليها قبل قليل.

لم يقل شيئًا آخر.

ترك كلامه صريحًا ومباشرًا، تردد صداه طويلًا في رأس التونسي الذي بقي واقفًا، مسمّرًا في مكانه، يراقب بخوف سيارة الأمير الكبير التي يسمع شخيرها، ويرى دخانها عاليًا.

رندة.. ابنتي

1

كان عليّ أن أخفي الكثير من القلق بين شلّة **ابن تيمية** الذين برعوا في جعل الزفاف جميلًا ومتواضعا، ومع توصيات أبي المعتز الدائمة: لا تهرب عروسك هذه المرة. كن فحلًا يا أعمى.

كنت في وضع لا أحسد عليه، بين عرس إسلامي غريب عروس لم أرها، لكن قيل أن اسمها رندة وعمرها 21 سنة، مطلقة خمس مرات، اشتراها لي.. راقب. لا **أبو المعتز** ، هو الذي اشتراها لي من صديقه المزواج **حذيفة الحجازي**، القريب من جماعة **أبي العينين**؛ وكان المهر المقدم نسخة من القرآن الكريم، وكبشًا صار وليمة محترمة للجماعة في ليلة الزفاف، والمهر المؤخر دينار فضي من العملة الجديدة لدولة الخلافة. لكن في واقع الأمر دُفِع مبلغ آخر لم يُكتب في العقد، وهذا متفق عليه مع.. مع مَن؟ لا أدري والله.

عقد لنا قاضي **سنجار** الشرعي، عقد الزواج وتركنا نوقع ونبصم على اسمينا، وهنأني متمنيًا لي الخير والحياة الرغيدة في

ظل دولة الخلافة الإسلامية، في ولاية الجزيرة، وسلمني عقدًا أصوليًا كما في كل مرة.

لم يطل الحفل ولم يستغرق وقتًا طويلًا سوى العشاء الذي حضره شلّة ابن تيمية، وبعض الأصحاب من الأفغان والسعوديين والعراقيين، الذين باركوا لي الزيجة الجديدة، وهنّأوني بصدق.

كنتُ قلقًا وخائفًا بدشداشة العرس البيضاء؛ وهي ذاتها التي أرتديها في كل عرس بمشاعر مضطربة، لكن يقابله شعور آخر بالفرح الآخر، وأنا أقود عروستي الصغيرة الجديدة إلى داري المظلمة التي أوقدها راقيار بالشموع والفوانيس، وهيّأ فيها الكثير من الطعام والأفرشة النظيفة التي جلبها من بعض البيوت المهجورة.

2

كانت رندة تبكي، وكانت عيناي تدمعان خلف النظارة. لكنّ قلبي مضطرب بعض الشيء.

قلت للعروس الصغيرة المكللة بعباءة إسلامية تخفي فستانًا أبيضَ يغطيها من أعلى إلى أسفل، فبدت كأنها قالب ثلج:

- الآن أنت في أمان.

نشجت قليلًا، وكنت يقظًا أتحسس اللحظة الحرجة لها، بضمير مسؤول اعتدته في زيجاتي السابقات، وكانت المسافة بيننا كافية لأن نتحدث بهدوء.

- أنت كابنتي رندة!

تحرك عمود الثلج، وانزاح البياض قليلًا عن وجهٍ صغير، أمكنني أن أراه بصعوبة حتى قبل أن ينحسر النقاب كله.

بهتت وتوسعت عيناها الحزينتان، واكتسى وجهها باضطراب أفهمه، لأنه ببساطة مرّ بي بست زوجات سابقات في مثل عمرها.

- لا تخافي، أنا لستُ زوجًا لك. أهلك بخير وينتظرونك.

انزاح النقاب الأبيض كله فخرج وجه صغير يبكي بصمت، وبللته دموع كثيرة، لكنني كنت أقطّر لها المفاجآت بالتدريج لكي تكون على تمام الحالة الجديدة التي هي فيها:

- عليك أن تكوني هادئة. أنا بمنزلة أخيك الكبير. لنقل أنا مثل والدك لهذا عليك بكتمان السر.

كان وجهها بحيرة صغيرة من دموع تنسكب، ولا تتوقف، وكانت عيناها تتسعان في كل لحظة، لكنهما بقيتا ثابتتين على وجهي.

- لا أفهم.

كان صوتها متحشرجًا، وخائفًا، وفيه الكثير من الرعب.

قلتُ محاولًا أن أعرّفها بنفسي بشكل بسيط:

- أنا الأعمى **نور الدين** ابن **سنجار** المسلم. قد لا تعرفينني لكن والدك يعرفني ووالدتك!

- أعمى؟

تساءلتْ وتمتمتْ بدهشة واستغراب، وهي تنظر إلى وجهي

بشـك، وكنـت نسـيت نفـسي في الموقـف المضطـرب، والمتناقـض كـوني عريسًـا جديـدًا لهـا، هههـه، فحاولـت أن أضـع النظـارة عـلى عينـي لأبـدو أعمـى مـن جديـد.

كنتُ هادئًا.

أتحدث بهدوء.

وأتـصرف بهـدوء لـزرع اليقـين في هـذه الصبيـة التـي أخرجناهـا مـن تلـك الظلـمات.

ركّبتُ العوينات السوداء على وجهي، وقلت لها وأنا أضحك:

- الآن أصبحتُ أعمى هههه.

لم تضحـك لكننـي لمحـت طيـف ابتسـامة ضعيفًـا عـلى وجههـا، حاولـتْ ألا يظهـر، وبقيـتْ منحـسرة عـلى نفسـها ومحشـورة في بدلـة عرسـها.

- أهلك بخير.. كلهم في مخيم شاريا.

بهتت الفتاة وهي تديم النظر لي كأنني عفريت أمامها.

- هـذه غرفتـك وهـذا فراشـك وأنـا بمثابـة أبيـك. لا تخـافي. أنـت الآن حـرة. لكـن عليـك كتـمان الـسر حتـى تعـرفي كل شيء.

تطلعــت لي بعينــين مذهولتــين، مــا تــزالان غارقتــين بالدمــوع، وأطرافهـا ترتعـش. كانـت مـلاكًا صغـيرًا حزينًـا كأنهـا في حلـم أبيـض تغـرق فيـه الآن.

- يعني. أنتَ لستَ زوجي؟

تساءلت بصعوبة وكان صوتها يرتعش.

- لا. أنــا أبــوك أو أخــوك الأكــبر. أنــا ســنجاري مثلــك. لا تخــافي. اعتــبري نفســك الآن حــرة غــير مقيــدة كالســابق.

- وأنت لست أعمى؟

- أعمى. ولستُ أعمى هههه.

تشــجعتْ قليــلًا، وتوســع الطيــف الصغــير في وجههــا، ومــا تــزال عيناهــا تبكيــان.

اقتربت مني وأزاحت النظارة عن عيني بيدين مرتعشتين:

- هل هذا صحيح؟

نهضــت مــن مــكاني وأنــا أتــصرف بتلقائيــة لــزرع المزيــد مــن الثقــة بيننا .

- صحيــح. خــذي راحتــك واســتبدلي ملابســك. أنــت ابنتــي في النهايــة.

تساءلت بصوت غالبَهُ النشيج المتقطع:

- هل يحدث هذا في شنگال، وفي مثل هذه الظروف؟

قلت لها بحب، وكنت أرى وجهها وقد استقرت ملامحه قليلًا:

- في الحــرب يحــدث كل شيء. وعلينــا أن نحتــال عليهــا بالطــرق كلهــا.

يخرج من الحفلة الوحشية بدماء أقل

سـهلٌ أخـضر منبسـط عـلى مـد البـصر، تـوزع القطيـع يرعـى عليـه تحـت شـمس بيضـاء في صبـاح سـاكن إلى حـد كبـير.

لم يقـل راڤيـار شـيئًا، فقـد كان منهكـمًا بقطـف أزهـار البلبـل الناعمـة، وتجميعهـا في حضنـه ليصنـع منهـا كمشـة صغـيرة، أخـذ يفركهـا ويستنشـقها بعمـق، وكان يكـرر الأمـر أكـثر مـن مـرة ويسـتطيب عصـارة أزهـار البلبـل الملسـاء، بينـما مـددتُ جسـدي ناظـرًا إلى السـماء البعيـدة حيـث نشـتُمان تـتراءى لي كـوردة بيضـاء وزرقـاء، يحيطهـا قـوسٌ مـن الشـوك المدبـب، ثـم تتحـول بـين لحظة وأخـرى إلى فراشـة محـاصرة باللهـب، ثـم إلى عصفـورة في قفـص، ثـم إلى صـورة غائمـة تضيـع فيهـا ملامحهـا، كـما لـو تبدلـت كثـيرًا، واكتسـبت أنوثـة مغتصبـة، ومغـدورة، كانـت فيهـا لا تنظـر لي بـل تعطينـي ظهرهـا بمواجهـة قطيـع مـن الذئـاب المنتـشر حولهـا.

يأتينـي وجـه نـور الديـن الأعمـى، بنظارتـه السـوداء. يهبـط مـن السـماء البعيـدة كوجـهٍ سـينمائي شـاهدته كثـيرًا في أفـلام الأسـود والأبيـض، لا سـيما أفـلام الجاسوسـية والمغامـرات.

أزحـتُ عنـه النظـارة الملازمـة لوجهـه، فتكشـفت لي الكثـير مـن

ملامحـه السريـة المخيفـة، وبـدا لي كائنًـا آخـر لا يمكـن فهمـه بسـهولة، مكتسيًا كل يـوم بحلّـة تزيـده غموضًـا، وكنـت أحسـده عـلى هـذه الجـرأة والشـجاعة التـي لا يعرفهـا غـير راڤيـار، كوجـهٍ مجهـول لا يعرفـه الشـنگاليون.

في ليلـة زواجـه الماضيـة حلمـتُ بـه حلـمًا سـيئًا. تبـدّل وجـه الطبيـب الحلبـي المصلـوب بـه فأكلـه المجاهـدون حيًّـا، بنـاءً عـلى قـرار القـاضي الشرعـي الـذي عـدّ فيـه الحلبـي جاسوسًـا عـلى دولـة الخلافـة، لكـنّ **نـور الديـن** وهـو في صَلبـه كان يضحـك، ويقـول أشـياء غريبـة لم أسـتطع فهمهـا، فيثيرهـم غيظًـا ويُمعنـون بأكلـه، لكنـه لم يمـت حيـث كان جسـده يتعـافى، وأطرافـه المقطوعـة تعـود إليـه، وجلـده المسـلوخ يتحـول إلى دشداشـة بيضـاء تغطـي جسـده النحيـل.

أفـزُّ عطشـانًا كأننـي خـارج مـن حريـق، ألهـث ونـار صغيرة تشـبُّ في أطـرافي؛ ولم أخـبر راڤيـار بحلـم سيء كهـذا، تكـرر عـليّ مرتـين بالصيغـة ذاتهـا، لكـن **نـور الديـن** كان يخـرج مـن الحفلـة الوحشـية بدمـاء أقـل، تكشـفها دشداشـته البيضـاء كلطخـات عابـرة، سرعـان مـا تنمسـح فتنفـضُ عنـه شـلّة ابـن تيميـة مـن الشـباب الجائعـين إلى الدمـاء، بينـما تنتابـه نوبـة ضحـك لا نهايـة لهـا.

أعيد ترتيب الكثير من المشاهدات خلال أكثر من شهر.

أعيـد الشريـط كلـه، ورحلـة الجبـال السـبعة حتـى دخولنـا إلى المدينـة، فأتوقـف هنـا وهنـاك. المغـارات الطامسـة في بطـون

الجبال، والكهوف غير المسكونة، والتاريخ الضائع هناك، والقرى التي تحفظ الراعي رافيار ويحفظها، والدواعش الذين مدّ معهم أواصر صداقة غريبة من نوعها، لا تخطر على بال أحد.

«صادقْ عدوّكَ كلما وجدتَ فرصة لذلك»

كان يقول لي هذا ولم أفهم جيدًا.

«في الحرب لا يوجد عدو أبدي، ولا صديق دائم. إنها علاقة مصالح مشتركة»

كان على حق على ما يبدو.

«الإنسان مهما كان منتصرًا، فإنه يبقى ضعيفًا، ولن تملأ غريزته إلا الحرية والسلام، لهذا تجد أن المنتصر يستعجل انتهاء الحرب، لأنه لن يقوى على الحفاظ بنصره إلى الأبد. علينا أن نفكر هكذا لكي نهزم عدونا، لا من أجل أن ننتصر، لكن من أجل ألا ننهزم مرة ثانية، ونضيع في الوديان والسهول والمخيمات كما يحصل الآن»

بفطرة عجيبة يقنعني بأن الانتصار ممكن في بعض الأحيان حتى، ولو كان فرديًا.

«السوط يستسلم إذا كان الجسد صامدًا. والرصاصة لا تقتل الشجاع، بل تحيي فيه جينات البقاء والخلود»

كان رافيار حقيقيًا ومذهلًا، لكنني بروح الفرد اليائس الذي ينظر إلى فرديته المطلقة، كنت أقابله بلعنات لا تنتهي عن الذين سرقوا ابنتي، واغتصبوها عندما نكون في الغار الموحش،

وفي الخارج أصوات ذئاب وكواسر، ومعنا نعاج وخراف تغري الضواري بالتقرب منّا، وكان يرد ببساطة:

«لا تلعن إلهًا لا تعبده، فإنك تُحيي فيه غريزة الدفاع عن نفسه»

يوضّح لي كجاهل لا أقوى على الفرز والتفكير:

«لا تلعن الدواعش، فإنهم عبارة عن آلهة جدد، ودماء رقابهم مسفوكة أمامهم بلا تردد، وأجسادهم ملغومة بالموت، وأسنانهم مهيأة لتأكل الصخر والحجر والأخضر واليابس. تعامل معهم كآلهة عادوا من التاريخ الأسود، وأنهم على حق، وأننا حيوانات كافرة نهرع إليهم لنتوب أمامهم كهذا القطيع. واترك فكرة خودا القديم فإنه لا ينفع الآن. الدين تغير يا صديقي والحياة تغيرت كثيراً».

عرائس في طريق الألغام

منذ ليلة الزواج وهي تبكي.

لا تمر لحظة إلا وهي تنشج وتتألم.

أسبوع صعب لا تستطيع أن تستوعبه، فتبدو كأنما خارجة من كابوس، ودخلت في غيره.

لا تريد أن تصدق أن الحياة منحتها في لحظة مناسبة، أو غير مناسبة، فرصة النجاة بالرغم من هذه الزيجة الجديدة، لكنها أدركت أنها فرصة محفوفة بالخطر والموت حرقًا، فتشظّت من داخلها ولم تستطع التوازن كثيرًا، وكانت في أوقاتٍ كثيرة ترى أهلها خلف جبل سنجار الشاخص، تقيس المسافة بينها وبينهم، كما تقيس قلبها ونبضه الخافق فتجد الأمر صعبًا ومستحيلًا.

زوجاتي قبلها كنّ يبكينَ وينشجنَ على طريقتها، وربما أكثر. واحدة فقط خافت وارتبكت وانشطرت روحها لأنها شهدت ذبح قريبتها أمامها، فانعقد فيها خوف كبير، وهربت في لحظة حساسة كما روى لي راقيار فيما بعد، حينما اصطادتها ألغام دولة الخلافة المجنونة، ومزقتها، وكاد السر ينكشف لولا أنها

ماتـت ومـات معهـا الـسر، وكان موتهـا نجاتنـا جميعًـا.

نجوت من الشك فعلًا.

وأحاطتنـي شـلة ابـن تيميـة بالرعايـة اللازمـة، ووعـدوني بتعويـض العروسـة، وهـذا مـا فعلـوه لاحقًـا بعروسـة أخـرى هربـت أيضًـا، لكـن طريقهـا كان سـليمًا بـلا ألغـام.

- لا ترهقي نفسك بالبكاء يا ابنتي.

ترفع وجهها الصغير وتعترف بطفولة:

- أشعر وكأنني في اختبار. أنا خائفة.

- لستِ الوحيدة التي أخذناها بهذه الطريقة.

تتساءل بالبراءة ذاتها:

- أين الباقيات؟

- في **شيخان ولالِش ودهوك وسرسنك**.

فتحت عينيها بوسعهما متشككة:

- صحيح؟

- هناك يتمتعن بالحرية والسلام. فما مضى قد مضى.

- كانت **شيلان** معي في الأسر سنة كاملة.

- **شـيلان** كانـت خائفـة مثلـك حـين تزوجتهـا بنفـس الطريقـة، وبقيـت شـهرًا حزينـة، ومتوحـدة، حتـى اسـتوعبت الفكـرة.

- واين **زيان**؟

- في مخيم **شاريا**. عادت إلى حياتها والتحقت بدراستها.

- آخر مرة سمعت أنهم باعوها للمرة الرابعة.

- أنا اشتريتها بالمرة الرابعة، هههها.

- معقولة؟

جلسـت أمامهـا وخاطبتهـا بهـدوء، بعدمـا وجـدت أنهـا بـدأت تسـتوعب حالتهـا:

- عليـك أن تهـدأي يـا رنـدة ولا تنفعليـا. سـتنتهي الأمـور بالراحـة. اسـتوعبي أنـك الآن شـبه أسـيرة مثـلي، وسـنعيدك إلى أهلـك.. لا يوجـد بيـع وشراء بعـد.

عادت إلى الشك:

- من أنتم؟

تفاديتُ شكّها:

- روژين وداستان وچنار كنّ هنا. في هذه الغرفة الصغيرة.

- أكاد لا أصدق.

- كوني هادئة وفكري بمصيرنا لو انكشف أمرنا.

- وهل أرى أهلي؟

- إن شـاء اللـه. فقـط اسـتوعبي أنـك معـي ولـو كزوجـة شـكلية. أنـا بمثابـة أخيـك الأكـبر أو أبيـك. لا تقلقـي.

- أكاد لا أصدق. لا أصدق.

وعادت تجهش ذابلة العينين، وتشبثت بي بطريقة طفولية.

الله – الدين

منذ يومين أخذ خمس نعاج، وتركني في السوق ولم يعد.

قال لي لا تقلق لو تأخرت عليك بضعة أيام، فالعمل يقتضي أن أجوب القرى في أطراف شنگال. قطيعي قليل ويمكن السيطرة عليه.

أوصاني ألا أتحدث مع نور الدين في الجامع، مثلما أوصاني أن أواظب على الصلاة في الجامع بمواقيتها الخمسة، فهؤلاء يفتقدوننا وجماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شذاذ وشرسون، وواحدهم إله تام يبحث عن عرش وسماء.

شلة ابن تيمية اليومية التي تزيد من عدد أفرادها أو تقل؛ أتحاشاها قدر الإمكان كما أتحاشى لغتهم الصحراوية الفصيحة التي تخيفني فعلًا، وتجعلني غريبًا لا أقوى على الاندماج في مجتمع يطوي الكلام بين لسانه وشفتيه، ويفتعل الحركات بطريقة سمجة، لكن أشد ما تخيفني الآيات القرآنية التي تبعث على الرهبة، حينما يتكلمونها بالضمة والفتحة والكسرة والشدّة والإدغام، فتنقبض روحي وأشعر أن الإله ليس هو الذي أعرفه، وتمرنتُ عليه كل طفولتي وشبابي حتى كبرتُ، وأنجبت نشتُماني

الوحيدة التي علمتها أن تتكل على خودا العالي في السماء في كل صغيرة وكبيرة، فذلك الإله هو خودا العظيم ذو القلب الطفولي الأبيض، وإله هذه الشلّة جعلوه قاسيًا ومتوحشًا وذبّاحًا، لا يفرّق بين الفقير والطفل والمرأة والشيخ المريض، جعلوه سفاحًا، يذكّرني بالمتوحشين البريّين الذين يأكلون الغرباء.

توصلت عبر كل هذه العلاقة المفروضة بيني وبينهم أن الله ليس هو دينهم، ولا الدين عندهم هو الله، إنما هما اثنان لا يتشابهان إطلاقًا؛ كالصحراء والبحر؛ لكن أهل تيمية يحاولون ملء الخوابي بخمرة الدين، ثم يصنعون خمرة الله كيفما يريدون، ويحولون الله إلى ذبّاح ومتوحش ويملأون جِرارنا بهذه السُّكرة الغريبة، أو نموت باسم أحدها.

أترك الغنم محصورًا في السوق بين أقفاص من الجَريد، والتنك، بعد أن أملأ حوض الماء وأنثر بقايا البرسيم والقش وأمضي بين الأزقة التي يصفر فيها الفراغ، لأعيد الماضي القريب وذكريات المدينة التي غرّبتني فيها أكثر من مرة، متذكرًا عيدو المجنون الذي أحمل عصاه التاريخية، المحيّرة بشفراتها ورموزها؛ وليالي الحامل الرائعة التي لا تريد أن تلد.

أمرُّ على ضريح الشهيد الخال **عفدال** الذي نشأ في ظروف غامضة، لكنه الآن مهجور وتراءى لي أن شجرة التين التي ارتوت من دمائه ذات يوم قد تيبست إلى حد ما، وأن البيوت مشرعة الأبواب تشي بعزلتها عن العالم الكبير.

أخاف خودا وشيخادي

هدأت رندة كثيرًا خلال اليومين الماضيين، وتيقنتْ من مغامرة الزواج بطريقة الشراء المتبعة بين القوم. لكنها بقيت تنشج بين وقت وآخر حتى اطمأنت لفكرة الخلاص المرتقبة من دون أن تعرف التفاصيل، وإن بقي فيها شك ما وخوف وقلق لا تستطيع أن تتجاوزه في يومياتها معي.

أكثر من مرة حاولت أن تعرف كيف يمكن تخليصها من المكان. لكنني بقيت أعمى وأصم لا أقوى على الوشاية الآن.

- أنت مسلم أم أيزيدي يا عم نور الدين؟

تسألني بحذر.

- أنا كما أنا.. اسمي نور الدين لكنني أعمى.

تعاود السؤال بطفولة:

- ودينك؟

- ديني الإنسان والجمال والسلام والحرية.

- لا أعرف أتكلم هكذا يا عم نور الدين.

- لا يهم.. اسمعي فقط.

تفرك بيديها وكأنها تلتمس مني شيئًا:

- ولكنك لست أيزيديًا كما أشعر.

- وهل هناك علامة لدى الأيزيدي؟

تقول ببراءة جميلة:

- أسمعك تصلي في آخر الليل والفجر صلاة المسلمين.

- كلها صلاة.. الله واحد. وهو خودا العظيم كما تسمونه.

تتساءل أيضًا:

- أنت لست أعمى. صح؟

- أرى قليلًا.

تطمئن كثيرًا وتسأل:

- أنت متدين؟

- لا. لكنني مؤمن.

- وشنو الفرق بين هذا وذاك؟

- المتدين مجنون. والمؤمن عاقل.

- ههههه

ضحكة حزينة لكنها معقولة في جو ملبد بالأسى الكثير.

- وماذا عنكِ أنتِ؟

- أخاف خودا وشيخادي، وأحب معبد لالِش، وعيد الأربعانية، والسنجق.

- هل تصلين؟

- لا

- كم عمرك؟

- الآن دخلت في سنتي الثالثة والعشرين.

لا يوجـد شيء في الخـارج سـوى السـيارات القليلـة التـي تتنـاوب في الشـارع العـام، وسـوى هـواء خفيـف يحـرك الأشـجار.

- أعمل شايًا.

تنهـض بخفّـة وتـترك أسـئلتها تمـور في داخـلي، وأسـمع حركتهـا في المطبـخ، ويعكـس ظلالهـا نـور شـمعة بطيئـة النـور، وأحـاول أن أبقـى عـلى قيـد الصلـة الأبويـة بهـذه الصبيـة التـي فقـدت الكثـير مـن روحهـا ونضجهـا وجـمال روحهـا.

- كيف كانت حياتك معهم؟

وضعـت صينيـة صغـيرة بيننـا، وهـي تلـف جسـدها ببطانيـة مخططـة.

- جحيم.

خرجت الكلمة منها بلوعة وأضافت بشكوى طفلة:

- كل يـوم نمـوت ألـف مـرة. لا يمكـن أن يكـون هـؤلاء بـشرًا يـا عـم. مسـتحيل. حيوانـات شرسـة.

كنـت أذلـل مثـل هـذه الهواجـس المعرشـة فيهـا عـلى قـدر الإمـكان:

- انـسي كل شيء. الحيـاة هـي مـا سـيأتي في المسـتقبل القريـب. نحـن بـشر ضعفـاء لكـن قوتنـا في أرواحنـا مسـلمين أو أيزيديـين. أنـت الأيزيديـة عذبـوك وأنـا المسـلم وضعـوا الجمـر في عينـيّ.. لا فـرق بيننـا في العـذاب يـا ابنتـي.

نشـجت بصمـت، وكنـت أعـرف أن الكثـير في رأسـها لا يغادرهـا، فـما زالـت في أرض مسـتباحة ومـن حولهـا تلـك الوجـوه الصفـراء، والسـحنات المخيفـة، والأشـهر العصيبـة التـي مـرت عليهـا.

- كم مرة زوجوك؟

انكمشـت وخجلـت كأنمـا فاحـت فيهـا رائحـة أخـرى لا تريـدني أن أشـمها.

- أربع مرات!

- هل تعرفين أزواجك؟

- اي.. لا..

صفنت قليلًا ثم قالت:

- كلهم قتلوا في الفلوجة وتكريت.

سـكتت قليـلًا، وظلـت عيناهـا ثابتتـين عـلى البخـار الصاعـد مـن قـدح الشـاي:

- واحـد سـعودي جايـف بعمـر والـدي وهـو الـذي اغتصبنـي. وواحـد فلسـطيني ينـام وهـو يرتـدي الحـزام الناسـف. والآخـر أفغـاني كبـير السـن أيضًـا. و..

توقـف الـكلام في فمهـا وأظنهـا شـعرت بالخجـل، متيقنًـا مـن أن الصبايـا أكـثر حيـاءً مـن غيرهـن فيـما يتعلـق بأجسـادهنَ.

- هـذا قـدر غريـب. المهـم أنـت بصحـة جيـدة الآن، وسـتعودين إلى أهلـك بـإرادة اللـه العظيـم.

قالت من بين دموعها:

- أهلي؟ هذا حلم أن أعود إليهم حتى لو يقتلونني.

طمأنتها:

- بقيـت الخطـوة الأخـيرة، وتكـوني بـين أهلـك وتعـودي إلى دراسـتك.

كان بيننـا ضـوء خافـت ورائحـة لِيـل وتوجسـات كثـيرة، وهـذه الصبيـة التـي معـي دَيْـنٌ ثقيـل، أمنّـي نفـسي أن أكـون عـلى قـدر هـذا الحِمْـل الباهـظ، مثـل الصبايـا اللـواتي تزوجتهـنّ وانتشـلهنّ الراعـي **راڤيـار** بطرقـه المغامِـرة العجيبـة.

- أسألك عن صبايا كثيرات لو كنتِ تعرفينهنّ.

- الشنگاليات كلهنّ أعرفهنّ تقريبًا.

أنصتُّ إليها بحاسة استثنائية وأنا أسألها:

- هل مرّت عليكنّ صبية اسمها **نشتُمان**؟

- **نشتُمان**.. نعم.. صبية حلوة شنگالية وصغيرة.. عيونها زرق.

تنفست قليلًا وتساءلت من جديد:

- وأين هي الآن؟

صمتت لحظة:

- آخـر معرفتـي بهـا كانـت عنـد الأمـير الحقـير والمكـروه الـلي يسـمونه **أبـا العينـين**.

قلت باستنتاج سريع:

- يسمونه الراضوع؟

انتابها خجل وهي تهز رأسها:

- ههه.. اي.. أكبر نذل وحقير.

ثم أضافت:

- هـذا الحيـوان هوايتـه جمـع صبايـا صغـيرات الســن، ويرضـع بهـن، ومـا يـأكل مثـل البـشر!

تركتها تستذكر:

- نشـتُمان هنـاك حتـى وقـت قريـب. اعرفهـا زيـن. بنـت حلـوة وأمـورة. بـس تبـكي هـواي!

نظرت لي وكان صوتها المتسائل الهامس قريبًا من وجهي:

- هل تعرفها يا عم؟

- لا.. اي..

سكتت لكنني استدركتُ:

- أبو العينين عجوز ساقط أخلاقيًا.

وافقتني وتنهدت قليلًا:

- نحــن البنــات نخــاف حتــى مــن ذكــر اســمه. نســمع عنــه حكايــات وقصصًــا لا يصدقهــا العقــل.

- كم زوجة عنده حسب ما تسمعون؟

- عـلى القاعـدة الإسـلامية يعتبروننـا سـبايا بـلا عـدد، وهـو كبـير الأمــراء. عنــده عــدد كبــير مــن الصبايــا مخصصــات لرضاعتــه.. ونســاء كثـيرات لخدمتــه.

عادت تسأل باهتمام:

- هل تريد تخليص نشتُمان يا عم؟

بصمة الجاسوس

1

تنتشر القمصان السود الخفاقة مع هواء الصباح، فيتعكر لون الفضاء في عيني **راڤيار**، وهو يحث الخطى منذ يومين مع قطيعه الصغير لمقابلة المجاهد العراقي **أبو فرات**.

أخبره **أبو المعتز** بأن استخبارات الدولة تطلبه، وعليه أن يذهب إلى **كوجو**، فهناك فرع لهذه المديرية يقوده أبو فرات، ومع أن قطيعه صغير، إلا أنه اضطر أن يتخلى عن خروف ضخم وهو يعبر قرية عرضية لمجموعة مجاهدين يشكلون بؤرة عبور إلى كوجو: **هذا غداؤكم اليوم. الحمد لله على نعمته. لدي خير وفير. اذكرونا بخير يا شباب الجهاد العظيم.**

2

في بيت بدا صغيرًا من إطلالته الأولى، لكنه يتسع من الداخل، ويبدو أكثر ترتيبًا بأثاث جديد، ورائحة جوري تتضوع في الحديقة الأمامية، فتنتشر في أرجاء البيت.

ترك أغنامه القليلة في الخارج، وكلّم أحدهم الذي توارى

داخـل البيـت، ثـم خـرج ودعـاه للدخـول.

كان أبـو فـرات قصـيراً، وأطـول مـن قـزم، كـما قـال **راڤيـار** لنفسـه محـاولًا أن لا يُظهِـر ارتباكـه.

- كيف هي الأمور يا غنّام.

- بخير.. الحمد لله. نحمده تعالى على كل حال.

- غبتَ طويلًا.

- الطريق طويل إلى هنا و البيشمركة يمسكون رؤوس الجبال.

جلس أبو فرات وبقي **راڤيار** واقفًا:

- وكيف هي النتائج؟

رد الراعي بثقة:

- البيشـمركة ينتـشرون في كل مـكان مـن حافـات قمـم الجبـال. لديهـم ربايـا كثـيرة.

أشار إليه بالجلوس ووقف هو بقامته المتقلصة:

- ألا تعتقـد أننـا نسـتطيع توسـيع انتشـارنا أبعـد مـما نحـن عليـه الآن؟

حرك **راڤيار** يديه وهو يرسم له شيئًا وهميًا:

- أنتـم مجاهـدون يـا سـيدي ولـن يقـف عائـق أمامكـم. و.. والناس تريـد دولـة الخلافـة في كل مـكان مـن كردسـتان. أنـا واثـق مـن هذا!

زمّ شفتيه وقال وما يزال واقفًا:

- في المــرة الســابقة حدثتــك عــن بعــض النقــاط. كيــف هــو تصــورك عنهــا؟

أعاد الراعي تأكيد ما قاله في وقت ماضٍ:

- كما أخبرتك في أكثر من مرة، فأن الأيزيديين الشباب بسبب العطالة وعدم توفر الأشغال، اضطروا أن يتطوعوا في مجموعات قتالية لمسك الحدود مع **دهوك**، مقابل مردود مادي بسيط توزعه الأحزاب الكردية عليهم.

- يعني الأكراد اشتروا الأيزيديين!

أكد راڤيار:

- ضخّوا فيهم شعورًا بأن مدنهم مغتصبة ومحتلة وعليهم واجب القتال.

- أعدادهم كبيرة؟

- كبيرة إلى حد ما.

- وأين مواقعهم؟

- في كل مكان سيدي المجاهد.

تحرك قليلًا وهو ينظر من النافذة:

- وكيف عبرت إلى هنا؟

- اتخذت طرقًا وعرة بين الوديان والسهول وبلغت سنجار في سبعة أيام.

- أتعتقد أنها صعبة على المجاهدين؟

- لا.. لكنها ليست مناطق قتال.. وعرة بجبالها وعميقة بوديانها والمراصد والربايا كثيرة مثلما رأيت. لكنني راعٍ أتنقل حيثما يوجد العشب والماء، ولا يهمني الوقت كما تعرف.

عاد من النافذة وجلس أمامه:

- أريدك أن تحدد لي مواقع البيشمركة والأيزيديين، وأعدادهم التقريبية، وأي المناطق الفارغة التي لا توجد فيها ربايا ولا مراصد.

حاول ألا ينظر أبو فرات إلى عينيه، فسارع إلى أن ينظر إلى الجدران المزينة بشعارات دولة الخلافة الإسلامية:

- هذا شيء بسيط. سأهيئ لكم خريطة ببعض الأمكنة الطبيعية، ولو أنها وعرة جدًا لكن يمكن أن تنفذ منها دوريات دولة الخلافة لمحاصرة عناصر البيشمركة لقتلها أو أسرها.

- ستكون معنا دليلًا لو صار القرار التوسع لدولة الخلافة.

- حاضر. سأكون دليلكم أينما تريدون.

- ابصم لي هنا.

مدّ أمامه ورقة وبصم على الزاوية السفلى من دون أن يقرأها فقد اعتادها في كل مرة.

موت الراضوع

على نحوٍ مفاجئ، نادى المنادي في ميكرفون الصلاة منذ الفجر بصوت عالٍ ومتكرر ومفجوع؛ معلنًا وفاة أمير الأمراء المجاهد الكبير أبي العينين، ودعا الأهالي والمجاهدين لحضور صلاة الميت وجنازة التشييع في جامع سنجار.

كنتُ بين اليقظة والمنام في الفجر البارد، وكان العم نور الدين يصلّي، وأسمع صوت تهجداته المرنة التي تضفي على روحي الكثير من الطمأنينة.

ظل الصوت يعيد الخبر: **توفي إلى رحمة الله تعالى المجاهد الكبير الشيخ أبو العينين رضوان الله عليه، إثر مرضٍ عضال. أنا لله وأنا إليه راجعون. ندعوكم يا أهل سنجار ومجاهديها المهاجرين والأنصار أن تحضروا صلاة الميت، والدعاء لشيخنا بالمغفرة ورضا الله سبحانه وتعالى، وحضور التشييع الذي سيكون من جامع سنجار حتى مقبرة المجاهدين.**

فتحت رأسي كله وعينيّ وقلبي، وأنا أهبُّ من الفراش بعدما انتهى العم نور الدين من صلاته:

- مات الوحش أبو العينين!

لعلي لم أكن متوازنة، وأنا أعلن مثل الخبر بفرح، لم أستطعْ أن أخفيه، ولم يكن العم **نور الدين** فرحًا مثلي لكنه نبهني:

- كلنا نموت يا رندة. الحمد لله على كل حال. لا ينبغي أن تفرحي لموت أحدهم حتى لو كان عدوكِ.

- لكنه.. **أبو العينين!**

- ولو. الله هو الحق والعدل وسيقتص منه.

شعرت بالخجل، وأنا أتمتم فانسحبت إلى الغرفة، ولففت نفسي من جديد تحت الغطاء، وبالرغم من خجلي من العم **نور الدين** إلا أنني كنت أشعر بالانتصار، وأردد مع نفسي: **مات كلبهم الكبير.. إلى جهنم يا ابن الخنزير.**

لم أستطع إكمال نومي وبقيت أكثر من ساعة أتقلب بفراشي متأرقة، بل فرحة إلى حد كبير بإزهاق روح هذا الخنزير الذي لوّث الصبايا، واغتصب أرواحهنّ بالرضاعة المميتة، واستدرار وهم الحليب الرباني، حتى امتص دماءهنَ، وثقب حلماتهنَ بأسنانه الوسخة.

ماتت أكثر من صبية تحت فمه الشره، ورائحته الكريهة، وأسنانه الذئبية، وكنا نسمع عن هذا في السجون أول الأمر، حتى بيعنا وشرائنا للزواج بالإكراه، وكانت معظم البنات والصبايا يتمنين أن لا يقعنَ بيد هذا الشيخ الخنزير، ويمص دماءهن.

كنّا وما أن تأتي سيرته القذرة حتى نتحسس صدورنا الصغيرة، فتنكمش حلماتنا وتتصاغر أجسادنا، وتسري فيها قشعريرة

خـوف، خاصـة حينـما يسـتعرضوننا بـين فـترة وأخـرى، ويأخـذون الجميـلات الصغـيرات، لكننـا مـع الوقـت أخذنـا نفهـم هـذه الشـفرة، ونعـرف يـوم الاسـتعراض للبيـع والـشراء، فننكـش شـعورنا ونلطـخ وجوهنـا بالرمـاد أو الـتراب، حتـى لا نبـدو جميـلات.

مـرة انتبهـت لنـا المجاهـدة العضاضـة أم الزيـن- هكـذا يسـمونها - فأرعـدت وأزبـدت وعضّـت بكلاّبتهـا الحديـدة معاصـم بعـض البنـات اللـواتي بالغـن بتشـويه وجوههـن، فتركـت فيهـنّ آلامًا وآثـارًا كبـيرة، بل تمـادت أكـثر فباعتهـنّ إلى أرذل القـوم مـن كبار السـن، ومعاقـي الحرب بأبخـس ثمـن، فانتحـرت شـيرين وكاميليـا وتمـارا عـلى أيـام متفرقة.

ظـل النـداء في مكـبر الصـوت مسـتمرًا، حتـى السـاعة الثامنـة صباحًـا، فأخـذ نـور الديـن عكازتـه، ووضـع نظارتـه السـوداء عـلى عينيـه، وخـرج مـن دون أن يقـول شـيئًا، فأغلقـت البـاب وراءه بإحـكام، فـما زلـت خائفـة مـن كل شيء، غـير قـادرة عـلى أن أصـدق أننـي تخلصـت مـن إهانـة البيـع والـشراء في أسـواق الـزواج التـي أذلتنـي كلنـا.

أبقى طيلة النهار أبكي.

أتذكر أهلي كلهم.

أعيد وجوههم الأليفة، فأشعر أنهم ابتعدوا عني كثيرًا.

أعـود ليـوم الفجيعـة الأسـود، فيصيبنـي خـوف جديـد، ويقشـعر جسـمي.

أعيـد وجـوه الذيـن اغتصبـوني فأشـمئز، ويعتـورني الخـوف المركّب

مـن جديـد لشـعوري أنني أحمـل عـارًا لـن يسـامحني عليـه أحد.

مـرة قالـت جيـان: أتمنـى أن لا أعـود إلى شـنگال. سـيقتلني أهـلي لأني أصبحـت عـارًا. ولم تعـد جيـان إلى شـنگال لأنها ببسـاطة انتحرت. علقت رقبتها على مروحة الهول، وأنهت حياتها بسلام.

العـار الـذي لا أنسـاه يشـوّش عـليّ كل شيء، ولا يتركنـي أمـضي أيامـي مـع العـم نـور الديـن بهـدوء، ريثـما نـرى النهايـة كيـف تحدث.

العم نور الدين قال لي أكثر من مرة:

- رجـال دينكـم أصـدروا فتـاوى بحـق الأيزيديـات المغتصبـات اللـواتي أجـبرنَ عـلى الـزواج مـن أفـراد داعـش باعتبارهـنّ طاهـرات وقديسـات، ولا ضـير مـن اسـتئناف الحيـاة معهـنّ فهـنّ ضحايـا مغلوبـات عـلى أمرهـنّ.

أحبك يا عم نور الدين.

هل صحيح ساعود إلى أهلي؟

هل أرى معبد لالِش النوراني من جديد؟

لكنـك لم تخـبرني يـا عـم كيـف سـتهرّبني إلى أهـلي وأنـت الأعمـى الضر ير ؟

جنازة الوحش

1

يومٌ ولا كل يوم.

عدتُ مسرعًا من **كوجو** بعدما سمعتُ بنبأ وفاة المجاهد الشيخ **أبي العينين**، حتى أنني أهديتُ نعجة لمجاهد شاب استوقفته في الشارع العام الذي كنت أسلكه، وأوصلني بسيارته البيك آب إلى **سنجار** مع أغنامي القليلة. قلت له هذه النعجة لوجه الله.

استكثرها المجاهد لكنني طمأنته بأنني يجب أن أحضر تشييع جنازة الشيخ **أبي العينين**، فوصلنا إلى شارع المدينة الرئيسي، وكانت السيارات كثيرة جدًا أغلقت الشارع تمامًا.

أنزلت أغنامي مسرعًا إلى السوق، حيث وجدتُ **سربست** يبدد الوقت بقراءة عصا عيدو.

- كنت قلقًا عليك.

- علينا أن نكون في موكب التشييع حالًا، فالمدينة غصَت بالمجاهدين والأشراف والشيوخ والأمراء من كل سنجار وما

حولها، حتى أمراء الجزيرة وتكريت والموصل سيصلون.

تركنا الغنم في السوق، وأحطناها بالتنك والكارتونات والحبال المتيسرة، وذهبنا راجلين إلى الجامع وخطواتنا مسرعة بعض الشيء.

2

كانت البيوت والأزقة قد أخرجت الكثيرين من الرجال لهذا اليوم المشهود الذي امتلأ به الجامع، حتى فاضت حشود الرجال إلى خارجه، بينما اكتظت الأرصفة والفروع والشوارع بأنواع السيارات الرسمية والأهلية، ونزل منها كثيرون لا أعرفهم، لكن من الواضح أن العجوز أمير الأمراء يتمتع بنفوذ واسع بين المقاتلين العرب والأجانب، وله حظوة كبيرة عند الخليفة أبو بكر البغدادي، الذي سمعنا أنه أوفد كبار مساعديه من الموصل لحضور التشييع المهيب.

3

كانت الأجواء حزينة، وصوت القرآن يهز الجامع عبر مكبرات الصوت التي زُرعت في كل اتجاه، حتى بات من الصعب أن يتكلم المرء حتى مع نفسه، فيما اتسعت المساحات أكثر بالسواد القادم من كل مكان، وتوزعت فرق الحماية المتكاثرة على مفارق الطرق بضمنها رشاشات أحادية شرعت فوهاتها نحو السماء، واستقرت معظم السيارات المظللة على الأرصفة العالية نسبيًا.

وحينما خرجت الجنازة من الجامع تلاقفتها الأيدي بصوت واحد هادر: **لا إله إلا الله.. محمد رسول الله..** وامتدّ الشريط الصوتي إلى كل البشر المتراصّين لوداع الأمير الكبير، فتحركت الجموع وراء الجنازة، وشكّلت طابورًا طويلًا متعرجًا، حتى استقام على الشارع العام، متبوعًا بعشرات السيارات متعددة الأنواع في موكب مهيب، لم أشاهد مثله في حياتي، حتى بلوغ مقبرة المجاهدين الشهداء التي عملوها في سهل واسع. فرأيت شواهد قبورها الكثيرة، وأسماء القتلى منهم، بعد ساعتين من الأصوات الهادرة بنغم واحد يبعث على الرهبة كثيراً.

تأملت المشهد بيقظة، وهالني العدد الكبير للمقاتلين المجاهدين المصطفين بلونٍ أسود وراء الجنازة التي تلاقفتها الأيدي والأصابع والقبضات، كأنهم طوابير غربان مفترسة ذاهبة لتنقض على حمْلٍ كبير.

لم نتحدث أنا وسربست بشيء في هذه الضجة المريعة، لكنني لمحت في وجهه طيفًا غامضًا أكثر من مرة، وهو يمشي صامتًا منحني الرأس، كما لو كان مسحوبًا من ياقته، بين هذه الجموع السوداء. فيما وضع أبو الخير التونسي يده على كتفي؛ كأنه ينبهني لوجوده ومشى معنا منحني الرأس حتى المقبرة.

فكّرتُ أن أنهي حياتي

غاب العم نور الدين عني ليلتين من دون أن يخبرني، فبقيت حتى الفجر قلقة أبكي من دون إرادتي بعد إنْ أحكمتُ غلق الباب الخارجي، والأبواب الداخلية، وغرقت في الظلام خائفة ومضطربة.

انتابتني هواجس كثيرة ومريرة، وبقيت في حالة توجس لا آخِر لها، وأكثر من احتمال يراودني، ويُسرِّع من نبضي، كأن يكونوا قد اكتشفوا لعبة الأعمى فيه، أو عرفوا أن زواجه مني صوري، وأن زوجاته السابقات لم يهربنَ منه، بل هرّبهنّ بطريقة أو بأخرى، وأن لعبته انكشفت.

تراءى لي أنهم يسلخون جلده وجلدي في باحة الجامع، وأنهم يحرقونه ثم يحرقونني، أو يقطّعون أوصاله كالطبيب الحلبي الذي جاءتنا أخباره باليوم ذاته، ولعلهم يقشرّون جلده كما تُقشّر جلدة التفاحة بالأظافر.

أصوات الليل تفزعني، وطرقات وهمية على الباب الخارجي تستثيرني، وسيارات مارقة في الشوارع والأزقة تبعث بي الرهبة، متخيلة بأنهم سيأتونني بالعم نور الدين مكتّف اليدين، وفي

عنقه حبل طويل يربطوني به من الطرف الآخر، ثم يدفعوننا في محرقة وسط المدينة.

لم أنم.

بقيتُ أبكي، ووساوس لا حصر لها تروّعني، وخيالات تضني قلبي حتى يبس وجهي، وجفّت عيناي، واختلج جسدي، وشلّ التفكير.

كنت أرى أمي وأبي وأخوتي الصغار في ظلامي المخيف، تتناوب وجوههم في غرفتي المظلمة فأنهض متعثرة، أعيد غلق الباب بإحكام وأعود مصطدمة بكل شيء، وأتحسس قلبي الذي وصل إلى حنجرتي، كأنه يريد أن يقفز من صدري.

تمنيت الموت كما لم أتمنّه من قبل، فالحياة بهذه الطريقة حرق على نار داعشية، لا نهاية له، وأنا التي خضت الموت مراتٍ كثيرة وتمنيته وسعيت اليه، لكنهم يعيدونني إلى الحياة بكل طريقة ووسيلة، بالإفراج المؤقت، وبالزواج المتكرر من بشر لم يكونوا بشرًا، وأعجب أنْ يكون المجاهدون في سبيل الله على مثل هذه الوحشية والقسوة واللاإنسانية! وعندما أستعيد صور المدينة، وأعيد صور المسلمين فيها، لا أجد الأمر كهذه الصورة، فعايدة صديقتي المسلمة القريبة مني (أين هي الآن؟) كانت لا تفارقني كثيرًا، وأهلها بسطاء، وفقراء، عاشوا بيننا عمرًا طويلًا، ولم يكونوا كهؤلاء الأنجاس الخارجين من التاريخ الأسود المزيف.

طرّ الفجر، وكنت ذائبة على السرير أتنفس بصعوبة متعرقة الوجه، متشنجة الأعصاب، حتى فاحت مني رائحة أكرهها، وسالت مني قطرات دماء قليلة، أشعرتني باللزوجة والقرف والبلل.

كنت أفيض وأرتعش وأنشج وأختنق وأتلوى، ودمي يسيل كأنني أُغتصَب من جديد، فعاد لي شعور الكراهية لنفسي، وشعرت أنني أكثر من ذليلة وبائسة ومحطمة ومذنبة برائحة كريهة وجسد مخذول.

فكرت أن أنهي حياتي بأية طريقة متاحة أمامي، إن لم يعد العم نور الدين.

حارس الحدود

انتحى بي أبو الخير التونسي جانبًا في زخم فوضى التشييع.

بدا شكله مرتبكًا إلى حد واضح، وكانت لحيته مصبوغة بالحنّاء، فاكتسبت لونًا أحمر خفيفًا، يلمع تحت الشمس. وكان شاربه محلوقًا فبانت شفته العليا عريضةً، وعيناه مكسوتين بغلالة من ضباب، كأنها دمع متحجر لا يسقط.

طلب أن أزوره إلى مرصده المتقدم بأسرع وقت، فموت أبي العينين كما يبدو لي فتح أسْرهُ النفسي، ووطّد رغبته بالهرب.

ـ تعال بقطيعك من دون الراعي الآخر. لدي ما أقوله لك

وجدته ضعيفًا أكثر مما كنت أتصور؛ بوجهٍ مرتبك يفضح كبرياءه المزيفة، لكنني كنت أعي الدور الذي يجب عليّ إجادته بشطارة، من دون إشعاره بضعفه، وأبقى أنظر اليه كما هو أبو الخير التونسي قبل موت أبي العينين، حارس الحدود الشنگالية مع دهوك، الحارس الصارم الذي لا يتساهل مع حدود دولة الخلافة الإسلامية.

- تحت أمرك. خلال يومين إن شاء الله أكون عندك.

ـ توقيت مناسب.

كانـت مراسـيم الدفـن في السـهل الأخـضر قـد انتهـت تقريبًـا، ورجـع المشـيّعون الكثـيرون وتفرقـوا كأنهـم بقايـا عسـكر مهزومـين، وخفتـت الضوضـاء كثـيرًا، وابتلـع السـهل الأخـضر صيحـات اللـه اكـبر المدويّـة قبـل قليـل.

شلّة ابن تيمية/٢

1

لم أكـن راغبًـا بالبقـاء في الجامـع بعـد صـلاة الظهـر، لـولا راڤيـار الـذي قـال أن لديـه أشـغالًا عاجلـة، وأن شـلّة ابـن تيميـة سـتفتقدنا إن لم يكـن أحدنـا موجـودًا، ونبهنـي إلى عـدم مخالطـة نـور الديـن كثـيرًا، الـذي سـيكون مسـتمعًا جيـدًا يوافقهـم عـلى كل شيء: كـنْ مثلـه تريـد أن تتعلـم قواعـد إسـلامهم وفتاواهـم والحـلال والحـرام عندهـم، ومعنـى الجهـاد لديهـم، ولو اضطـررت أن تشـتم كل الأديان أمامهـم فهـذا طبيعـي. بـل العـن الأيزيديـة إلى سـابع جـد ليطمئنـوا، لكـن أنبّهـك إلى أن واحـدًا سـيعرف أنـك جاسـوس بهيئـة راعـي غنـم، تجـوب الأمكنـة بـلا رقابـة صارمـة، وأنـك جديّـد عـلى الشـلّة، وحـاول أن لا تعرفـه. تـصرف بتلقائيـة وكـرّس روح الحقـد فيهـم عـلى كل ديـن غـير إسـلامهم، فإنهـم أصـلا وحـوش حاقـدون بـلا إسـلام، ولـو شـتموا عـدي بـن مسـافر ألـف مـرة اشـتمه أنـت ألفَـي مـرة، وكذلك لـو قالـوا أن عـلي بـن أبي طالـب طامـع للسـلطة، وهـو مخـرّب الديـن بسـيفه، ومفـرّق المسـلمين، وافقهـم بـلا تـردد، وإذا رجّحـوا

كفة معاوية عليه؛ قل لهم معاوية الحكيم النبيه الولي الوجيه الشاعر الفقيه، لكي يطمئن الرقيب الذي لا تعرفه بأنك جاسوس أيزيدي على مستوىً جيد من الوعي والإدراك والأريحية. ولكن لا تقلق على أية حال. دعِ الأمور تجري كما هي.

ملأ راقيار رأسي وحشّاه بكل صغيرة وكبيرة حتى أخافني، لكنه حجل بقدمه العرجاء مسرعًا إلى سيارة حديثة كانت قد توقفت أمام الجامع.

2

لم يكن هناك شيء مهم سوى مداولات عن احتمالات معارك قريبة على جبهات متعددة، وصار أكثر الكلام عن الفلوجة الحصينة والروافض الكفرة والصفويين الإيرانيين، غير أن مجيء أبو المعتز غيّر مجريات الحديث حينما قال بفرح من أنه سيتزوج قريبًا للمرة الرابعة ههههه: صبية أيزيدية سبحان مَن خلقها.

وكان الزهو يملأ وجهه الملتحي، أشعرني بقرف مفاجئ، من دون سبب أستطيع تحديده في لحظتي المتشنجة.

لم يجلس بعد كأنما يكلم آخرين غيرنا:

- اشتريتها اليوم بسعر غير قليل، وأنتظر عودة القاضي الشرعي للعقد والتسجيل في المحكمة الإسلامية.

هنأناه بهذه الزيجة الجديدة، وتمنينا له السعادة، لكن قلبي

كان يقرصني، وأنا أرى طيف الفرح الذي يشبه الانتصار على كل المدينة الأسيرة، وصباياها الأسيرات والمغتصبات.

مال عليّ قليلًا وما يزال واقفًا فتقصّدني:

- والأخ.. ألا تُكمل نصف دينك؟

- أنا؟

فزت متسائلًا كما لو أنه فعل شيئًا استفزني.

ربما كنتُ شاردًا، ورأسي في مكانٍ آخر:

- أراك لستَ على ما يرام يا أخ الإسلام؟

- لا لا.. أنا طبيعي والحمد لله. أنا سعيد معكم فأنتم أخوتي ورفاق الجهاد.

قال كأنه حكيم:

- إكمال نصف الدين مرضاة عند الله سبحانه وتعالى.

- الحمد لله على كل حال.

قال بود:

- نحن أخوتك والصبايا كثيرات هنا.

قلت بحيادية:

- إن شاء الله أفعل ذلك حينما تتوفر فرصة وزوجة مناسبة.

ردّ بإصرار:

- سنجد لك الزوجة. اترك هذا الأمر علي. صبايا جميلات يجددن فيك الخصوبة من جديد. اسأل نور الدين. كل أسبوع زوجة وتهرب هههه

ضحكنا كلنا لهذه النكتة البايخة. ولا أعرف إن كان **نور الدين** شعر بأنني محرج وغير منسجم مع هذه الشلة اليومية المزواجة، لكنه تدخل وهو يتشبث بعصاه:

- يا أخي مشكلتي في بَصَري.

- لا لا أنت مش فحل هههههه

طالت ضحكته كثيرًا ثم قال إلى **نور الدين**:

- **نور الدين**. خلي بصيرتك تغلب مش بصرك ههههه، هذه الأمور لا تحتاج إلى عين وبصر. ههههه.

أكلم أمي في تونس فتبكي

أعرف أن هذه القرية قليلة البيوت، وتمتد المساحات الخضراء أمامها حتى الجبل البعيد، وقد اختار أبو الخير التونسي بيتًا مثاليًا على ربوة تطل على السهل الأخضر، المترع بالزرع والأزهار وأشجار التبغ والتين والأزهار والزيتون والورود.

حملتني السيارة المغلقة بتظليل أسود إلى هذا المكان بسرعة فائقة، وكان التونسي يسقي شجيرة صغيرة نامية على حافات بيته، وفي داخل البيت تضوّع عبق السهل بكثافة عالية، لا تغيب عن ذاكرتي القديمة التي أخذت تتجدد، ولتفتح كنرجسة هذا الربيع.

- كلفني أبو فرات بالتنسيق معك!

بادرني وهو لا يخفي قلقه:

- هذه فرصة مثالية للتسلل إلى الجبال.

فوجئتُ وخفتُ كما لو ألقي القبض عليّ حالًا:

- وكيف يكون التنسيق سيدي أبو الخير؟

كنت أختلج قليلًا، وحاولت أن لا تظهر بصوتي أية ارتعاشة من شأنها أن تسبب لي قلقًا لا أحتمله في موقف كهذا:

- أحيل لي ملف الحدود، وأنت بوصفك عنصرًا عميلًا للدولة الإسلامية فلابد أن أنسّق معك!

أرعبتني فكرة كوني عميلًا لدولة الخرافة المتوحشة، لكنني تماسكت، فهذه هي الشفرة بيننا منذ أكثر من سنة، أزوّدهم بخرائط وهمية، لا يستطيعون التحقق منها، ومعلومات عامة يعرفون أغلبيتها، غير أنني أبالغ دائمًا بنفخ صورة البيشمركة الذين يمسكون الحدود، وأعداد الأيزيديين المتطوعين المتزايدة بسبب بطالتهم واستغلال ظروفهم.

- الآن وقد مات **أبو العينين** تحررت من مراقبته الصارمة.

- يرحمه الله برحمته الواسعة.

- وتحررت نفسيًا.

- الحمد لله.

جلس بمواجهتي تمامًا:

- ترك الراحل **أبو العينين** رصيدًا كبيرًا من الصبايا مترملات.

كان وجهه مثقلًا بأشياء لا يمكن لي أن أكتشفها بسهولة، سوى أنه يفكر منذ وقتٍ طويل بالعودة إلى بلده، محملًا بآلاف الدولارات، لكنني أرى في عينيه حزنًا يحاول إخفاءه. ربما هو قلق، أو تأنيب ضمير، أو شعور قريب بالموت، أو هموم غير مفهومة بالنسبة لي.

- قبل هذا. لقد ضقت ذرعًا بنفسي ومن المكان. بل والحالة كلها .

تطوعت كما في كل مرة:

- أنا حاضر لكل شيء.

تحولت عيناه إلى النافذة قليلًا، كأنما يرى بعدها أحدًا:

- أكلم أمي في تونس فتبكي، وتقول لي عُدْ قبل أن أموت. يا أخي ضميري يعذبني. رضاء الله من رضاء الوالدين. وليس من رضا أبي العينين.

لمست فيه الخوف واضحًا ممتزجًا بإصرار عجيب على الخلاص، ولا أعرف كيف احتمل كل هذا الوقت مع أبي العينين.

قال بوضوح:

- أُصبتُ مرتين في الحرب، ولن أنجو من الثالثة. أمي تناديني.

لم أقلق كثيرًا، فأنا أعرف هذا التونسي منذ أن أودع عندي ملايين الدنانير العراقية، والليرات السورية بغرض تحويلها إلى دولارات.

- سأوصلك بسلام إلى الحدود التركية. يمكنك أن تثق بي يا أبا الخير صديقي المجاهد.

قال كمن يفشي سرًا:

- هناك أتدبر أمري. الأتراك سيخلونني إلى تونس. بيننا خيوط وصل قوية مع جهاز المخابرات الوطنية التركي MIT

طمأنته بقوة:

- ستتيسر الأمور إن شاء الله، وتعود إلى والدتك، ولها العمر الطويل.

وجدت في عينيه ما يريد أن يحكيه، وكنت عند تصوري:

- لا جدوى يا أخي. إلى أين نريد أن نصل؟

-...........

- اسمع.

كنت قريبًا جدًا منه وأنا أسمع:

- أرامل الراحل **أبي العينين** سيُعرضن في سوق النخاسة للبيع.

-.....

- حريم كثيرات لا ولي لهنّ الآن، وقد تكون صبيتكم بينهنّ.

- اسمها **نشتُمان**.

- أكثر من 90% أنها بين الأرامل الصغيرات، فأبي العينين رحمه الله كان يجمع تلك الإماء- والجواري الصغيرات ليرضع بصدورهنّ. طب نبوي كما يقول ههههه.

- سامحه الله.

قلت بقلق فقال يطمئنني:

- سأبعث من تتأكد من وجودها.

- تفعل خيرًا. والدها سيموت من أجلها.

- ليطمئن.

تساءلتُ:

- ومن سيمتلكهن بعد وفاة **أبي** العينين؟

- لا وارث له في هذا. ولأنهنّ سبايا فسيؤول مآلهنّ إلى المحكمة الشرعية، التي ستعرضهن بالمزاد. حتى جنسيته غير معروفة.

مجاهـد في سـبيل اللـه في أي أرض تدعـوه للجهـاد. كـما يـردد دائمًا

أحسست أنه يريد أن ينهي الحديث:

- سآتيك بالخبر اليقين غدًا.

نهضت:

- تصرف بسرعة قبل أن يخرج **أبو العينين** من قبره!

سأنقلكِ إلى بيت مهجور

في أول الصباح طُرق الباب طرقتان، فهرعتُ متسائلة من وراء حجاب.

- **أنا نور الدين.**

فتحتُ الباب، وقد صرت كتلة عصبية، وقذفت نفسي عليه.

- كدتُ أموت من الخوف. ما قلتلي يا عم أنك ستغيب يومين. كدت أنتحر من الخوف، وأنا وحدي.

- صار عندي شغل، وكان من الصعب إبلاغك. الآن جئت لا تقلقي.

لم يمهلني أن أحكي له خوفي البارحة، وسهري إلى الصباح:

- تعالي. لدينا عمل مهم ويجب أن تعرفي.

دقّ قلبي، وكاد يخرج من صدري، وبدأ القلق يساورني وأنا أرى **نور الدين**، وقد تهيأ إلى كائن آخر بعد الليلة الماضية التي افتقدته فيها:

- لم تبق إلا الليلة!

انفتحت عيناي هلعًا لكنه أكمل:

- صباحًا ستغادرين هذا المكان إلى غيره.

انعقد لساني، وكأنني أشعر بفجيعة مقبلة، وربطت غيابه

لليومين الماضيين بهذه التوجيهات المخيفة.

- لا تخافي. ستمر الخطوات بهدوء، ولكن عليك أن تتحملي بعض الوقت، وبعض الجهد من أجل سلامة وصولك إلى أهلك.

- أهلي؟

نـدّت مني صيحة عفوية، واختلطت رموشي بدموعي، وأنا أنظر إلى هذا الرجل الأعمى المخلّص العجيب.

- اششششش

قادني إلى غرفة جانبية صغيرة، وأجلسني أمامه:

- اسمعي بنتي. هناك رجل ستجدينه مع أغنامه فلا تخافي منه. امتثلي لأوامره ونفذي كل ما يطلب منك. وإن شاء الله ستصلي إلى **دهوك** بأمان معه.

- معقولة؟

- سأنقلكِ إلى بيت مهجور، لا توجد فيه سوى أغنام قليلة، وتبقين هناك بضعة أيام ريثما نخلّص إحدى البنات لترافقك إلى **دهوك**.

- ممـ. اذا أفعل..؟

كنت مرتبكة وخائفة، لا أعرف كيف أسيطر على مشاعري لهذه المفاجأة، وأنا أنظر الآن إلى العم نور الدين بطريقة أخرى، فأراه إلهًا أو نبيًا بهيئة أعمى.

- يا خودا العظيم خلّصني.

- الأمر فيه سرية كبيرة يا رندة، وأي خطأ سيسلخون جلودنا.

ارتعبت لكنني هززت رأسي ممتثلة:

- وعليك أن تكوني متماسكة، وتتحملي مشقة الطريق الجبلي لبضعة أيام.

بكيت بصمت وأنا أتخيل أمي وأبي وأخوتي يقفون على سفح الجبل ينتظرون عودتي. يا **خودا** العظيم هل يتحقق كل هذا؟

- أنا سأترك هذا البيت من هذه الليلة، وأكون في بيت آخر، فالبيوت فارغة كما تعرفين، وحتى هذه اللحظة أنا معك، لكن بعدها انسي شخصًا أعمى اسمه **نور الدين**.

كنت أحاول أن أفيق من الصدمة، وأنا أهز رأسي، وأنظر إلى هذا المخلّص الرحيم.

- حتى عندما تصلي إلى أهلك في **دهوك** بسلام؛ لا تذكري اسمي، ولا تقولي كيف تمّ تخليصك، ولا تذكري أن راعيًا هرّبك. هذه أمور في منتهى السرية لنتمكن من تخليص بقية الأسيرات مع الوقت.

رأى الصدمة على وجهي، أو هكذا كنت أعتقد، فالعم **نور الدين** لم يخلع نظارته السوداء عن عينيه بعد.

- لما تصلي إن شاء الله. أخبري أهلك وجيرانك وصديقاتك أنك هربتِ لوحدك عبر الجبال منذ بضعة أيام، واختلقي الصعوبات المتوقعة في مثل هذا الهروب.

بكيتُ بحرقة، وكان العم **نور الدين** يكتم صوتي، ويحثني على أن ألم ما أحتاجه في صرّة صغيرة أخبئها تحت عباءتي.

مرضعات أرامل

لم أعرف بيوم المزاد، ووقته، لولا شلة ابن تيمية التي استعدت ليوم الجمعة بعد صلاة الظهر، لشراء بعض الأرامل الشنگاليات الصغيرات، زوجات أبي العينين المتوفى قبل إرسالهن إلى ولاية الموصل؛ فهناك سوق السبايا أكثر جدوى ونفعًا وعائدية مالية لخزينة دولة الخلافة؛ غير أن معظم الشلّة يبدو وكأنهم ادّخروا رواتبهم، واستعدوا لهذا المناسبة بعد مرور العدّة الشرعية للسبايا الصغيرات، مثلما يبدو أن لديهم أخبارًا أكيدة على جمال الصبايا المُرضعات، ففي قلوبهم حسد أخذ ينكشف على الأمير المتوفى الشرس الذي جمع صبايا المدينة في بيته الكبير، وعاش على أثدائهنّ الصغيرة كراضوعٍ ومصّاص بطب نبوي لم يسمع به أحد.

قال أحدهم:

- ما زلن أبكارًا، فالأمير لم يكن يقدر على مضاجعة هذا الجمع الوافر من الصبايا.

قال أبو حذيفة الذي يحمل سلاحه على ظهره، وكأنه مستعد للقتال في أية لحظة:

- كان يتطبب بهنّ طبًا نبويًا صحيحًا.

تساءل أحد رفاق الشلة:

- كيف يدر الحليب في صدور الصغيرات، وهن غير متزوجات، وربما بعضهن غير بالغات أصلا؟

تدخل أبو حذيفة:

- سمعته أكثر من مرة يقول من على المنبر، وهو يوصي الصحابة والمجاهدين بحليب العذارى، فإن فيه الدواء والغذاء والشفاء. وقال أنه حلم بأن الرسول محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، حضر منامه وأوصاه بهذه الوصفة الربانية.

زكّى أبو عبيدة الغزاوي ما قاله رفيقه وأضاف:

- لم يكن المجاهد الراحل أبا العينين يهمه الجنس، لكنه يطبّق وصية رسول الأمة في الدواء والغذاء والشفاء. لهذا لم يُطِل المكوث في المستشفى آخر مرة فخرج على مسؤوليته.

هز أحدهم رأسه مضيفًا:

- كان لا يثق بالأدوية، ويعدّها بدعة من الكفّار.

- إذن موعدنا الجمعة المقبلة بعد صلاة الظهر.

السبت:

بدا وجه رندة أكثر توردًا هذا الصباح، حينما أخبرتُها أن تهيئ نفسها، فظلت تروح وتأتي في الحوش غير قادرة على ضبط نفسها، وأطيافٌ من دموعٍ تترقرق في عينيها الصغيرتين،

ولم تستطع إخفاء القلق الذي يعصف بها.

تصل إلى الطارمة تطقطق بأصابعها وتعود لي:

- صحيح يا عم سارى أهلي؟

- صحيح.

- وهل هم أحياء؟

- أحياء.

- في أي مخيم هم؟

- شاريا. مخيم على أطراف دهوك.

- وهل أمي بصحة جيدة؟

- أمك وأبوك وأخوتك كلهم بخير.

ثم تعود للسؤال المرير الذي يشغلها:

- وهل يتذكرونني؟

- أنتِ رندتهم الوحيدة، كيف لا يتذكرونك يا ابنتي.

تقضم أظافرها بقلق، وكنت أرى جسدها يرتعش، وفي عينيها أسئلة أكاد أعرفها:

- أنا خائفة.

- لا داعي للخوف. أنتِ أسيرة ويتفهمون كل شيء.

تنشج قليلًا وتقول بألم:

- أنا بنظرهم زانية!

- لا لا. لا تفكري بهذا. أنت أسيرة فقط ولا حرج على الأسير.

- يتفهمون ذلك؟

- حتى الأمير أصدر فتوى واضحة بهذا الموضوع.

- وماذا فيها؟

- أن تُعامَل الأسيرات الأيزيديات باحترام وحب، وأن ما حدث لهنَ كان إجباريًا واغتصابًا، ولا حول لهنّ ولا قوة.

تتقدم نحوي وتسأل:

- أنت مسلم يا عم. ما الذي يدعوك إلى كل هذه المخاطرة بحياتك؟

- أنا سنجاري قبل أن أكون مسلمًا، وهذه مدينتي، وأنتنّ بناتي.

الأحد:

بدا متوترًا على غير عادته.

يحك لحيته الثخينة صاعدًا ونازلًا عليها بأظافره التي طالت، ويتطلع إلى أكثر من مكان، وأنا الصامت دائمًا المشغول بطيف **نشتُمان**، تحدثت معه أكثر من مرة لكنه بقي صامتًا، يجول رأسه في فضاء غامض لا أدريه.

- خبّيء ما تبقى من الأغنام في البيت.

- بقيت ستة رؤوس فقط.

- العودة صعبة من دونهنّ. نحن رعاة، ولابد أن لدينا أغنامًا.

- بقي الوقت القليل.

- رأسي سينفجر من التفكير.

- أفهمك.

- ولشثمان كما لو أنها غير موجودة في المدينة.

- اصبر.. سيأتينا التولسي بالخبر اليقين.

أتساءل بمرارة:

- وماذا سيحصل في المزاد؟

ببرود يرد راڤيار:

- بيع وشراء الصبايا الأرامل.

- ولشثمان معهنّ؟

يلتفت نحوي ويقول بصرامة:

- إن كانت معهنّ فنشتريها.. لكن بطريقة الزواج وعليك أن تفهم هذا!

ضربتُ على رأسي:

- يا ويلي.. ابنتي تباع وتُشترى؟!

- هذا قدر بناتنا. تضرّعْ إلى خودا أن تكون في المزاد.

يؤلمني راڤيار كثيرًا من دون أن يدري وأعود أتساءل بقلق:

- وكيف سنتعامل مع الحالة؟

- سيشتريها أحدنا!

- أشتري ابنتي؟

يدور المكان بي ورأسي يدور وراڤيار يمعن في إيذائي:

- ويكتب لك القاضي الشرعي عقد زواج!

- أتزوج ابنتي؟؟

- تتزوجها شرعًا.. أنت الوحيد الذي سيرسو المزاد عليك!

- هل يعرفون أنني أبوها؟

- لا. سيرسو المزاد عليك لأنك ستعادلها بالذهب وليس بالمال!

أبقى صامتًا، ولا أستطيع تصور تلك اللحظة الخارقة التي سأتقدم بها للزواج من ابنتي هههه، كم أنا بائس وسخيف ومحطم.. أينك يا حمودا؟

أدور في مكاني شائطًا، وأطلق السؤال الممض:

- ولكن هل ستعرفني لشثمان بعد كل هذا الوقت؟

الاثنين:

خرجتُ من غرفتي تحت الصخرة الثقيلة. لنقل من سرداب الأمان الذي أمارس منه عملي مع فصيلٍ كامل من المجاهدين لمراقبة الحدود، وكان رأسي متفتحًا كمحارة مفلوقة انتزعوا منها الطين والكلس والشوائب.

أظن أن مسؤول فصيل الألغام الحاج أبو عفراء كان يرى ذلك، وهو يصغي لي عندما استدعيته لأمرٍ عاجل قبل وقت قصير.

- يا حاج. ثمة أمرٌ سري عاجل.

أصغى الرجل، ووجهه ينصت لي بكل هدوء:

- وردتنا معلومات استخبارية تفيد بأن مجموعة غير قليلة من البيشمركة الأكراد ستسلم نفسها لنا.

ابتسم وجه الحاج كثيرًا:

- هذا خبر عظيم. ما شاء الله.

- وسيعلنون ولاءهم لدولتنا الإسلامية.

ازداد فرحه وهو يرفع يديه إلى أعلى:

- الحمد لله على نصره. الحمد لله على نصره.

أكدتُ على أهمية مثل هذا الانتصار المعنوي:

- تعرف يا حاج أن هذا سيشكل ضربة قوية إلى الحزبين الكرديين.

كل لحظة يزداد الفرح فيه:

- بلا شك. هذا نصر من الله. وهؤلاء البيشمركة يعني ولاؤهم فيما يعنيه سخطهم على أحزابهم العلمانية الكافرة، وسيوفر القناعة لعامّة الناس بأن دولتنا الراشدة ماضية في التوسع على بركة الله.

- وهو كذلك. الحمد لله أن نصرنا يتوسع، وستكون كردستان في طاعتنا.

استثمرتُ فيض الفرح فيه وأحطته علمًا:

- ألفت انتباهك يا حاج إلى أن هناك ألغامًا متوزعة بعشوائية في السهل الذي أمامنا.

- صحيح.

هز رأسه ونظر لي يتلقى التعليمات الواجبة:

- علينا أن نزيلها مؤقتًا لحين استسلام المجموعات الكردية الكثيرة. لأنهم سيأتون من أكثر من مكان من الجبل.

قال الحاج بجدية:

- لـدي خريطـة كاملـة بتوزيـع الألغـام، ولا توجـد عشـوائيات يـا أبـا الخـير.

أصدرت له الأوامر السريعة:

- بـاشر أنـت ومجموعتـك بفتـح أكـثر مـن طريـق، لأن المجموعات الكرديـــة متوزعـــة عـــلى الجبـــل، وســـأشرف بنفـــسي عـــلى جلـــب البيشـــمركة المستســـلمين إلى هنـــا.

- الله يبارك فيك. إنه النصر الرباني الأكيد. الله أكبر.

بقيـت صافنًـا للحظـات، والحـاج يركـض باتجـاه مجموعـة الألغـام يبشرهـم بالنـصر المقبـل، بينـما كانـت روحـي تتفتـح أكـثر، وكنـت أنتظـر كل شيء يجـري بهـدوء لكـن بسرعـة، وأنـا أعـرف رافيـار الرهيـب بدقتـه في تنفيـذ مـا يزمـع القيـام بـه.

فكـرت أنـه قـد يغـدر بي حينـما نبتعـد كثـيراً، وتتلقفنـا سلسـلة الجبـال العاليـة، وأدخـل في المصـير المجهـول، لكننـي فكـرتُ أيضًـا بأنـه سـيكون عنـد وعـده كرجـل صاحـب قضيـة، عندمـا سـاعدته بأكـثر مـن طاقتـي، وصلـت فيهـا إلى حـد الخيانـة، لهـذا لا أريـد أن أبقـى خائنًـا في قضيـة لا ناقـة لي بهـا ولا جمـل، فأمـي لم تفـارق منامـــي ولا ذاكـــرتي، وتأتينـــي بوجههـــا الوضّـــاء باكيـــة ومعاتبـــة وحزينـــة، وتحـــذرني مـــن مصـــير أســـود.

فكـرتُ أن أرتـدي حزامًـا ناسـفًا مـن دون أن أخـبر الراعـي حتـى أعـبر الحـدود التركيـة.

فقط هي فكرة تراودني الآن حتى تنفتح ممرات الألغام.

الثلاثاء:

لم يحدد والي الموصل أميرًا جديدًا لسنجار بالرغم من مرور أكثر من ثلاثة أشهر على وفاته، غير أن إشاعاتٍ تتناقلها شلّة ابن تيمية بأن الفلّوجي أبو المقداد سيكون هو والي ولاية الجزيرة كلها، كونه ذبّاحًا معروفًا بين المجاهدين، وذاع صيته بين الناس فاكتسب درجة المقبولية عند أولي الأمر.

قلت لسربست:

- الأمور تمشي سريعة جدّا، وعلينا أن نلحق بها.

كان وجهه يشفُّ عن قلق واضح لا أريده أن يستشري كثيرًا.

- أنا تحت تصرفك وعندك الأخبار الأكيدة.

قلت له بحرص:

- قبل أن يُعيّن أمير الأمراء الجديد علينا أن ننتشل **نشتُمان** من المزاد بأي سعر، ونهرب بها مع رندة.

أبدى استعدادًا استثنائيًا وتحفزت فيه روح الأبوة العظيمة:

- أنا جاهز لو قطعوا رقبتي من أجلها.

الأربعاء:

- أنا متهيأة يا عم.

كان على وجهها الصغير ارتباك واضح، وجسدها يرتعش تحت العباءة الطويلة.

- لا بأس أن تكوني ليلة كاملة في زريبة الأغنام. تحملي يا

ابنتي، فمن هناك سينطلق بك رافيار برعاية الله إلى الجبل.

تضرعت بألم:

- **يا خودا. يا طاووسي ملك.**

أوضحت لها بشكل واضح:

- لا بأس أن تكوني محشورة بين الأغنام القليلة حتى تعبري أكثر من مكان، وفجر السبت سيكون الطريق إلى الجبل سالكًا بإذن الله.

كانت عيناها تدوران في محجريها، كأنها تنتظر عقابًا وليس خلاصًا:

- ستكون معك سبيّة صبية أيزيدية. لكن عليّ إخلاؤك من هذا البيت وأنا سأغير مكاني أيضًا.

تساءلت بفضول:

- مَن ستكون معي؟

قلتُ بفرح لا أعرف مصدره في تلك اللحظة:

- **نشتُمان.**

- واو.. أجمل أسيرة في سنجار. بل في العالم كله. هل عثرتم عليها؟

قلت من دون تفاصيل:

- الجمعة بعد الظهر سيُحسم كل شيء. لا تقلقي.

الخميس:

لم يتأخر الحاج أبو عفراء في تنفيذ المهمة التي أوكلتُها إليه.

- أزلنا الألغام كلها والسهل سالك من وسطه، حسب الرايات البيض الصغيرة التي وضعناها وهي واضحة يا أبا الخير.

من دون الحاجة إلى الناظور كنت أرى أعلامًا بيضًا صغيرة ترفرف مع شمس الغروب الذهبية، فباركت الحاج على سرعة تنفيذه الواجب.

- متى إن شاء الله يسلمون أنفسهم هؤلاء الكفرة؟

- يريدون الأمان حسب ما أرسلوا لنا من رسائل، وسأتفاوض معهم خلال وقت قريب. لكن لا تعلن الأمر الآن لمجموعتك فالأمر في طوره السري.

باركت الرجل وقلبي يدق بقوة:

- بنفسي سأذهب للجبل، وأجلب الأكراد المستسلمين.

- الله اكبر الله اكبر.

- سأذهب إلى عمق الجبل يا حاج، وبيني وبينك اتصال مباشر في اللاسلكي، وليكن فصيلك متأهبًا وعلى استعداد كامل، تحسبًا لأية مفاجأة غير متوقعة.

- الله أكبر الله أكبر.

الجمعة - فجرًا:

لن يلحظ أحدٌ الأعمى **نور الدين** بعد صلاة الفجر، يقود

صبية متلفعة بعباءة سوداء طويلة، عبر أزقة داخلية ما تزال بيوتها مهجورة، أو نائمة تحت سحابة الفجر المظلل بالظلام حتى الآن.

أكثر من زقاق خفقت به أقدامهما المسرعة، وعباءتها الطويلة تلم التراب والأعواد وراءها.

لم يتكلما في هذا المشوار المقلق الذي يسابقان الوقت فيه، وكانت الصبية منقادة بكلها إلى الرجل الذي حاذر من عصاه أن تضرب إسفلت الشوارع الداخلية، وكان يغالب الضوء الشحيح في عينيه، ويفتح فيهما أفقًا أوسع للوصول إلى بيت ناءٍ في أطراف المدينة، حيث تفقده قبل بضعة أيام مع راقيار، واتفقا على أن يكون هو رأس البداية إلى الجبل.

الجمعة - ضحىً:

تلبد وجهه بكل أطياف القلق وكنتُ أعذره، فالوقت أخذ يُسرع ويداهمنا بشكل عنيف.

- هل جهزتَ صرّة الذهب؟

أشار إلى خاصرته بوجهٍ ملبّد بالكثير من الغضب والخوف والأمل واليأس.

كان وجهه مزيجًا غريبًا من بشرٍ اختلطت فيه كل الألوان، وامتزجت على نحوٍ غريب. وتمددت وتقلصت فيه الانفعالات على نحو يدعو إلى الخوف.

- تصرف بهدوء يا صديقي.

- أكاد أموت من الانتظار.

- لم يبق وقتٌ كثير، وكل شيء جاهز، ونور الدين سيلتحق بنا هنا.

الجمعة - قبل صلاة الظهر:

حضر التونسي مرتديًا طاقمه الأسود، وقد زاد من حف شاربه وبقيت عيناه قلقتين تدوران في أكثر من مكان، فيما كانت شلة ابن تيمية تتكاثر على نحوٍ غير مسبوق من القرى المجاورة، تحت نداء انتشر سريعًا بعرض السبايا لأرامل أبي العينين للبيع والشراء، ورأى سربست وجوهًا كثيرة لم يرها سابقًا، ولم يأنفه في الجامع، كذلك كان رافيار يدور في باحة الجامع، يتطلع إلى الوجوه الغريبة التي حلّت قبل صلاة الجمعة، حتى امتلأ صحن الجامع وباحته بالكثيرين ممن لم يسبق له أن رآهم، لكنه تمكن من معرفة بعض القوّاد وعجائز المتعة بحكم دورانه اليومي في القرى القريبة والبعيدة، وعرفه البعض.

وصل الأعمى نور الدين لاهثًا بعد أن ترك الصبية في البيت المجهول مع الأغنام، وشجعها على البقاء، وأوصاها أن تتحمل رائحة النعاج، وبعرورها، والمكان غير النظيف الذي أبقاها فيه.

تحسس سربست صرّة الذهب أكثر من مرة، وكلّمه رافيار أكثر من مرة، ودار نور الدين في فناء وباحة الجامع أكثر من

دورة، تـاركًا مكانـه اليومـي عـلى عتبـة بـاب الجامـع، وهـو يشـعر بالكثـير مـن القلـق.

قال التونسي لراڤيار بصوت منخفض:

- **نشـتُمان** موجـودة مـع الأرامـل. لكـنّ اسـمها تغـير إلى اسـم إسـلامي.

- ما هو؟

- عائشة.

وقبل أن ينسحب أعاد الهمس بشكل سريع:

- سـأخرج قبلكـم. سـتجدونني في بدايـة حقـل الألغـام بـين الرايـات البيـض.

انسـحب بـين اكتظـاظ الجمهـور المتزايـد تـاركًا الاسـم الجديـد يـدور في رأس الراعـي المتحفـز في يومـه الأخـير هنـا، مثلـما تـرك حقـلًا واسـعًا مـن الألغـام يـدور في فلـك راڤيـار، وهـو يتخيـل السـهل المفتـوح المـزروع بالرايـات البيـض الكثـيرة.

الجمعة - خطبة الجمعة:

لم يتعـرف كثـيرٌ مـن المصلـين على شـخص الخطيـب الجديـد عندما اعتـلى المنبر، بسـواد ثيابـه الفاقـع، لكنهـم انتظمـوا بالجلـوس عـلى شـكل خطـوط متوازيـة داخـل القاعـة الصامتـة، واصطـف البقيـة في الباحـة الخارجيـة بالصفـوف ذاتهـا تحـت الشـمس، وهـدأت الفـوضى، حتـى **نـور الديـن** وجـد لـه مكانًـا قريبًـا مـن راڤيـار الـذي

دحس نفسه في الخطوط الأربعة الأولى، وبقي سربست منقبض النفس شاعرًا بمرارة لحظاته المتسارعة، وصورة نشتُمان تتخاطر في راسه بهيآت متعددة، واسمها الجديد الذي أخبره به راهيار لا يستطيع ابتلاعه بسهولة.

وضع عصا عيدو في حضنه يتأملها، فتطلعتْ إليه الإشارات والرموز والحروف والتواريخ المتقاطعة والمتعامدة، ولمعت أضواء القاعة الثلجية على أسطوانتها المدورة، فكشفت قشرة صلبة تحتها مفردات تركمانية غير واضحة. ثم طالعته العين الصغيرة حينما دوّر العصا بأصابعه.

انتبه إلى الخطيب الجديد:

- بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاةُ والسلامُ على نبيّنا المُصطفى خيرِ المرسَلين. إن الحمد لله نحمده ونستعين به، ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا وذنوبنا. لقد تغير الحال وتغير الدين وتغيرت العقيدة، وتغير المنهج مع هؤلاء الروافض الصفويين، الأنجاس عبدة الأوثان، والقبور والأصنام، ومعهم أهل السُنّة العبيد الموتورون الذين عاثوا في أرض المسلمين فسادًا وضعةً وفسوقا.

كانت صورة نشتُمان تكبر في رأسه، وتنفرش أمام عينيه كما تركها منذ سنتين، صغيرة وناعمة وشقراء وحلوة بعينيها الزرقاوين، وقد أخذت من أمها الراحلة الكثير من سمات الجمال، وحلاوة المنظر ورقتها.

كانت **نشتُمان** تخرج من نيران الخطيب الجديد، وجحيمه الذي يصليه على الجالسين، كأنه إلهُ يوم الحساب، ولم تعد نبرة الخوف التي يطلقها مفيدة لسربست، الذي انغمر بأطياف صبيته الوحيدة، وكان يحسب الوقت المتبقي لمزاد الأرامل، الذي طال مع صياح هذا الديك الأسود مبشرًا الجميع بعذاب أليم، ما لم يقتلوا السنّة والشيعة والأيزيديين والأكراد وسواهم من الجماعات الأخرى. حتى تطاير زبد فمه على الخط الأمامي، وهو يستغيث بالسماء ويستغفر الرب كثيرًا، كما لو أنه ارتكب معاصي البشرية كلها.

تنفس الجميع الصعداء، وهم يخرجون من فوهة نار كبيرة، رأسها الخطيب الجديد الذي لم ينس أن يعدهم بالجنة والحوريات، بعدما أحكم عليهم نيران جهنم من كل جانب.

كانت الطوابير البشرية صامتة، وهي تتلقى سيلًا من اللغة المداهمة، حتى هدأ وأفرغ ما في جعبته من لغة شائطة، وروح عدوانية، يتلمسها الكثيرون الصامتون، فتقشعر أبدانهم، وتنقبض قلوبهم لهول الخيال الذي يرسمه الخطيب الجديد.

شرب ماءً من قدح نحاسي أمامه ثم قال:

- يا معشر المسلمين من المجاهدين والأنصار، والداخلين إلى دين الله. كما تعلمون فقد فارقنا إلى السموات العُلى مجاهدنا وأمير أمرائنا الشيخ **أبو العينين** رحمه الله برحمته الواسعة، ولم يأخذ معه من هذه الدنيا الفانية سوى أعماله الطيبة،

وخدمته الجهادية في سبيل رفع راية الإسلام في كل مكان، وبقي ذكره الطيب على ألسنتنا جميعًا والحمد لله على كل حال.

صمت قليلًا وتفرّس بالوجوه المحنطة:

- ترك أمير الأمراء الراحل المجاهد **أبو العينين** بعض الأرامل اللواتي لازمنه حتى وفاته، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، وفي شرعنا لا يجوز ترك الأرامل مشرعات للفتنة، لهذا سيوضح لكم القاضي الشرعي بعض ما أشْكَلَ عليكمو في هذه المسألة قبل أن يُفتتح باب المزاد الشرعي لهذه السبايا.

تنحى الخطيب ونزل درجات المنبر بهدوء، وجلس أمام الخط الأول على مخدة طويلة أعدّت له، وصعد القاضي الشرعي بعمامة ملفوفة كاليشماغ الأسود على رأسه، معتليًا المنبر:

- بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وصحبه أجمعين. أما بعد فنلفت انتباه الأخوة المؤمنين والمجاهدين، أنه قد وهبنا الله من الأيزيديات الكافرات أعدادًا كبيرةً كنّ على ضلالة من الدين، لكن الله هداهن بعد غزوة الجزيرة، وتحرير **سنجار** بؤرة الشياطين الكفرة، وغنْم الحرائر منهم. وتعلموا أنه تعالى قد أوصانا بالحلال والزواج مثنى وثلاث ورباع، وما أحله من إماء وجوارٍ وما ملكتْ أيْمانا. أقول هذا وقد كان الراحل المجاهد الكبير الشيخ **أبو العينين**، يطبّق هذه الوصايا الإلهية، ولم يتجاوز عليها رحمه الله برحمتهِ الواسعة؛ فكان الستر والحائط للكثير

مـن البنـات السـنجاريات الكافـرات والمسـيحيات اللـواتي اختلـط إيمانهـن بالكفـر الصريـح، وحينـما توفـاه اللـه تـرك تركـة عظيمـة مـن الإمـاء قوامهـا ثلاثـون بنتًـا وصبيـة سـهر عـلى راحتهـن، وزرع الإيمـان فيهـن، لكـن للـه حكمـةً بوفاتـه فعاجلـه وهـو يبلـغ مـن العمـر الرابعـة والسـبعين سـنة.

تطلع إلى الوجوه التي تنظر اليه وقال:

- سـنعرض عليكـم هاتـه الإمـاء وبعضهـن أبـكار لم يمسسـهنَّ الشـيخ الراحـل، بـل كان يكتفـي برضاعتهـن كطـبٌّ نبـوي داوم عليه سـنتين، تجنبًـا لأمـراض العـصر الكثـيرة، لـكي يبقـى يصـول في ميـدان الجهـاد حتـى وفاتـه، رحمـه اللـه وأسـكنه فسـيح جنّاتـه.

كانـت القاعـة صامتـة كـما لـو حطّـت الطيـور عـلى رؤوس الجالسـين فيهـا، وانتظمـت أنفاسـهم بـل وصمتـت ببـطء كبـير.

- شرعًـا نشـير إلى أن علماءنـا الأجـلاء أباحوا سـبيَ جميـع الكافرات كُفـرًا أصْليًـا، ولا خـلاف بذلـك، وواضـحٌ أنـه يجـوز وطء السـبيّةِ بعد المُلـك إن كانـت بِكْـرًا، ومـن كانـت ثيبًـا فلابـد مـن اسـتبراء رحمِهـا، ولهـذا يجـوزُ بيـع السـبايا أو إهداؤهـن لأنهـن محـضُ مـال. كـما أنـه يجـوز وطء السـبية والأمـة الصغـيرة، لـو كانـت صالحـةً للـوطء، حتـى لـو لم تبلـغْ الحُلُـمَ. أمـا إذا كانـت غـير صالحـةٍ للـوطء فيجـوز الاسـتمتاع بهـا وحسـب بالطريقـة التـي تريـح مالكهـا.

سكت قليلًا يقلّب ناظريه بين الجموع:

- قـد تسـألون؛ إذا مـات الرجـل وتـرك سـبايا في مُلكـه فـما هـو

حكمهـن؟ والجـواب الشرعـي هـو أن تقسـم السـبايا ضمـن تركتـه كتقسـيم الإرث غـير أنهـن يكـن في الخدمـة فقـط ولا يجـوز وطأهن إذا وطأهـن أب أو ابـن مـن قبـل. وفي حالـة الراحـل المجاهـد أمـير الأمـراء أبي العينـين أفرزنـا حـوالي ثلاثـين صبيـةً لم يطأهـن الراحـل بـل كان يسـتمتع بهـن فأغلبهـن دون الـوطء وبعضهـن لم يبلغـن الحلـم. لـذا كان يكتفـي برضاعتهـن للغـذاء والشـفاء.

صمت قليلًا وعيناه تطوفان بين الجموع الصامتة:

- في حالـة أبي العينـين، أسـكنه اللـه فسـيح جناتـه، اختلـف الأمـر قليـلًا. فالرجـل لا وارث ولا ورثـة لـه. ولا ذريـة ترثـه لا مـن بعيدٍ ولا مـن قريـب، بـل هـو مجاهـد في سـبيل اللـه جـاء مـن أقـصى الأرض إلى أقـصى الأرض دفاعًـا عـن كلمـة اللـه الحـق ومـات فيهـا. حتـى أنـه في تسـجيل اسـمه في السـجلات الشرعيـة رفـض أن يقـول مـن أيـن جـاء، وإلى أي بلـدٍ ينتمـي، وفضّـل أن يكـون مجهـولًا، فوحـده اللـه سـبحانَه وتعـالى يعـرف نشـأته وسـيرته وقوميتـه ومصـدره وجـذره. لذلـك ارتـأى القضـاء الشرعـي أن يـرث صبايـا أبي العينـين شرعًـا لأنـه لا وارث يرثهـنّ، لـذا فقـد أصبحـن مـالًا حـلالًا لدولـة الخلافـة الإسـلامية، التـي تتـصرف بهـذا المـال بمـا تسـتفيد منـه، وتعـزز إمكاناتهـا الماديـة في مواجهـة أعـداءِ اللـه.

تنحنح قليلًا ودارت عيناه على الجموع المستسلمة:

- توفـيرًا للوقـت والجهـد، وحتـى تكونـوا عـلى بيّنـة، فإننـا سـنعرضُ عليكـم البنـات والصبايـا بمجموعـاتٍ. بمعنـى سـنعرض

ثلاث مجموعات مع أسمائهن وأعمارهن بواقع عشر صبايا في كل مجموعة، وتبقى ثلاث بناتٍ مفردات.. ولنا في هذا شأن سنقوله فيما بعد.

علت همهمة في القاعة كأنما انفكّت عُقد الألسنة المحبوسة.

نادى القاضي الشرعي:

- أم المجاهدين.. تفضلي.

من باب جانبي دخلت امرأة منقّبة وملفعة بالسواد كأنها غراب منفوخ:

- أم المجاهدين ستكون عينًا لمن يشتري هاته السّبايا، وستكشفُ لكم وجوه الصبايا بالتسلسل، لكن من حق المشتري أن يرى سبيته في غرفةٍ جانبيةٍ، ويتأكد أنْ لا عورة فيها، ولا جنون، وستكون أم المجاهدين معه حتى نسهل الأمر عليكم جميعًا، ومن الله التوفيق.

همس شيئًا لأم المجاهدين بعيدًا عن فم الميكرفون، فهزّت رأسها موحية أن كل شيء جاهز الآن.

عاد القاضي يقول:

- ستدخل أول عشر فتياتٍ وسنذيع أسماءهن وأعمارهن وأسعارهن، وسيكون الشراء علنيًا رحمكم الله، والدفع المالي فوريًا لدى أم المجاهدين، وفي آخر العرض سنسلّم الذين رسا البيع عليهم أوراقَ العقود الشرعية للزواج.

ثم أوضح:

- سنعرض جداول بأسماء الصَبايا وأعمارهن وأسعارهن على شاشة المسرح لتكونوا على بيِّنة من الأسماء والأعمار والأسعار.. وعلى بركة الله نبدأ ونرجو أن تبقوا جالسين في أماكنكم بانتظار عرض السبايا الأرامل.

قبل أن يعلن أسماء الوجبة الأولى مالت عليه أم المجاهدين، فاستدرك:

- السبية التي يطلبها أكثر من مجاهدٍ سيكون أمامنا حلان، الأول هو أن يتنازل أحدهما إذا كانا اثنين تنازلًا حبيًّا وأخويًّا، وإذا لم يحصل هذا أو وجود أكثر من اثنين فنفتح باب المزايدة بينهم والذي يدفع السعر الأعلى ستكون السبيّة من نصيبه.

الجمعة - العرض الأول:

من غير شعور زاحمتُ الأكتاف، وعبرت الرؤوس بخطوات عشوائية، دستُ فيها على أقدام وأيدي الكثيرين، وكنتُ أبدي أسفي لهذا وذاك، مخترقًا الصفوف بلا وعي، وأنا أبحث عن رافيار الذي ظل يغير مكانه بقلق حتى وجدته، فدحست نفسي إلى جانبه وأنا أتلفت معتذرًا، فطريقتي لفتت الأنظار التي قابلتني بالسخرية والاستهزاء، وعدّني البعض بالمتهور وغير المهذب، فكنت أبتلع الإهانات حتى اصفر وجهي، ونشف الدم بي، ولولا مسارعة القاضي لقراءة الأسماء لبقيت وقتًا أطول أشعر بالذنب والخزي، لهذه العشوائية التي مارستها.

- الوجبة الأولى للسبيات.

نـادى القـاضي الشرعـي فدخلـت عـشر فتيـات ملفعـات بالسـواد، كأنهـنّ بطاريـق يحجلـن بارتبـاك ووقفـن أمامـه، فوجهتهـن أم المجاهديـن بصـف واحـد عـرضي أمـام الحاضريـن. ثـم التمعـت شاشـة فضيـة في بطـن المسرح خلـف الفتيـات أنـارت وجودهـن، وكان القـاضي يقـرأ والعيـون الشرهـة تتطلـع إلى الشاشـة الفضيـة:

	اسم السبيّة	العمر	السعر
1	نورهان - أيزيدية	22 سنة	$700
2	إخلاص – أيزيدية	22 سنة	$700
3	حنان – أيزيدية	22 سنة	$700
4	بهار- أيزيدية	22 سنة	$ 700
5	أفين – أيزيدية	22 سنة	$ 700
6	ايثار- أيزيدية	22 سنة	$ 700
7	تمارا – أيزيدية	22 سنة	$ 700
8	روزهات – أيزيدية	22 سنة	$ 700
9	سوز – أيزيدية	22 سنة	$ 700
10	جولي - مسيحية / لم تدفع الجزية	22 سنة	$ 700

كشـفت أم المجاهديـن وجـوه الفتيـات بالتتابـع بإزاحـة النقـاب عـن وجوههـن؛ فبـدون كطيـورٍ مذعـورات أمـام شـبكة صياديـن مفاجئـة. تخاطفـت عيونهـن بخجـل عـلى الجمـع الـذي مـلأ قاعـة

الجامـع، فتدافـع بعـض الجالسـين رافعـين قاماتهـم متطلعـين إلى الفتيـات المصطفـات عـلى نسـق واحـد، ولـون واحـد بالعبـاءات المنسـدلة التـي غطـت أقدامهـن.

نـادى أكثر مـن شـخص بأسـماء الفتيـات.. جـولي.. سـوز.. إيثار.. روزهـات.. إخـلاص.. أفـين.. وخـلال وقـت لم يطـل كثيرًا تمكنـت أم المجاهديـن مـن إدخـال المزايديـن إلى الغرفـة الشرعيـة، ولم يحـدث ارتبـاك سـوى مـرة واحـدة، حينـما تقـدم اثنـان عـلى السـبية جـولي، غـير أن أحدهـما تنـازل بـود للآخـر وعانقـه متمنيًـا لـه التوفيـق، ولم تبـق إلا نورهـان التـي لم يطلبهـا أحـد فأعادتهـا أم المجاهديـن إلى غرفـة جانبيـة، بينـما نـادى القـاضي عـلى العـرض الثـاني.

كنـت أشـعر بالـذل والخـوف واليـأس حتـى خلـت نفـسي بأننـي سـأنفجر داخـل القاعـة.

الجمعة - العرض الثاني:

ضبـط سربسـت أعصابـه بعـد أن وبختـهُ ورجوتـه أن يهـدأ كثيرًا، لكـن بقيـت عينـاه مشـدودتين إلى مـكان العـرض الثـاني الـذي جـاء بعـشر فتيـات أخريـات.

كان جسـده يرتعـش كسـعفة، ويـداه ترتجفان لا يسـتطيع ضبطهما. وكنـت أرتجـف مثلـه لهـول الرؤية في هـذا العـرض المُذل.

- اهدأ.. لا تلفت الأنظار إلينا.

كنـت أضغـط عـلى يـده بقـوة وعصبيـة وخـوف، وكان صـوت

القاضي الشرعي في الميكرفون كافيًا لأن يسمعه حتى من بقي في باحة الجامع والشاشة تضاء من جديد:

	اسم السبية	العمر	السعر
1	جورين - أيزيدية	21 سنة	$ 800
2	عفاف - أيزيدية	21 سنة	$ 800
3	سولاف - أيزيدية	21 سنة	$ 800
4	هيفار - أيزيدية	21 سنة	$ 800
5	كلستان - أيزيدية	21 سنة	$ 800
6	يارا - أيزيدية	21 سنة	$ 800
7	جنان - أيزيدية	21 سنة	$ 800
8	بيرهات - أيزيدية	21 سنة	$ 800
9	نجاة - أيزيدية	21 سنة	$ 800
10	مزكين - أيزيدية	21 سنة	$ 800

كشفت أم المجاهدين وجوه الفتيات المخطوفة أمام الجميع كما فعلت في المرة السابقة، وتقدم أكثر من عشرين شخصًا يتأملون الفتيات الملفعات بالسواد، وفي الوقت الذي انسحب فيه الأغلبية رسا البيع على سبع فتيات، اثنتان منهما كانتا من نصيب شيخ لا يعرفه أحد، و يبدو أنه قدِم من إحدى القرى المتاخمة لسنجار، وأرجعت أم المجاهدين الثلاث الباقيات إلى الغرفة الجانبية.

كانت قاعة الجامع هادئة تقريبًا، وكنت أسمع أنفاس سربست المتسارعة، وأشعر بنبضه السريع وجسده الذي يرتعش كثيرًا.

الجمعة - العرض الثالث:

زاد سربست من قلقي، وهو لا يستطيع أن يثبت في مكانه، فاقد التركيز والأعصاب إلى حد جعلني خائفًا ومضطربًا وعصبيًا، فزدتُ من ضغطي عليه هامسًا بحنق، وأنا أراه يتحول إلى كائن آخر، ليس هو **سربست** الصامت الذي عرفته. فأجبرته على أن يمتثل لهذه اللحظات الخطيرة التي ستأتي بنشتُمان أو عائشة، أو نضيع كلنا في هذه الفوضى التي يثيرها، ولم ينتبه إليه أحد بسبب انهماك الجميع بترقب السبايا في العرض الثالث.

هدأت القاعة حينما نادى القاضي الشرعي بأسماء الوجبة الثالثة والأخيرة. فبزغت أسماء الفتيات مع صوت القاضي:

	اسم السبيّة	العمر	السعر
1	إكرام - أيزيدية	20 سنة	$ 900
2	نازك – أيزيدية	20 سنة	$ 900
3	إيفين – أيزيدية	20 سنة	$ 900
4	لينا- أيزيدية	20 سنة	$ 900
5	إشراق – أيزيدية	20 سنة	$ 900
6	افتخار- أيزيدية	20 سنة	$ 900
7	لجين- أيزيدية	20 سنة	$ 900
8	نجمة – أيزيدية	20 سنة	$ 900
9	تالين – أيزيدية	20 سنة	$ 900
10	آشين - أيزيدية	20 سنة	$ 900

تـم شراء ثمـاني صبايـا عـلى الفـور، واختلـف أربعـة شـباب عـلى الصبيــة تالــين التــي شــعّت شــقرتها حــين كشــفت وجههــا أم المجاهديــن، وبينـما تنــازل أحدهــم وانســحب، بقــي ثلاثــة رجــال متقاربــين في الأعــمار معانديــن، ومصرّيــن عــلى المــزاد. أحدهــم زنجـي بملامـح أفريقيـة لم يـره أحـد في الجامـع إلا هـذا اليـوم، وكان غاضبًـا عـلى نفسـه عـلى مـا يبـدو،

غليـظ الـكلام، غـير منضبـط كليًّـا، لكنـه اسـتطاع أن يُـرسي المـزاد عليـه بــ 1752 دولارا، فتحـول وجهـه إلى كتلـة مـن الفـرح الصبيـاني، وهـو يتلقـى تهنئـة رفاقـه الحاسـدين، وبقـي الرجـلان اللـذان فشـلا في تقديـم السـعر المطلـوب ينظـران إليـه بكراهيـة.

الجمعة - العرض الخاص:

دخلـت مجموعـة مـن الذيـن كانـوا في الباحـة الخارجيـة، بعدمـا توفـرت بعـض الأماكـن التـي غادرتهـا مجموعـات صغـيرة، وانتظمت الصفـوف مـن جديـد، وسـاد اللغـط قليـلًا، وظـل سربسـت يجيـل نظـره إلى الـوراء والأمـام، وقلبــه يضطـرب ماسـكًا خاصرتـه كأنـه سـيُخرج منهــا سـيفًا، ويــكاد النبـض يتوقــف في صــدره حينــما انتهــت العــروض الثلاثــة مــن دون أن تكــون بينهــنّ نشــتُمان أو عائشــة.

تدخل القاضي الشرعي قائلًا:

- الآن أنهينـا ثـلاثَ مجموعـاتٍ مـن السّـبايا الأيزيديـات، ونهنّـئ

المجاهدين الذين رسا البيع عليهم بالحياةِ الرغيدة، في عهد دولة الخلافة الإسلامية القائمة على مبدأ الإسلام الحنيف، وشرعيته في الحياة العامة. أما اللواتي لم يحالفهن الحظ في البيع فسنرسلهن إلى ولاية الموصل.

أشار لبعض الشباب في آخر القاعة أن يمتثلوا للهدوء.

التفت **سربست** وراءه فرأى القاعة مكتظة، تصطف فيها وجوه غريبة فقدت الكثير من سماتها وملامحها البشرية. مما زاد من وجيب قلبه، فانتابه القلق بريقٍ جاف، وشفتين تشققتا من الجفاف.

ضرب القاضي الشرعي بيده على الطاولة، ليلفت الانتباه، ويقطع اللغط:

- الآن بقيت لدينا ثلاث صبايا، وهن آخر أرامل المرحوم بإذن الله، الشيخ المجاهد أمير الأمراء **أبو العينين**، وهنّ من الصبايا الباكرات قطعًا، وقد تم فرزهن من قبل لجنة شرعية وطبيبة مختصة. وهاته الصبايا لم يخضعن إلى سعر ثابت، بل نترك تقديرات المزاد لمن يزيد عليهن باعتبارهن مالًا عائدًا إلى دولة الخلافة.

مدّ عينيه إلى آخر القاعة، وعاد يستكمل التوضيح:

- الأسباب الشرعية التي تدعونا إلى ذلك، هي أن الصبايا الثلاث أعمارهن صغيرة وهن أجمل الأسيرات برأي لجنة من المجاهدات، وكنّ مقرباتٍ إلى الشيخ المجاهد **أبي العينين** وما زلن باكرات بشهادة الطبيبة الشرعية، وصالحات للزرع والحرث

كونهن بلغن سن الأنوثة؛ لهذا رأت اللجنة أن من يدفع أكثر سيكون صاحب النصيب الأول.

العرض الخاص - الأول:

أدخلت أم المجاهدين البنات الثلاث، ونظّمت وقوفهنّ متباعدات قليلًا، وكنّ يرتدين السواد من أعلى الرأس حتى القدمين، وبدت أطوالهنّ متقاربة كأنهنّ في عرض مسرحي شبحي.

- والآن على بركة الله نقرأ الأسماء ونفتح باب المزايدة على السبية الأولى:

1	جلنار - أيزيدية	16 سنة	مزاد مفتوح	يبدأ من 1000 $

- السبية الأيزيدية جلنار.

العمر 16 سنة

السعر غير محدد لكن يبدأ مزادها من 1000 دولار فمن يشتري؟

كشفت أم المجاهدين وجه جلنار الصغير، فتخاطفت عيناها الواسعتان بوميض غريب، أطار صواب سربست الجامد في مكانه. وجه صغير برّاق بالطفولة، وعينان واسعتان من الجمال أو الخوف.

قال شيئًا لم يتبينه راقيار في لجة احتدامات الرجل، لكنه وضع يده على كتفه:

- أرجوك اهدأ. ليست هي.

تقدم أكثر من مجاهد يرتدي السواد، عُرف عن أحدهم أنه مجاهد شرس، جاء من أقصى قرية لحضور المزاد، ووقف أمام البنت، وتطلع اليها ثم التفت إلى القاضي:

- أدفع 1200 دولارًا.

أعاد القاضي السعر الجديد للمجاهد المنتصب كالرمح عبر الميكرفون؛ غير أن مسنًا آخر كان يتطلع إلى السبية الصغيرة لكنه لم يرفع نظره عنها وهو يقول:

- أزيد 200 دولارًا يا شيخ.

أعاد القاضي الرقم الجديد:

- 1400 دولارًا

صاح الرجل الرمح:

- أزيد 100 دولار أخري.

تدخل عجوز من أقصى القاعة:

- أزيد 200 دولارًا.

صاح الرمح:

- وأزيد أنا أيضا 200 دولارًا.

كان القاضي يدوّن الأرقام في ورقة أمامه.

استقتل الرجل الرمح، ونادى بصوت أعلى:

- 2000 دولارًا وهذه السبية من حصتي فضيلة القاضي.

العرض الخاص - الثاني:

كان ثمّة لغطٌ في القاعة بعد أن ربح الرجل الرمح سبيّته، وصعد مع أم المجاهدين إلى الغرفة الجانبية، غير أن القاضي ضرب بمطرقته على المنضدة، وصاح بتعب، وكانت الشاشة الفضية تقرّب قليلًا الاسم الأخير في المستطيل الضوئي:

1	أرجوان- أيزيدية	16 سنة	مزاد مفتوح	$ 1500

- السبية الأيزيدية أرجوان. العمر 16 سنة. السعر غير محدد لكن يبدأ مزادها 1500 دولار فمن يشتري.

كشفت أم المجاهدين وجه الصبية الثانية، فانفتح بياض جميل، وعلت أصوات خفيفة تستحسن تلك الطلة الملهمة، فسارع أكثر من شخص، وعلا أكثر من صوت بما أحدث جلبة نسبية في القاعة.

رجل في الخط الأمامي أشعث الشعر بوجهٍ ذابل، وجّه كلامه إلى القاضي:

- فضيلة القاضي أنا أدفع مباشرة 2000 دولار لهذه الصبية والاتكال على الله.

عاتبه شخص من وسط الجموع وكان على رأسه يشماغ أبيض:

- يا أخ الإسلام. عليك أن لا تحرق السعر بهذه الطريقة السريعة.

التفت الأشعث إلى مصدر الصوت فردّ على الرجل:

- يا أخ الإسلام هذا مالي، وأنا حر به، أختار من أشاء.

وبطريقة غير متوقعة قال الرجل المعترض وهو يعدل من بشماغه الأبيض:

- أنا أدفع 2500 دولارًا لفضيلة القاضي.

تبسم الأشعث ولفوره قال للقاضي بعناد:

- عليَّ بثلاثة آلاف دولار فضيلة القاضي. هذه السبية قسمتي ونصيبي.

سكت الجميع وانسحب المضاربون على مضض، أولهم صاحب الغترة البيضاء، وكاد قلب سربست يتوقف حينما انسحبت البنت الثانية مع أم المجاهدين في الغرفة الجانبية، ولحق بهما الأشعث الذي توسع الفرح في وجهه الذابل، وبقيت السبيّة الثالثة وحدها منتصبة كشبحٍ أسود.

العرض الخاص - الثالث:

شدّ رافيار كتف صديقه وهمس:

- اهدأ.. لعلها نشتُمان الأخيرة، ولا تزايد أول الأمر. اترك الأمر يجري بسلاسة، فلدينا مال كثير وأكثر من ثلاثة كيلوغرامات من الذهب. لن يزايد علينا أحد. اصبر ولا تفضحنا أرجوك. انتبه إلى الاسم.. اسمها الإسلامي عائشة.

أوقف القاضي الضجيج المتعالي في القاعة بإشارة من يده، ثم طرق على المنضدة أمامه حتى ران سكون جديد. بينما

اشـتعلت الشاشــة الفضيــة، وهــي تقـرّب الاســم الأخـير في المـزاد:

1	**عائشة - أيزيدية**	**15 سنة**	**مزاد مفتوح**	**يبدأ من 2000 $**

السبية الثالثة والأخيرة في مزاد اليوم:

- **الأيزيديـة عائشـة. العمـر 15 سـنة. السـعر غـير محـدد لكننـا نبـدأ مـن 2000 دولار.**

قبــل أن تكشــف أم المجاهديــن وجــه الصبيــة الأخــيرة، اختلــج سربسـت، وتفاقـم نبضـه إلى حـد تشـبث بيـد رافيـار المنفعـل مثلـه، وحينــما انكشــف وجههــا شــعّ بيــاض غريــب ضــارب إلى الشــقرة، وبرقـت عينـان زرقـاوان ظللـت إحداهـما خصلـة شـقراء صغـيرة نافرة، فشـطرت العينـين إلى سـاحلين صغيريـن، رفـرف فيهـما جـمال لا يمكـن لأحـد أن يُخطئـه، فتدافـع بعـض الشـباب والرجـال لرؤيـة أصغـر صبية في العـرض.. سـبحان اللـه الخالـق الجميـل.. سـبحانك يـا ربي.

حاول سربست أن ينهض إلا أن رافيار تمسك به بقوة:

- أرجوك اهدأ.

- إنها ابنتي.

أمسـكه رافيـار، ولجـم فمـه مسـتغلًا بعـض الحـركات، والفـوضى داخـل القاعـة، فأحـس برفيـف جسـده المتوتـر، كـما لـو أن مروحـة بداخلـه تـدور بـلا هـوادة.

اقــترب كثــيرون مــن الحافــة الفاصلــة بــين الصبيــة ذات الوجــه الأشــقر البــارق، والخــط الأول مــن الجمهــور الــذي ســادت بينــه

الفوضى نسبيًا، ووقف الكثيرون يتأملون فلقة الجمال السماوي الصغيرة الجامدة بمكانها.

- هنيئًا لمن يحصل عليها.

تكررت هذه الأمنية بين الكثيرين، وبأصواتٍ مسموعة طرق بعضها أذني سربست الجامد هو أيضًا، ينظر إلى ابنته الواقفة بذل ورعب، فانتشله أول صوت لرجل ستيني ما يزال الغبار على وجهه، وكأنه جاء من الصحراء على حصان يطير أسرع من الريح:

- أدفع 2500دولارًا فضيلة القاضي.

وحينما حاول سربست أن يصرخ ويقول سعرًا أعلى، شدّه راڤيار بقوة وعصبية.. اش اش لا تفضحنا يا أخي.. سيحرقونك ويحرقونها.. اهدأ أرجوك.

– عليَّ ب 2700 دولارًا فضيلة القاضي.

وكان هذا صوت عجوز على يسار المكان، قريبًا من السبيّة الحائرة، وهي ثابتة العينين كأنما ماتت للحظتها، فيما كان سربست يحبس أنفاسه، ويحاول أن يخفف من نبضه المتزايد، لا سيما بعض العجائز أخذوا يصعّدون من السعر بأصوات متعاقبة، فيها إصرار على شراء السبية الشبح.

- فضيلة القاضي أدفع 3000 دولار

- أشتريها بـ 3500 دولارا

- عليّ بـ 4000 دولار

- حق هذي السبيّة 4100 دولارًا

- لا.. حقها 4500 دولارا

انتبه سربست إلى رجل متشح بالسواد، تتدلى ضفائره على صدره، وهو يشق الصفوف ويقف أمام السبية الصامتة، وينظر إليها بشكل مباشر، ثم التفت إلى القاضي:

- سبحان من خلق هذا الجمال. سبحانك يا ربي. أنا أدفع 6000 دولار، وأظن أنها من نصيبي.

خفق قلب راڤيار وهو يتطلع إلى هذا الكائن الغريب بضفائره المتدلية فلم يتمالك أعصابه فرفع يده:

- فضيلة القاضي. أنا أدفع 6500 دولارًا.

التفت رجل الضفيرة إلى راڤيار بحنق، ومن دون أن يلتفت إلى القاضي قال:

- أنا أدفع 7000 دولارًا.

انشدّت أعصاب راڤيار أكثر من سربست المتهالك، وهو ينظر إلى صبيته التي فارقها منذ سنتين، وبقي الآخرون يتطلعون إلى هذا النزال مع رجل الضفائر المتدلية.

صاح راڤيار:

- 8000 دولار فضيلة القاضي.

فهمهم البعض ممن يعرف راڤيار: تصوروا. الراعي لديه مثل هذا المبلغ.

عاد الرجل الأول وهو يقترب من القاضي:

- 9000 آلاف دولار. لعلها تكون من قسمتي.

تتسع الابتسامة في وجه القاضي، وهو يرى الجو المشحون لآخر صبية استحوذت على القوم، فرفع سربست نفسه بصعوبة، وحاول أن يستدير قليلًا ليعطي جزءًا من ظهره لصبيته الجامدة في مكانها، وعيناها الزرقاوان ترفرفان بين المتساومين بهلع لم تستطع إخفاءه.

قال بصوت ضعيف:

- عشرة آلاف دولار فضيلة القاضي.

بدا الانفعال على رجل الضفائر، وهو يقترب من سربست قليلًا ليرى وجهه الذي اكتسى باصفرار غريب، وقبل أن يقول شيئًا دقّ القاضي بمطرقته على الطاولة وقال:

- عشرة آلاف دولار لهذا الرجل.. من يدفع أكثر؟

-.. ونصف...

قال ذو الضفائر بنوع من التحدي العدواني، فيما صمت البقية الذين ظلوا مشدودين إلى المساومات المثيرة.

شعر سربست بأنه في طريقه ليخطف ابنته بأعلى سعر، فمدّ يده إلى زيقه واقترب من منصة العرض، وجهًا لوجه أمام الصبية، بطريقة بطيئة، لكن مرتعشة، يدبُّ وراءه راڤيار بقلق وخوف، ويراقبه نور الدين برعب من آخر القاعة، وينظر إلى اللعبة المتوحشة، وقلبه يكاد يطفر من صدره.

سحب سربست كيس الذهب المدفون في خاصرته تحت دشداشته،

ورفعه من عنقه كأنه يخنق حمامة صغيرة ويريد تحريرها، فيما كانت عينا الصبية تتسعان فتغيض فيهما الزرقة المالحة، ويختلط معهما الدمع وتتحجر شفتاها، كما لو أدركت بحس فطري اللحظة العظيمة والخطيرة، وهي ترى والدها بطوله الفارع، يتقدم بكيس لم يفصح عنه، غير أن الجميع سمعوا خرخشته وهو يرفعه إلى الأعلى، ماسكًا عنق الحمامة بقوة. فران صمتٌ مهيب في القاعة المكتظة بالأنفاس، وكان الرجل يتقدم بخطىً ترتعش حتى صار أمام القاضي الشرعي، وقال بارتياح وانتصار:

- هذه ثلاثة كيلوغرامات ذهب سعر هذه السبيّة.. أنا أتزوجها!

تمت

بغداد

2016 - 2018

سيرة الرواية

إصدارات المؤلف الروائية:

1- شظية في مكان حساس - مؤسسة ثائر العصامي - بغداد - 2019

2- امرأة بنقطة واحدة – دار نينوى – دمشق – 2018

3- الحلوة - دار نينوى - دمشق - 2017

دار سطور - بغداد – 2017

4- جمهورية مريم - ايطاليا- منشورات المتوسط - 2017

طبعة كردية من دار فيربوون 2019

5- عذراء سنجار- دار ضفاف - بيروت – 2016

الطبعة الثانية – دار شنكال – دهوك – 2016

الطبعة الثالثة – مؤسسة ثائر العصامي – بغداد – 2018

الطبعة الكردية – 2018 – السليمانية

6- شبيه الخنزير - الطبعة الثالثة - دار سطور - بغداد 2015

الطبعة الثانية 2009 - دار فضاءات - عمّان -

الطبعة الأولى 2004 - دار الحضارة العربية - مصر

7- تجميع الأسد - الدار العربية للعلوم - ناشرون - بيروت - 2014

الطبعة الثانية- مؤسسة ثائر العصامي - 2018

٨- عجائب بغداد - الدار العربية للعلوم - ناشرون - بيروت – 2012

الطبعة الثانية – مؤسسة ثائر العصامي - 2018

٩- مولد غراب - (رواية) دار الحضارة العربية - القاهرة - 2004

ط2 ط3 ط4 بغداد (سطور)

10- طيور الغاق - (رواية) دار الشؤون الثقافية - بغداد - 2000



وارد بدر السالم

بنات لالِشْ

(اكتشاف عذراء سنجار)

هذا العالم الذي قرأنا عنه كثيرًا من الأخبار، يتجسد هنا برعبه وجبروته وخروجه عن كل ما جاءت به الديانات السماوية، وعلى رأسها الإسلام الكريم. عالم داعش وما فعلته في بلد حضارته من أقدم الحضارات التي عرفها التاريخ. أعني به العراق الذي وجدت فيه داعش مكانها منذ وقت قريب. هنا تتجسد أبشع جرائمها وهي الاتجار بالنساء، ومن خلال رحلة بحث للأب الأيزيدي عن ابنته نعرف ماذا جرى، وكيف أساءت داعش لكل ما نعرفه عن الله الرؤوف الرحيم، وعن الرسول الكريم نبي العالمين من محبة للناس وصلاح بينهم. يفعل الدواعش ذلك ليسوغوا لأنفسهم المتعة الخبيثة بالفتيات، ناهيك عن قتل من يرونهم خصومًا بأبشع الطرق، ومتعتهم في التمثيل بجثثهم.
الرحلة تتنقل من المدن إلي الصحارى إلي الجبال، ومعها الروح المكلومة تبحث عن مهرب وملاذ للابنة ممثلة للجميع. تبحث عن الوطن. يستخدم وارد كعادته لغة صورية تجسد لك كل المشاعر الإنسانية جادة وهازلة. والقلق والرعب يمشي بها في سرعة، فما تكاد تبدأ في الرواية حتى تنتهي منها، وتصبح على رغم شجاعتها فنًا بين يديك، وليس هذا غريبًا عليه، هو صاحب الأعمال الجميلة من الروايات مثل 'امرأة بنقطة واحدة' و'جمهورية مريم' و'الحلوة ' و'عذراء سنجار' و'عجائب بغداد' و'طيور الغاق' وأخيرًا ' شظية في مكان حساس - انفجار آخر مفخخة في بغداد' مما نشر في أكثر من دار عربية شهيرة.

إبراهيم عبد المجيد







ISBN 978-9-77817-196-9